مذاهب وشخصيات

التيارات المذهبية

بين العرب والفرس

بقلم
الدكتور احمد محمد الحوفي



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

إذا كان العالم الحديث يتصل بعضه ببعض اتصالا يختلف فى القوة والضعف ، ويتباين فى السلام والحرب ، وفى المودة والعداء ، ويتفاوت فى التأثير والتأثر ، فقد كان العالم القديم شبيها فى هذا بالعالم الحديث ، على ما بين العالمين من فوارق فى وسائل الاتصال وطبيعتها وسرعتها وقوتها ، وما ينجم عنها من تبادل التأثير والتأثر .

والحق أن التاريخ فى هذا يعيد نفسه ، فالعزلة المطلقة ضرب من المحال بين الشعوب التى تتجاور فى الموقع ، أو تتقارب فى المكان ، فتشتبك مصالحها ، وتتفق فى سياستها أو تختلف ، وتقوم علائقها على السلم تارة ، وعلى الحرب تارة ، وتتبادل التأثير والتأثر ، فيأخذ بعضها من بعض ، ويعطى بعضها بعضاً .

وليس من شك فى أن اتصال أمة بأمة لابد أن يُعْقِبُ آثاراً شتى فى النظم والعادات والعقائد واللغة والأدب والثقافة ، تظهر معالمها فى الضعيف المحاكِى أكثر مما تظهر فى القوىِّ الذى يحاكَى ، لأن الناس مولعون بمحاكاة من يرونه أعلى منهم حضارةً وأوسع ثقافةً ، وأعظم معرفةً ، سواء أكان الغَلَبُ السياسى له أم لهم .

وهذه دراسة لصلات العرب والفرس فى الجاهلية والاسلام، وما أثمرته من تبادل التأثير والتأثر فى نظم السياسة والاجتماع والعقائد والعادات ، وما نجم عن هذا كله فى اللغة والأدب والثقافة .

وقد قصدت إلى تقسيم الدراسة إلى قسمين : القسم الأول خاص بالعصر الجاهلى والقسم الثانى مقصور على العصر الإسلامى ، لأن لكل من العصرين وسائل ا

وضروب تأثير وتأثر ، ولأن الفرس والعرب كانوا فى العصر الإسلامى أقوى صلات وأكثر علاقات ، فكان تأثير الفرس فى العرب حينئذ أوسع وأعمق مما كان فى العصر الجاهلى ، وكانت آثار العرب فى الفرس لا تقل عما نقلوه من الفرس إن لم تزد عليه شمولا وعمقاً وسعة .

ولست أزعم لهذه الدراسة أنها قائمة على الاستيعاب أو الاستقصاء ، فإنها لاتتجاوز شق الطريق ، ونصب المعالم ، والتمهيد للرواد ، وما زال كثير من موضوعات البحث جديرا بأن يفرد ببحث مستقل مُفَصَّل ، لعله يكشف عن جديد ، ولعله يغير بعض ما رسخ فى الأذهان من أوهام وأغاليط كادت لكثرة ترددها تصل إلى مرتبة الحقائق المقررة التى ينقلها لاحق عن سابق .

وأرجو أن أوفق إلى دراسات مشابهة تتناول صلات العرب بغير الفرس من الأمم التى عاصرتهم فأعطتهم وأخذت منهم ، كالرومان والروم والحبش والهنود ، فإن علائق العرب بهؤلاء كعلاقتهم بالفرس ، تمتد جذورها إلى ما قبل الإسلام ، ثم يتجلى تأثير بعضها وتأثره قويا واضحا بعد الإسلام .

الباب الأوّل

بين العرب والفرس فى الجاهلية



الفصل الأول

صلات العرب بالفرس

أولا — قبل إمارة الحيرة

١ — يحدث التاريخ بصلة قديمة جداً بين العرب والفرس ، نشأت قبل أن تؤسس إمارة الحيرة بقرون ، يحدث أن العرب أدوا الجزية للملك قورش بخورا ولبانا فى عام (٥٥٠ ق . م) إذ استولى الفرس على أكثر الهلال الخصيب واتصلوا بالعرب ، واحتكوا بهم احتكاكا مباشراً .

٢ — ثم استعان قمبيز بالعرب فى غزو مصر (٥٢٥ ق . م) فمدوه بالإبل ، وزودوا قواته بالماء ، وساعدوه مساعدة كبيرة ، لولاها ما استطاع أن يصل إلى مصر وبعد ذلك بثلث قرن ساعدوا الفرس فى حملتهم على اليونان (٤٩٢ ق . م)[1] .

٣ — وقد ذكر الكاتب اليونانى كيتوفند (٤٠١ ق . م) أن كُورة فى شرق الفرات كانت تسمى (العربية)[2] .

على أن البلاد الواقعة شرقى الفرات أسفل مصب نهر الخابور كانت تسمى بلاد العرب منذ عهد قرطاجنة (٤٠١ ق . م)[3] .

٤ — وفى أوائل القرن الثالث بعد الميلاد تنازعت إياد ومضر بعد انتصارها على جُرْهُم وإجلائها عن مكة ، فهُزِمت إياد ، وهاجرت إلى العراق ، وكان أكبر موطن لها عين أباغ . على أنها استوطنت أجزاء متفرقة من جنوبى الحيرة[4] ، منها

---

(١) العرب قبل الإسلام جرجى زيدان ١٠١ نقلا عن هيرودوت . وتاريخ العرب ٥٥ فيليب حتى .

(٢) مجلة المجمع اللغوى ٣ — ٣٣١

(٣) تاريخ الحضارة الإسلامية ٢٨ بارتولد .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية ٣ — ١٦٧

سنداد — نهر فيما بين الحيرة إلى الأُبُلّة — وكانوا ذوى منعة ، لا يعطون الأتاوة أحداً من الملوك ، وقد أغاروا على بلاد الفرس مرتين وانتصروا[١] .

• — وفى عهد سابور الأول ابن أردشير (٢٤١ — ٢٧٣ م) كان بين دجلة والفُرات مدينة يقال لها الحَضْر ، وكان ما لكها ومالك أرض الجزيرة هو السَّاطِرون والعرب تسميه الضَّيزَن ، وكان معه من قبائل قضاعة وبنى عبيد بن الأجرم عـــدد كَبير ، استعان بهم فى بسط نفوذه حتى الشام . ثم إنه أغار على بعض سواد العراق[٢] ، وفى شعر عمرو بن إلّه من قضاعة فَخْر بهذه الإغارة :

لقيناهم بجمع من عِـلافٍ   وبالخيل الصلادمة الذُّكور
فلاقت فارسٌ منا نكالا   وقتلنا هرابذَ شهرَ زُور
دلَفنا للأعاجم من بعيـــد   بجمعٍ م الجزيرةِ كالسعير[٣]

وقد شخص سابور إلى حصن الضيزن فحاصره عامين ، وإلى هذا يشير الأعشى بقــوله :

ألم تر للحَضْر إذْ أهــلُه   بنُعمى ، وهل خالدٌ من نَعِمْ ؟
أقام به شـاهبور الجُنو   د حولين يضرب فيـه القُدُم
فـا زاده ربُّه قوةً   ومثــلُ مجاوره لم يَقُم
فلـا رأى ربُّه فِعــلَهُ   أتاه طُروقاً فــلم ينتقم
وكان دعا قومه دعوة   هلموا إلى أمركم قـد صُرم
فموتو كراماً بأسيافكم   أرى الموتَ يَجْشَمه من جَشِم[٤]

---

(١) شرح القصائد العشر للتبريزى ٢٧٣

(٢) تاريخ الطبرى ٢ — ٦٢ ، وابن خلدون ٢ — ٢٤٩

(٣) تاريخ الطبرى ٢ — ٦٢ والأغانى ٢ — ١٤١ ، الهرابذة : جمع هربذ وهو خادم نار المجوس .

شهر زور . مدينة فارسية . علاف : علاف بن حلوان من قضاعة تنسب إليه الخيل العلافية . الصلادمة : القوية الشديدة .

(٤) تاريخ الطبرى ٢ — ٦١ وسيرة ابن هشام ١ — ٢٨ ومعجم البلدان ٣ — ٢٩١ وديوان الأعشى ٤٢ . شاهبور الجنود : سابور الأول وكان يسمى لكثرة جنوده شاهبور الجنود .

ثم فتح سابور الحصن ، وقتل الضيزن ، ونكل بمن كانوا معه من قضاعة ، فقال عمرو بن إله ، وكان فيمن شاهدوا المعركة :

ألم يحزنك والأنباء تنمى بما لاقت سراةُ بنى العبيدِ
ومصرع ضيزنٍ وبنى أبيه وأحلاسِ الكتائب من تزيد
أتاهم بالفيول مجللاتٍ وبالأبطال سابورُ الجنود
فهدّم من أواسى الحصن صخراً كأن ثقاله زُبَرُ الحديد[1]

ولقد فسح الأخباريون لخيالهم المجال ، فزعموا أن ابنة الضيزن عشقت سابور وعشقها ، وأنها هى التى دلته على حيلة لتقويض الحصن ، ثم غدر بها[2] .

٦ — ثم انتهز العرب صغر سن سابور الثانى (٣٠٩ – ٣٧٩ م) فأغاروا على أطراف مملكته ، كما طمع فيها الترك والروم ، وكان العرب أقرب إلى فارس ، وأحوج إلى تناولِ شيء من خيراتِ الفرس ، لسوء حالهم ، وشظف عيشهم ، فسار جمعٌ عظيمٌ منهم فى البحر من ناحية بلاد عبد القيس والبحرين وكاظمة حتى تُخوم فارس ، وغلبوا أهلها على مواشيهم وحروثهم ، وأكثروا الفساد فى تلك البلاد ، واطمأنوا هنالك مدّةً لا يحاربهم أحد من الفرس . فلما كبر سابور انتخب ألف فارس من صناديد جنده وأبطالهم ، وسار بهم فأوقع بهؤلاء العرب ، وقتّلهم تقتيلا ، وأسرهم أسراً عنيفاً ، ولم ينج منه إلاّ من هربوا .

ويقال إنّه لم يكتفِ بذلك ، بل اجتاز البحر إلى بلاد العرب ، فورَدَ الخطَّ والبحرين وقتل أهلهما ، ثم ورد هَجَر فأروى الأرض بدماء من هنالك من تميم وبكر وعبد القيس ، حتى كان الهارب منهم يرى أنه لن ينجيه غار فى جبل ولا جزيرة فى بحر . ثم عطف على بلاد عبد القيس فأباد أهلها إلا من هرب ، ثم أتى اليمامة فأسرفَ فى التقتيل .

وهو فى أثناء ذلك لم يمر بماء من مياه العرب إلا غوّره ، ولا بئر إلا طمسها .

---

(١) الطبرى ٢ — ٦٢ والأغانى ٢ — ١٤٢ ومعجم البلدان ٣ — ٢٩١ ونسب الشعر لجدى بن الدلهاث .

(٢) الطبرى ٢ — ٦٣ ومروج الذهب ١ — ٢٩٦ والأخبار الطوال للدينورى ٥٠

ثم اقترب من يثرب فقتل وأسر .

وعرّجَ على بلادِ بكر وتغلبَ فيما بين مملكة فارس والروم بالشام فقتل وسبى وانتقم .

ثم أسكن الأسرى من العرب من بكر بن وَائِل كِرْمان ، ومن بنى حنظلة الأهواز ، وأسكن عدداً عظيماً من أسرى العرب إقليم تَوَّج . وكانت حملاته هذه نحو ٣٥٠ م .

وعاش سابور حياته نَهِماً إلى قتل العرب ، ونزع أكتاف رؤسائهم ، ولهذا سماه العرب ذا الأكتاف[1] .

ولقد ثأر العرب منه فيما بعد بانضمامهم إلى خصمه يوليان مَلِكُ الروم فى الحرب التى قامت بينهما (٣٦١ — ٣٦٣ م) حتى قالوا إن العرب كانوا فى جيشه مائة وسبعين ألفاً[2] .

٧ — وكأنما يأبى هذا العداء المستحكم إلا أن يغزو البحرين أردشير الثانى (٣٧٩ — ٣٨٥) ، فألقى ملك البحرين بنفسه فى البحر[3] .

ومن هذا نرى أن الفرص قد تعددت لأن يحتك العرب بالفرس من قديم وأن يخالطوهم ويساكنوهم ويحاربوهم قبل أن تؤسس إمارة الحيرة .

---

(١) تاريخ الطبرى ٢ — ٦٦ — ٦٩ و ٣ — ٦٨ ومروج الذهب ١ — ١٢٢ — ١٢٤ وتاريخ ابن خلدون ٢ — ١٦٩ ودائرة المعارف الإسلامية مادة بكر .

(٢) الطبرى ٣ — ٦٨ .

(٣) تاريخ ابن خلدون ٢ — ١٦٩

ثانيا — إمارة الحيرة

رأى الفرس أن الوسيلة المثلى للاطمئنان على الأمن في هذا الجانب من مملكتهم أن يساعدوا القبائل العربية النازلة على مقربة من حدودهم على تأسيس إمارة تقيهم غزوات العرب ، وتحجز بين حدود الفرس وحدود الروم ، هي إمارة الحيرة.

١ — والحيرة مدينة قديمة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة،على بحيرة النجف وعن كثب من البادية . ويظهر أن كلمة الحيرة سريانية (حرتا) ومعناها المعسكر ، وقد ذكرت باسم (إرتا) على أنها مدينة بارثية ، في كتاب فلاوكوس[١] وفي كتاب ستفانوس البيزنطي[٢] .

وكانت المدينة مكونة من قصور محصنة ، حول ميدان واسع لم تكن له وسائل دفاع ، ولم يكن حول المدينة سور يحميها أو حصن يقيها . لهذا لما سار إليها خالد ابن الوليد (٦٣٣ م) ليفتحها تحصن أهلها بقصورهم ، فساق خالد قطعانهم وأغنامهم إلى زرعهم الذي لم يكونوا حصدوه ، فطلبوا المفاوضة على التسليم .

كان أهل الحيرة منذ القرن الثالث الميلادي ثلاثة أصناف :

تنوخ وهم البدو النازلون غربي الفرات[٣] ، والعباد وهم السكان الأصليون الذين سكنوا المدينة وبنوا فيها ، والأحلاف وهم النازلون بالحيرة من غير هؤلاء جميعاً ، وسموا بذلك لتحالفهم مع العباد .

وهؤلاء السكان كلهم من العرب .

٢ — ليس من المعلوم يقينا متى بدأ تأسيس الإمارة ، أكان في عهد سابور الأول ابن أردشير ملك الفرس (٢٤١ — ٢٧٢ م) إذ نصب على الحيرة عمرو بن عدي أم كان في عهد أبيه أردشير (٢٢٦ — ٢٤١ م) . ؟

---

(١) Fragmenta. p. 409.

(٢) Ethnica. p. 276.

(٣) هؤلاء من العرب الذين اجتمعوا من البحرين وتحالفوا على التناصر فصاروا يدا واحدة وضمهم اسم تنوخ (الطبري ١ — ٧٢٦ ، وابن الأثير ١ — ١٣٥ والأغاني ١١ — ١٥٥) .

ويظهر أن الإمارة بدأت فى عهد أردشير ، إذ تأمر على الحيرة مالك ابن فَهْم الأزدى ، ثم خلفه ابنه جذيمة الأبرش، ثم تولى بعد جذيمة ابن أخته عمرو بن عَدِىّ (٢٦٨ — ٢٨٨ م) وهو أول الأمراء اللخميين آل نصر ، وأول من يعده أهل الحيرة من ملوك العرب بالعراق ، ثم توالى بعده الأمراء من اللخميين ، حتى عمرت إمارتهم نحو أربعة قرون ، إلى أن افتتحها خالد بن الوليد سنة ٦٣٣ م[1] .

٣ — كان أمراء الحيرة أو ملوكها يخضعون للفرس خضوعاً اسميا ، وكان الفرس يعفونهم من الإتاوة لقاء حمايتهم للحدود ممن يغير عليها ، وكفاء مساعدتهم لهم فى حروبهم للروم .

على أنهم بلغوا من القوة أحيانا إلى حد المساواة بينهم وبين الفرس والروم ، فحاربوا الفرس حينا ، وحاربوا الروم أحياناً ، منتصرين للفرس وموالين لهم .

ومن أعظم ملوكهم النعمان بن امرىء القيس بن عمرو المعروف بالنعمان الأعور (حوالى ٤٠٣ - ٤٣١ م) كانت عنده كتيبتان يقال لإحداها دَوْسَر وهى عربية ، ويقال للأخرى الشَّهْبَاء ، وهى فارسية ، فكان يغزو بهما بلاد الشام ومن لم يخضع له من العرب[2] .

كذلك عظمت مكانة الحيرة فى عهد المنذر الثالث الملقب بابن ماء السماء (حوالى ٥١٤ — ٥٥٤ م) وهو الذى رفض أن يعتنق الزدكية كما اعتنقها ملك الفرس قباذ ، فعزله قباذ ، وولى على الحيرة الحارث بن عمر أمير كندة ، فلما مات قباذ وخلفه ابنه كسرى أنوشروان نكل بالزدكية وأتباعها ، وأعاد المنذر إلى إمارة الحيرة ، وكان هذا سبباً فى حروب بينه وبين الحارث الكندى ، إلى أن قضى عليه وعلى بنيه .

ويبدو أن رفض المنذر للمزدكية وانتصاره على الحارث الكندى ، وتخوف

---

(١) الطبرى ٢ — ٣٧ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ١٥٦ ومروج الذهب ١ — ١٢٦ ، وتاريخ الإسلام السياسى ٤٨ حسن إبراهيم

(٢) الطبرى ٢ — ٧٣ .

كثير من العرب أن يحكمهم الحبش الذين استولوا فى ذلك الوقت على اليمن ، يبدو أن هذا دفع القبائل العربية فى نجد وشرق الجزيرة إلى أن تعلن ولاءها للمنذر . ثم زاد من مكانته أنه حارب الغساسنة والروم ، وانتصر عليهم مرات ، وكان من نتائج انتصاره أنه لما عقد الصلح بين الفرس والروم فى عهد الإمبراطور جستنيان عام ٥٢٢م كان من شروطه أن يدفع الروم لملك الفرس وللمنذر غرما متساويا من المال .

٤ — كان آخر ملوك الحيرة الأقوياء النعمان الثالث بن المنذر (٥٨٥ — ٦١٣م أو ٦٠٢ م) وهو أبو قابوس ، وصاحب النابغة الذبيانى ، وقاتل عبيد ابن الأبرص وعدى بن زيد فى إحدى الروايات ، وهو الذى مات فى جيش كسرى . (٦١٣م) وقد أقام كسرى اياس بن قبيصة خلفاً للنعمان على الحيرة ، ولم يكن من أهل بيت النعمان ، وأشرك معه فى الحكم رجلا فارسيا اسمه النخيرجان . وكان من أثر ذلك ضعف الحكومة العربية فى الحيرة ، ثم قيام حرب ذى قار بين الفرس والعرب ، وكان أياس ابن قبيصة وأولياؤه من العرب فى صف الفرس ، لكن العرب انتصروا على الفرس وعلى اياس .

ثم انفرد بملك الحيرة آزاد بن بابيان الهمذانى سبعة عشر عاما ، وجاء بعده المنذر بن النعمان ، فلم يمكث إلا ثمانية أشهر ، وهو الذى يسميه العرب المغرور ، إذ قدم خالد بن الوليد إلى الحيرة فافتتحها سنة ٦٣٣ م[١] بعد أن دامت نحو أربعمائة سنة وهى مدة طويلة فى أعمار الدول .

٥ — على أن الحيرة لم تكن حلقة الاتصال بين العرب والفرس فحسب ، إذ كانت الحيرة وما جاورها مجمعا لأديان شتى فى الجاهلية ، يدل على ذلك أن المسلمين فتحوها وعلى شواطىء دجلة والفرات فرس يعتنقون الزراد شتية ، ونصارى يدينون بالمسيحية ، وأناس يتبعون المانوية[٢] ، وأتباع لديانات قديمة وثنية ، بقيت منهم آخر طائفة وهم الصابئة بحران حتى القرون الوسطى[٣] .

---

(١) الطبرى ٢ — ١٠٦ — ١٥٧ .

(٢) ديانة نشأت من اتحاد دين زارادشت بالأفكار المسيحية والمقدية

(٣) الفهرست ١٧ والحضارة الاسلامية ٧٣ فون كريمر

Litetary History of Persia. Browne, p. 774

ثالثا — الفرس باليمن

لم يكن اتصال العرب بالفرس محصورا فى نطاق الجوار والمخالطة والغزوات المتبادلة والصلة التجارية ، عن طريق الحيرة وحدها ، لأن التاريخ ينبىء عن صلات أخرى .

١ — فقد قام أبو كرب أسعد الملقب بتُبَّع (حوالى ٣٨٥ — ٤٢٠ م) مع ابنه حسان بهجوم على شمالى الجزيرة[١]، أملا فى بسط سلطانه على بلاد العرب كلها ، ورغبة فى دعم نفوذه التجارى على طرق القوافل العربية ، لهذا عين ابنه على يثرب ، وعيّنَ على كِندَه أحد أقاربه وهو حُجْر آكل المرار ، ثم تقدم إلى الحيرة واستولى عليها ، ثم توغل فى فارس نفسها حوالى ٤٢٠ م أو ٤٢٥ م .

٢ — ولما تورطت اليمن فى النزاع الناشب بين الفرس والروم (٥٠٦—٥٢٦ م) آزر الملك معد يكرب بيزنطة على فارس ، بمحاربته المنذر ملك الحيرة الوالى للفرس سنة ٥١٦ م .

لكن اليمن بعد ذلك انحازت إلى فارس ، لأن الروم حاولوا أن ينشروا المسيحية بها ، وخوفوهم بالحبش ، فاعتنق اليهودية ذو نواس آخر ملوك التبابعة ، وعقد معاهدة مع المنذر الثالث ملك الحيرة وحليف الفرس .

٣ — فلما احتل الحبش بلاد اليمن سنة ٥٢٢ م لجأ سيف بن ذى يزن إلى الفرس ، ليستنجد بهم ، وليس بين المؤرخين خلاف فى هذا الاستنجاد ، فهم متفقون على أنه استنجد بقيصر ، فلم ينجده ، لرغبته فى أن تبقى اليمن خاضعة لأحلافه

---

(١) كان امرؤ القيس بن عمرو ملك الحيرة الموالى للفرس قد هجم على نجران ، وفى نقش النمارة (٣٢٨ م) اشارة إلى حملته ولقب نفسه بفاتح نجران وملك العرب ، وكان الغرض من هذه الحملة السيطرة على القبائل العربية المقيمة بين الحيرة واليمن ، والسيطرة على طرق القوافل التجارية ، والقضاء على احتكار اليمن لهذه الطرق . وتصدى لمقاومته اخوان هما الشرح يحصب وبازل باين ، وكانا قد اغتصبا الملك من شمر يهرعش ، واستعانا فى مقاومتهما بقبيلة كندة التى كانت قد هاجرت إلى شمالى اليمن ، واستقرت هناك ، وظلت بعد هجرتها موالية لملوك اليمن وشبه تابعة لهم .

وبعد هجوم امرىء القيس بنحو قرن زحف تبع على الشمال وعلى الحيرة .

الحبش ، فتكون طريقا إلى متاجر الروم ، وليناوىء النفوذ الفارسي والمتاجر الفارسية باليمن ، ولأن الدين المسيحي موحد بين بزنطة والحبشة .

فاتجه سيف إلى كسرى أنوشروان (٥٣١ — ٥٧٨ م) فأنجده بجيش خلص اليمن من حكم الحبش وأخضعها لحماية الفرس[١] .

ولقد ابتهج العرب بخلاص اليمن ، فوفدت على سيف وفودهم تهنئه بطردهم ، وسجل أبو الصلت والد أمية هذا الابتهاج بقوله :

لا يطلبُ الثأرَ إلا كابن ذى يزن في البحر خَيَّم للأعداء أحوالا
أتى هِرَقْلَ وقد شالت نعامته فلم يجد عنده النصر الذى سالا
ثم انتحى نحو كسرى بعد عاشرة من السنين يُهِينُ النفسَ والمالا
حتى أتى ببنى الأحرار يقدُمُهُم تخالهم فوق متن الأرض أجبالا
مَنْ مثلُ كسرى شهنشاه الملوك له أو مثل وِهْرِزَ يوم الجَيْشِ إذ صالا
لله دَرُّهُمُ من فتيةٍ صبروا ما إن رأيت لهم فى الناس أمثالا
بيضٌ مرازبةٌ غُلْبٌ أساورةٌ أُسْدٌ تُرَبِّبُ فى الغَيْضات أشبالا
أرسلتَ أُسْدًا على سودِ الكلابِ فقد أضحى شريدهمُ فى الأرضِ فُلَّالا
فاشرب هنيئا عليك التاج مُرْتَفِقًا فى رأس غُمْدان دارا منك مِحْلالا
وأطْلِ بالمسك إذ شالَتْ نعامتهم وأَسْبِل اليوم فى بُرْدَيْك إسبالا[٢]

وبنو الأحرار الذين عناهم أمية فى شعره هم الفرس الذين قدموا مع سيف بن ذى يزن وأبناؤهم إلى القرن الرابع الهجرى كانوا يسمون بنى الأحرار بصنعاء ، ويسمون

(١) الطبرى ٢ — ١١٥ — ١٢٤ وسيرة ابن هشام ١ — ٦٥ — ٧٣ .

(٢) سيرة ابن هشام ١ — ٩٦ والأغانى ١٦ — وابن قتيبة ١٧٧ وطبقات الشعراء لابن سلام ١٠٢ وأخبار مكة للازرق ١ — ٩٣ والطبرى ٢ — ١٢٥ وفى الأغانى أن الشعر لأمية لا لأبيه .

سال : مخفف سأل . مرازبة : جمع مرزبان وأصل معناه وزير الفرس والمراد أنهم ذوو رأى ومكانة . غلب : جمع أغلب . وهو القوى الشديد . أساورة : جمع أسوار بضم الهمزة وكسرها وهو قائد الفرس أو فارسهم أو مجيد الرمى بالسهام . تربب : تربى الغيضات جمع غيضة وهى المكان الملتف بالشجر ويكون مأوى للسباع . فلال : جمع فل وهو المهزوم . غمدان : قصر عجيب الصنعة بين صنعاء وطيوه . شالت نعامتهم : هلكوا . أسبل : أرخ ثوبك مختالا .

الأبناء باليمن ، والأحامرة بالكوفة والأساورة بالبصرة ، والخضارمة بالجزيرة ، والجراجة بالشام[١] .

وثمة قصيدتان أخريان فى تهنئة سيف بالخلاص من حكم الحبش[٢] .

ولكن لماذا ابتهج العرب بالخلاص من الحبش إلى الفرس ؟

لا شك أن اليمنيين والعرب عامة كانوا موتورين من سوء الحكم الحبشى ، ومحاولة الحبش استعمار الحجاز وهدم البيت الحرام . ثم إنهم — وإن لم يكن استقلالهم تاما فى عهد الحكم الفارسى — كان النفوذ لهم والسلطان ، لأن سيف بن ذى يزن كان يحكم اليمن ، ويدفع الجزية لكسرى فى كل عام[٣] وما من شك فى أن العرب كانوا يأنفون من أن يحكمهم الحبش ، وإننا لنتبين ذلك فى قول سيف لكسرى : « أيها الملك غلبتنا على بلادنا الأغربة ، فجئتك لتنصرنى عليهم ، وتخرجهم عنى ، ويكون ملك بلادى لك ، فأنت أحب إلينا منهم »[٤] .

فهو يعبر عنهم بالغربان ، ويؤثر أن يحكمهم الفرس على أن يحكمهم هؤلاء الغربان .

ونتبينه فى قول أبى الصلت فى قصيدته السابقة (أرسلت أسدا على سود الكلاب) وهو يعنى بالأسد الفرس ، ويعنى بالكلاب السود الحبش .

وقد نكل سيف بن ذى يزن بالحبش الباقين فى بلاده ثم اغتالوه ، فوثب إلى الحكم رجل من الحبشة ، فأخذ يقتل ويفسد ، فأرسل كسرى جيشا يقوده وهرز وأمره أن يقتل كل من باليمن من الحبش ، ففعل وأمره كسرى على اليمن ، فكان يتولى حكمها ، ويجبى إلى كسرى مالها .

ولما مات ولى كسرى ابنه المرزبان ، ثم مات فولى ابنه البينجان ، فمات هذا أيضا فعين كسرى ابنه خَرَّخُسْرة ، ثم عزله وولى بعده باذان ، ولم يزل باذان على اليمن ، حتى بعث الله النبى عليه الصلاة والسلام[٥] .

---

(١) الأغانى ١٦ — ٧٣
(٢) سيرة ابن هشام ١ — ٧٠
(٣) الطبرى ٢ — ١٢٦
(٤) الطبرى ٢ — ١١٦
(٥) الطبرى ٢ — ١٢٠ — ١٢١

رابعاً — التجارة

منذ زمن قديم اتصل العرب بالفرس اتصالا تجاريا ، كانت له عدة وسائل .

١ — فقد كان السبئيون حلقة اتصال بين الهند والحبشة وشرق أفريقية وبين شمالى آسيا وشمالى أفريقية ، وكانت عمان الإقليم الشرقى لهذه المتاجر .

٢ — فلما ضعفت حِمْيَر — التى خلفت سبأ — انتقلت المكانة التجارية إلى مكة ، وعقدت مكة معاهدات تجارية مع الأمم المجاورة ، إذا أخذ بنو عبد مناف العصم لقريش ، وكانت إحدى هذه العِصَم أو المعاهدات معاهدة أخذها نوفل من ملك فارس فتردد العرب على العراق وعلى فارس ، وبهذه المعاهدات التى عقدها أبناء عبد مناف مع حكام الشام من روم وعرب ، ومع الفرس والحبش وحمير جَبَّر الله قريشا ، وأصلح أحوالها ، وأفاء عليها كثيرا من الخيرات ، فسمى الأربعة الذين عقدوا المعاهدات المجبّرين[1] .

٣ — على أن العرب كانوا منذ زمن قديم يقدمون على الفرس بمتاجرهم وسلعهم ويمتارون من عندهم الحب والتمر والثياب وغيرها[2] وكانوا إذا أجدبوا قصدوا العراق وفارس فيشترون التمر والشعير ، ثم يعودون إلى بلادهم ، خوفا من الذلة فى سلطان دولة أعجمية[3] .

٤ — والذى يتتبع طرق القوافل ومسالك المتاجر يجد بينها طريقا من مأرب إلى جَرْهَا . وجرة مدينة على الخليج العربى — الفارسى — يرجح أنها أسست فى القرن الرابع قبل الميلاد ، وكان سكانها أصحاب نشاط تجارى ، وهى ممتازة الموقع ، لأنها تواجه الهند ، وتقع داخل خليج البحرين بمأمن من الأمواج وعلى مقربة من واحات الحَسَا التى تمد مفتاحا لقلب الجزيرة العربية ، والراجح أن موضعها كان قريبا من العُقَيْر الحالية ، ومازال هذا الطريق مسلوكا إلى يومنا هذا .

---

(١) الطبرى ٢ — ١٨٠ ومجمع الأمثال ٢ — ٦٦ والنوادر للقالى ١٩٩

(٢) الطبرى ١ — ٢٩١

(٣) ابن الأثير ٢ — ٢٢٨

ثم يجد طريقا آخر من جرة إلى بَطْو ، إذْ كانت بعضُ السِّلع تحمل فى قوارب إلى الخليج ، ثم تحمل فى الفرات ، ثم ترسل إلى الشام برا عن طريق تدمر . وهنالك طريق ثالث من جرة إلى الحَسَا واليمامة وغيرها من مناطق نجد[١] .

٥ — وكان الفرس يبعثون متاجرهم إلى أسواق العرب مثل عكاظ والمُشَقَّر ، ويبعثونها كذلك إلى اليمن وقلب الجزيرة العربية . وإذا كانوا لا يستطيعون حمايتها استعانوا بعرب الحيرة على خفارة القوافل التجارية ، ولا سيما المتجهة إلى سوق عكاظ لقاء جُعْل يقدمونه لأشراف القبائل الذين يحمون القوافل وكثيرا ما كان حماة القوافل يردون الجعل أن اعتدى أحد على القافلة وعجزوا عن حمايتها .

ولقد كان الاعتداء على القافلة يشعل حرباً ، كما حدث فى يوم السُّلَّان ، إذا قامت حرب بين النعمان الثالث — أبى قابوس — بن المنذر الرابع (٥٨٥ — ٦١٣) وبين بنى عامر بن صَعْصَعَة ، لأن بنى عامر اعتدوا على قافلة كسرى أبرويز المتجهة إلى عكاظ ، فغضب النعمان ، واستنفر أخاه لأمه وَبَرَةَ الكلبى ، وجمع بنى تميم والتقى الجيشان بالسُّلَّان ، واقتتلا أحرَّ قتال ، ثم انتصر العامريون على جيش النعمان[٢] .

وكذلك تحارب العرب والفرس فى يوم الصَّفْقَة ، لأن العرب اعتدوا على قافلة كسرى المرسلة إلى اليمن ، أو على قافلة أرسلها إلى كسرى عامله على اليمن ، واحتال كسرى وأعوانه من العرب على التنكيل بالمعتدين[٣] .

٦ — وقد امتازت مكة — كما الآن — بأنها سوق عالمية ، ترد إليها المتاجر من بلاد ومن أصقاع شتى ، حتى أن بعض مؤرخى الافرنج يرجحون أنه كان بها بيوت رومانية تشرف على الشئون التجارية الروم ، وكان فيها حبش يرعون مصالح قومهم التجارية[٤] .

ويؤكد لا مانس ما ذكره الواقدى من أن بعض الدول كبيزنطة وفارس ، كان لها ممثلون فى مكة نفسها[٥] . ومن هنا صارت مكة مركز الصيرفة ، وسوقا للتبادل ،

(١) الجغرافية التاريخية الإسلامية ١٢ محمد حسونه .
(٢) ابن الأثير ١ — ٢٣٤
(٣) الطبرى ٢ — ١٣٤ والأغانى ١٦ — ٧٥ والعقد الفريد ٣ — ١٠٤
(٤) فجر الإسلام ١٠ عن Arabia Before Mohammed.
(٥) عصر ماقبل الإسلام ١٢١ مبروك نافع .

وتداول الناس فيها دراهم الفرس[١] وكان التجار يستطيعون أن يدفعون فيها أثمان السلع التي ترسل إلى بلاد بعيدة ويستطيعون أن يؤمنوا على متاجرهم التي تجتاز طرقا محفوفة بالمخاطر ، لهذا سماها بعض المستشرقين بندقية بلاد العرب .

خامسا — صلات أخر

اتصل العرب بالفرس بوسائل أخرى ، كانت لها آثار ونتائج :

١ — فقد حكم الفرس البحرين وهَجَر ، وما زال حكمهم قائما إلى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، يدل على ذلك أنه بعث إلى أتباع كسرى بهجَر يدعوهم إلى الإسلام ، فأبوا ، فوضع عليهم الجزية ديناراً على كل رجل[٢] .

وقد نقل الفرس إلى هجر طائفةً من الفَعَلة لبناء حصن المُشَقَّر ، ومعهم نساء من ناحية السواد والأهواز ، فتناكحوا وتوالدوا وصاروا أكثر سكان مدينة هجر ، وتكلموا بالعربية ، وانتسبوا إلى عبد القيس .

فلما جاء الإسلام قالوا لعبد القيس: قد علمتم عددنا وعدّتنا وعظيم غنائنا فأدخلونا فيكم ، وزوجونا . فرفضت عبد القيس ، أنفة من أن يدخلوهم فيهم ، فتفرق القوم في العرب ، وبقيت في عبد القيس منهم بقية ، فانتموا إليهم فلم يردوهم من ذلك[٣] .

٢ — وكان الفرس يستخدمون بعض العرب في دواوينهم ، فكتب لقيط بن يَعْمَرَ الأيادي لكسرى وترجم له[٤] ، وكان عدي بن زيد من تراجمة كسرى أبرويز (٥٩٠ — ٦٢٨م) ثم خلفه ابنه زيد في وظيفته وكان زيد والد عديّ يقرأ العربية والفارسية[٥] .

٣ — على أن العرب رحلوا إلى فارس ليتعلموا ، كالحارث بن كَلَدَةَ الثقفي ،

---

(١) فتوح البلدان ٤٧١

(٢) المغازي للواقدي ٨٥ و ٨٨

(٣) الطبري ٢ — ٣٣١

(٤) الأغاني ٢ — ١٠١ ومعجم ما استعجم للبكري ١ — ٧٥

(٥) الأغاني ٢ — ١٠١ — ١٠٦

رحل من الطائف إلى جُندَ يسابور وغيرها من فارس ، فتعلم الطب ، والعزف على العود ، ويذكرون أنه قابل كسرى ، ودار بينهما حديث طويل[١] كذلك رحل ابنه النضر إلى الحيرة وإلى فارس ، فأتقن الفارسية وكلف بها ، وكان يقتنى بعض كتبها ويعاند الدعوة الإسلامية بها[٢] فإذا تحلق الناس حول النبي عليه الصلاة والسلام ليسمعوا منه ، خلفه في مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسنُ حديثاً من محمد ، فهلمَّ إليَّ ، فأنا أحدثكم أحسنَ من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وأسفندياذ ، والنضر هذا هو الذى قال : سأنزل مثل ما أنزل الله ، وفيه نزلت ثماني آيات من القرآن الكريم ، منها قوله تعالى : « إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين » ويرى بعض المفسرين أنه المقصود في الآية الكريمة : « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ، ويتخذها هُزُوا ، أولئك لهم عذاب مُهين » .

ورحل الأعشى إلى فارس وقيل إنه مدح كسرى وعرف كلمات فارسية كثيرة استخدم بعضها في شعره ، وقد سجل رحلاته في قوله[٣] :

وطوفت للشعر آفاقه عُمان وحمصَ وأوريشلم

أتيتُ النجاشيَّ في أرضه وأرض النبيط وأرضَ العَجَمْ

وفي قوله :

قد سرت ما بين بانقيا إلى عَدَنٍ وطال في العُجم ترحالى وتسيارى

ووفد عبد الله بن جُدعان على كسرى[٤] .

---

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١ — ١٠٩ — ١١٣ وأخبار الحكماء للقفطى ١١١

(٢) سيرة ابن هشام ١ — ٣٢٠ وعيون الأنباء ١ — ١١٣

(٣) معجم البلدان ٢ — ٥١ والديوان ٤١ — ١٧٩

(٤) الأغانى ٨ — ٤

الفصل الثانى

أثر الفرس فى العقائد

من الطبيعى أن كانت للصلات التى أسلفناها آثار شتى فى العرب ، تتناول ألوانا من الحياة ، لكن الذى يعنينا فى هذه الدراسة هو الآثار التى تتصل باللغة والأدب اتصالا مباشراً ، أو اتصالا يمت إليهما بعلاقة غير مباشرة .

وقبل أن نتحدث عن تأثير الفرس فى عقائد بعض العرب يجدر بنا أن نلم إلمامة مجملة بأصول دينهم الذى دانوا به .

كان الفرس القدماء يعبدون (مِثْرا) إله الشمس ، و (أناهيتا) إلهة الخصب والأرض ، وآلهة أخرى .

فلما ظهر زرادشت[1] بدينه الجديد اعتبره قدماء الإيرانيين نبياً أوحى إليه (أهوار مازدا) وأمره أن يبلغ الناس رسالته .

أما الأصل الذى قامت عليه الزرادشتية فهو الاعتقاد بوجود قوة عليا هى قوة الخير والنور ، وتسمى (أهوارمازدا) أى النور العظيم ، بجانب هذه القوة سبعة يمثلون الفضائل السبعة العليا ، وهى : الحكمة والشجاعة والعفة والعدل والإخلاص والأمانة والكرم ، وإذا كان الخير لا يتحقق إلا بمقاومة الشر وقهره فإن الزرادشتية تفترض وجود شخصية شريرة تسمى (أهريمان) أى قوة الشر والظلام ،

---

(١) يذكر ول ديورانت أن العلماء مختلفون فى مولده بين القرن العاشر والسادس قبل الميلاد (قصة الحضارة الفارسية ٣٨) ويرجح برستد أنه ولد حوالى ٥٧٠ قبل الميلاد ، ويعلن الدكتور أحمد فخرى مترجم كتاب برستد أن الباحثين قد انتهوا إلى أنه عاش فى القرن السابع (انتصار الحضارة ٢٥٩) ثم يذكر برستد فى موضع آخر أن قورش (قتل ٥٢٩ قبل الميلاد) أقام فى عاصمته التى أسسها معبدا للديانة الزرادشتية فى الوقت الذى كان فيه زرادشت مازال حيا (انتصار الحضارة ٢٦٤) وهذا يثبت وجود زرادشت فى القرن السادس .

يعاونها سبع من القوى الشيطانية الخبيثة المتمردة تمثل الرذائل الإنسانية وهى النفاق والخديعة والخيانة والجبن والبخل وإزهاق الأرواح .

وبين قوى الخير والشر صراع دائم وحرب لا تنقطع ، لأن كلا منهما تريد السيطرة على الإنسان .

لهذا دعا زرادشت إلى مجاهدة قوى الشر وصراعها والتغلب عليها تحت لواء من قوى الخير ، وبين لأتباعه أن التهاون فى مؤازرة قوى الخير إنما هو استسلام لقوى الشر ، فعلى من يختار طريق الخير أن يخضع لأهورا رازداً إنه النور الأعلى الذى لا أول لوجوده ، ولا نقص يعترى ذاته خالق جميع الكائنات وعلى رأسها الإنسان .

وإذ كان (أهورا مازدا) قوة روحانية عليا منزهة عن أى نوع من النقص فإن العقل لا يستطيع أن يدرك حقيقتها ، ولا يستطيع الخيال أن يتصورها لهذا رمز زرادشت إلى هذه القوة الغيبية العليا التى لا تدركها الأبصار ، ولا تحيط بكنهها العقول ، برمزين حسيين تستطيع العقول إدراكهما ، ويستطيع أتباعه أن يفكروا فيهما فيتصوروا صفات (أهورا مازدا) على وجه التقريب .

هذان الرمزان هما الشمس والنار .

فالشمس تمثل بعض صفات أهورا مازدا ، لأنها كائن مشرق مضىء فياض بالخيرات وهى قوة لا تقاوم نزعات الشر على الاقتراب منها والانتقاص من قدرها وطهرها .

والنار عنصر أزلى ، وقوة مطهرة مهلكة .

لهذا يبدو أن الزرادشتيه لا تدعو إلى عبادة النار بدعوى أنها كائن حى وإنما إلى تقديسها وتقديس الشمس لأنهما رمزان عظيمان لأهورا مازدا .

وقد حمل زرادشت أتباعه واجب الاحتفاظ بالشعلة النارية مضطرمة ، وكان يجول فى البلاد ليقيم معابد النار ، ثم أسبغ المجوس على نار المعبد قدسية عظيمة ، حتى كان كاهن النار يتلثم عند اقترابه منها ، خشية أن يصل نفسه إليها فيلوثها .

وكانت لزرادشت تعاليم خلقية ، منها أنه كان يحض على العمل والجد ، ويعده أفضل وسيلة للتقرب إلى الخالق ونيل رضاه ، وطالما حث أتباعه على استغلال الأرض والانتفاع بخيراتها ، وبين لهم أن العمل والإنتاج وتثمير الأرض خير من صوم وصلاة في كسل وخمول . كذلك أمرهم باجتناب الكذب ، والوفاء بالعهد : ولم يحل عام ٥٠٠ قبل الميلاد حتى كانت الزرادشتية هي الدين الأول للإيرانيين اعتنقها ملوك الفرس ، وناصرها دارا الأول (٥٢٢ — ٤٨٦ ق . م) وجعلها الدين الرسمي للدولة[1] .

لكن الناس انحرفوا فيما بعد عن الزرادشتية ، فعبدوا النار ، وعدوها من آلهتهم وسموها (آتر) وجعلوها أبناء للإله الأعظم إله النور والضياء ، وجعلوا يقدمون للشمس وللنار ولأهورا مازدا قرابين من الأزهار والخبز والفاكهة والحيوان وأحيانا من البشر[2] :

ثم ظهر (ماني) بإيران سنة ٣٤٢ م في زمن سابور بن أردشير ، وادعى النبوة وصدقه خلق كثير ، هم الذين سموا المانوية .

قام مذهب ماني على أن العالم يسيطر عليه النور منشأ الخير ، والظلام منشأ الشر فكل ما هو خير وجميل ونافع فالنور مصدره ، وكل ما هو شر وقبيح وضار فالظلام مصدره .

وقد فرض ماني على أتباعه عدة فروض ، منها الشك في الدين ، والتواني في العمل ، وتعلم الفقه والسحر ، ومنها الامتناع عن الكذب والبخل والقتل والزنا والسرقة والكف من ذبح الحيوان حماية له من الألم .

ولم يجحد ماني نبوة زرادشت وبوذا والمسيح :

ومن الموازنة بين الزرادشتية والمانوية يتبين أن الزرادشتية كانت تشجع على التناسل والتعمير والتثمير والإنتاج وفلاح الأرض ، أما المانوية فكانت تدعو إلى

---

(١) قصة الأدب الفارسي ٣٠ حامد عبد القادر وقصة الحضارة الفارسية ٣٩ ول ديورانت .

(٢) قصة الحضارة الفارسية ٤٨ ول ديورانت .

الخمول والكسل وترك الزواج والتناسل وإيثار العزلة والرهبنة ، حتى يفنى العالم ويعود النور إلى موطنه الأصلي ، وهذا هو معنى قول هرمز بن سابور : إن مانى جاء ليدعو الناس إلى تدمير العالم[1]

لهذا كانت الديانتان متعارضتين وإن تراءى بينهما الشبه الظاهري ، فكان زرادشت يطلقون على المانوية كلمة ملاحدة .

ثم ظهر مزدك في عهد قباذ والد كسرى أنوشروان (أوائل القرن السادس) فوافق زرادشت في بعض ما دعا إليه ، وزاد ونقص ، لكنه حاول أن يفلسف مذهبه الهدام ، ويصبغه بصبغة فيها خير المجتمع ، فزعم أنه ينهى عن التباغض والتقاتل ، وأن أكثر ما بين الناس من شحناء وبغضاء وسفك للدماء إنما سببه أمران : الأموال والنساء ، ولا سبيل إلى السلام والمحبة إلا بالتسوية بين الناس في الأموال والأملاك والعبيد والإماء والنساء ، وبهذه أحل مزدك الشيوع في النساء وفي الأموال ، وجعل الناس شركة فيها كالماء والنار والكلأ ونجم عن ذلك كثرة أتباعه من السفلة والطغام ، وصاروا عشرات الألوف فعظم شأنه ، وتبعه الملك قباذ ، فاشتدت البلايا على الناس ، وصار الرجل لا يعرف ولده ، والولد لا يعرف أباه[2] .

ويتحدث (نظام الملك) في تفصيل عن المزدكية فيبين أن كبراء الدولة لما أقروا مزدك على شيوعية الأموال قال لهم : وكذلك الشأن في نسائكم فهي كالأموال بينكم ، فمن يرغب في امرأة فليجتمع بها ، فليس في ديننا غيرة ولاحمية ، وبهذا لا تحيا النساء بغير نصيب من لذة الدنيا وشهواتها . ومن نظمه التي وضعها أنه لو دعا شخص عشرين رجلا إلى داره فعليه أن يعدهم بالطعام والطرب ويبيح لهم مباشرة نسائه .

ثم يقول نظام الملك إن كسرى أنوشروان ألب رجال الدين على مزدك وعلى والده قباذ ، وبين لهم وخامة هذا العمل وسوء عقباه على الملك وعلى الدولة ، وأوعز إليهم أن ينصحوا أباه ، وأن يناظروا مزدك ، وأسر إلى كبراء الدولة أن يقتل أبيه قد اختل ،

---

(١) قصة الأدب الفارسي ٥٤ .

(٢) الملل والنحل ١/٢٢٩ وصبح الأعشى ١٣/٢٩٧ والكامل لابن الأثير ١/٢٤٤ التنبيه والإشراف للمسعودي ٨٩ .

فاستمعوا إلى نصحه ، وخلعوا قباذ ، ثم أعادوه بعد أن قتلوا مزدك وكثيراً من أتباعه[١] .

وربما كانت دعوى الشيوعية فى فارس أقدم من مزدك هذا ، لأن الطبرى يذكر أن مبتدع هذه الدعوى رجل منافق من أهل (فسا) يقال له زرادشت بن خركان وتابعه الناس على بدعته ، ثم دعا العامة إليها بعده رجل يقال مزدق[٢] وبهذا الرأى أخذ براون[٣] وكذلك ذكر ابن النديم أن اثنين دعوا إلى هذا المذهب كل منهما اسمه مزدك ، أحدهما قديم ، والآخر ظهر فى أيام قباذ ، وقتله أنو شروان وفتك بأتباعه[٤] .

وأيا ما كان الأمر فقد قضى أنو شروان على مزدك وأتباعه بعد سنوات من ذيوع المذهب فى الناس ، ولكن الطائفة لم تنقرض ، بل بقى عدد منهم تعقبهم أنو شروان بعد استوائه على العرش (٥٣١ م) .

ومن المرجح أن بعضهم ظلوا متمسكين بدينهم خفية حتى جاء الإسلام . فانتقلت بعض عقائدهم إلى بعض الفرق الهدامة التى ظهرت فى الدولة الإسلامية .

وإذاً فالسمة الغالبة على الفرس أنهم عبدة للنار وللشمس .

وكانت بيوت النار منبثة فى العراق وفارس ، حتى ليصعب احصاؤها ، وظل بعضها فى جهات شتى من العراق وفارس إلى ما بعد الفتح الإسلامى بثلاثة قرون[٥] .

وكان لهذه العقيدة تأثير فى العرب .

١ — فقد عرف بعضهم المجوسية ، ودان بها آخرون فى بقاع شتى من الجزيرة ، فلما ظهر الإسلام دفعوا الجزية للرسول صلى الله عليه وسلم . ومنهم مجوس نجران[٦]

---

(١) سياسة نامة . ٢٤ .

(٢) الطبرى ٩١/٢ .

(٣) Literary History of Bersia. p. 740

(٤) الفهرست ٣٤٢ .

(٥) مروج الذهب للمسعودى ٢٦٨/١ ، ٨٦/٤ والمسالك والممالك لابن حوقل ٨٩ و ١٨٩ والمسالك والممالك للاصطخرى ١٠٠ ، ١١٨ .

(٦) فتوح البلدان للبلاذرى ٧٥ .

ومجوس اليمن ومجوس هجر[١] وعمان[٢] والبحرين[٣] وكان بالقطيف وبالزارة وبالغابة ودارين مجوس أيضاً[٤] ، وكان بتميم مجوس منهم زرارة بن عدس وابنه حاجب ، والأقرع بن حابس ، وأبو سود جد وكيع بن حسان وغيرهم[٥] . وكان سلمان الفارسي مجوسياً ثم أسلم[٦] على أن بعض العرب ما زالوا على المجوسية إلى عهد عمر بن الخطاب فقد ذكر له في خلافته قوم يعبدون النار ، ليسوا يهوداً ولا نصارى ولا أهل كتاب ، فقال ما أرى ما أصنع بهم ، فقال عبد الرحمن بن عوف : أشهد أن رسول الله قال سنوا بهم سنة أهل الكتاب[٧] .

لذلك لا عجب في أن تزوج كثير من العرب مجوسيات أفرد لهم أبو الحسن المدائني كتاباً سماه (كتاب فيمن تزوج مجوسية)[٨] . والراجح أن هذا الزواج لم يكن في الإسلام ، لأن الإسلام لا يبيح زواج المجوسية إذ أن المجوس مصدقون بنبوة زرادشت ، مكذبون بسائر الأنبياء[٩] .

٢ — أما المزدكية فقد اعتنقها بعض العرب ، منهم ملك كندة الحارث بن عمرو بن حجر ، وكان معاصراً لقباذ بن فيروز نصير المزدكية ، وكان قباذ قد دعا المنذر بن ماء السماء والي الحيرة إلى الدخول معه في المزدكية فأبى ، فدعا الحارث فلبى فولاه الحيرة مكانه ، فلما تولى كسرى أنوشروان (٥٣١ م) عزل الحارث ، وأعاد المنذر[١٠] .

٣ — ولقد تجلى تقديس العرب للنار في مظاهر شتى ، فحلفوا بها ، إذ كانت نار

---

(١) فتوح البلدان ٧٥ ، ٧٨ والخراج لأبي يوسف ٧٤ .
(٢) فتوح البلدان ٨٤ .
(٣) فتوح البلدان ٨٦ .
(٤) فتوح البلدان ٩٢ ، ٩٣ .
(٥) الكامل لابن الأثير ١/٢١٣ والمعارف لابن قتيبة ٢٠٥ وطبقات الأمم لصاعد ٤٣ والإعلاق النفيسة لابن رسته ٧/٢١٧ .
(٦) أسد الغابة ٢/٣٢٩ .
(٧) الخراج لأبي يوسف ٧٤ والرسالة ٤٣٠ للشافعي .
(٨) الفهرست ١٠٢ .
(٩) الفصل ٢/١١٢ .
(١٠) الأغاني ٨/٦١ وتاريخ اليعقوبي ١/٢٩٩ و Original Sources of the Curan, pp. 212—275

اليمن لها سدنة ، وسموها الهولة والمهولة ، وكان سادنها إذا أتى برجل هيبه الحلف بها بأن يطرح فيها الملح والكبريت ليستشيط وتتفقض فيهول على الحالف لينكل إذا كان مذنباً ، وليجرؤ على الحلف إن كان بريئاً ، قال أوس بن حجر :

إذا استقبلته الشمس صد بوجهه   كما صد عن نار المهول حالف[١]

وذكرها غيره من الشعراء كالأعشى[٢] وأفنون التغلبي[٣] ، ثم ذكرها الكميت في العصر الإسلامي في قوله[٤] :

كهُولَة ما أوقد المُحْلِفُون   لدى الحالفين وما هوَّلوا

ومن القسم بها قول الشاعر :

حلفت بالملح والرماد وبالنا   ر نُشَيِّم الحلقة
حتى يظل الجواد مُنعَفِراً   وَيَخْضِبُ النبل غرة الدرقة[٥]

وقول الأعشى[٦] :

جلفت بالملح والرماد وبالشعرى وباللات نُسْلِم الحلقة .

حتى يظل الهمام مُنجَدِلا — ويقرع النَّبل طُرة الدَّرقة .

وأغلب الظن أن الشعر لشاعر واحد ، مع تغيير يسير في الرواية .

وكانوا يتحالفون على النار ، وربما دنوا منها حتى تكاد تحرقهم[٧] ، وكانوا يستمطرون بها ، بأن يعقدوا في أذناب البقر السَّلَع والعُشَر — نوعان من النبات —

---

(١) ديوان أوس بن حجر ١٦ والبيان والتبيين ٣/٧ وأساس البلاغة مادة هول والحيوان ٤/٤٧١ .
(٢) الأغاني ٢٠ — ١٣٩
(٣) المفضليات ٢ — ٦٢
(٤) البيان والتبيين ٣ — ٨ وك أساس البلاغة مادة هول .
(٥) البيان والتبيين ٣ — ٨ الحلقة : بسكون اللام وفتحها جماعة القوم ، والقسم هنا معناه لاسلم الحلقة ، منعفر : ملق في التراب . النبل : السهام . الدرقة : ضرب من التروس من الجلد جمعها درق . طرة : وجه .
(٦) الأغاني ٢٠ — ١٣٩ والبيتان لهما بديوان الأعشى .
(٧) الحيوان الجاحظ ٤ — ١٥٠ وإيمان العرب للتجيبي الكاتب . مخطوط .

ثم يصعدوا بها فى جبل وعر ، ويشعلوا فيها النيران ويضجوا بالدعاء والتضرع[1] .
وفى شعر أمية بن أبى الصلت تسجيل لهذا الاستمطار منه قوله :

سنةٌ أزمةٌ تُخَيِّل بالناس ترى للعضاهِ فيها صريرا
إذ يُسَقُّون بالدقيق وكانوا قبل لا يأكلون شيئاً فطيرا
ويسوقون باقرَ السهل للطَّوْد مهازيل خشيةَ أن يبورا
عاقدين النيران فى شُكُرِ الأذناب عمداً كيما تَهيج البحورا
فاشتوتْ كلها فهاج عليهم ثم هاجت إلى صَبِيرٍ صَبِيرا
فرآها الإله تُرْشَم بالقَطْر وأمسى جنابهم ممطورا
سلَعٌ ما ومثله عُشَرٌ مّا عائلٌ مّا وعالت البَيْقُورا[2]

٤ — وبعض العرب عبدوا الشمس ، يسجدون لها إذا أشرقت ، وإذا توسطت السماء وإذا غربت ، ومن هؤلاء تميم وكثير من حِمْيَر[3] قبل أن يتهودا ، وقد ذكر القرآن الكريم أن ملكة سبأ كانت تعبد الشمس هى وقومها « وجدتُها وقومها يسجدون للشمس من دون الله[4] » وفى الشعر ما يدل على ذلك فقد سماها عتبة بن الحارث اليربوعى آلهة :

تروَّحْنا من اللَّعْباء عَصْرا وأعجَلْنا الآلهة أن تئُوبا[5]

وكان الغلام إذا سقطت سنة قذفها إلى الشمس قائلا : أبدليني بها سنا أحسن منها ، ولتَجْرِ فى ظَلْمها — ماءها — إياتُك — شُعاعك — وزعموا أنه إن فعل ذلك ذلك أمن على أسنانه العوج . وإلى هذا يشير طرفة بقوله فى وصف أسنان محبوبته :

---

(١) الحيوان ٤ — ١٥٠

(٢) ديوان أمية ٤٥ والحيوان ٤ — ١٥٠ تخيل بالناس : تفزعهم . العضاه . جمع عضاهة . أعظم الشجر أو الخمط أو كل ذات شوك . باقر . بقر . شكر الأذناب . جمع شكير وهو شعر الذيل . الصبير . السحابة البيضاء أو السكثيفة . عائل . نافع وكاف . عالت : أهلكت .

(٣) العرب والامبراطورية العربية ٢٧ بروكلمان .

(٤) النمل ٢٤

(٥) لسان العرب مادة أوب . اللعباء . اسم مكان . تروحنا . رجعنا . أعجلنا . سبقنا . تئوب : تغرب .

سقته إياةُ الشمس الاثاثةِ أسِفَّ ـ لم تَـكْدِمْ عليه ـ بإثمِدِ[1]

وقوله :

بدَّلته الشمسَ مِنْ مَنْبِتِهِ بردا أبيض مصقول الأُشُرْ[2]

٥ — على أن العرب والفرس تشابهوا فى غير تأثر ولا تأثير فى بعض النظم المتصلة بالمرأة ، فقد كان الفرس يبيحون الجمع بين الأختين[3] لأن الزراد شتية تبيحه[4] وكان تعدد الزوجات مباحا ، أقرته شريعة زراد شت ، كما أباحت التسرى واتخاذ الخطايا والخليلات[5] .

وكان الفرس يتشوقون إلى ولادة الذكور ، ويغالون فى تقديرهم ، ويعدونهم ثروة اقتصادية لآبائهم ، وعدة حربية لملوكهم . أما البنات فكانت ولادتهن تجلب اللوعة والحسرة ، لأن الغرض من تربيتهن إعدادهن لرجل آخر يجنى فائدتهن ، ومما قاله الفرس إن الرجال لا يبتهلون إلى الله من أجل البنات ، وكذلك الملائكة لا تعتبر البنات خيرا يجوز منحه للبشر[6] .

٦ — لكن العرب خالفوه فى نظم أخرى ، منها أن الفرس كانوا يبيحون للرجل أن يتزوج بنته ، وأخته الشقيقة ، وغير الشقيقة[7] ، ويبيحون الأمهات لأن الزرادشتية تبيح ذلك[8] .

وكان الحجاب شديدا على نساء الطبقة الراقية فى فارس ، حتى كن لا يخرجن إلا فى هوادج مرخاة عليها السُّدول ، وكان محظورا عليهن أن يخالطن الرجال فى مجتمع

---

(١) ديوان طرفة ٣٥ أياة الشمس : شعاعها . لم تـكدم عليه : لم تعض بأسنانها عظماً يذهب تحزيزها ، كناية عن النعمة . أسف بأثمد : ذر على لثة أثمد وهو حجر الـكحل .

(٢) الديوان ٦٥ الأشر : تحزيز الأسنان .

(٣) صبح الأعشى ١٣ — ٢٩٥ .

(٤) قصة الحضارة الفارسية ٥٩ ول ديورانت وتاريخ الحضارة الإسلامية ٦٢ بارتولد .

(٥) ول ديورانت ٥٨ .

(٦) ول ديورانت ٦١ .

(٧) الأسرة والمجتمع ٤٧ على عبد الواحد وصبح الأعشى ١٣ — ٢٩٥

(٨) ول ديورانت ٥٩ وبارتولد ٦٢ .

عام أو خاص ، حتى لقد حيل بين المتزوجات ورؤية آبائهن وإخوتهن ، أما الفقيرات فكن حرات فى التنقل ، لأنهن مضطرات إلى العمل والكد[١] .

أما العرب فقد حرّموا أنفسهم على أنواعاً من القريبات ، وجاء الإسلام فأقر هذا التحريم . وكانوا لا يتزوجون الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات[٢] ، وذهب ابن عباس إلى أنهم كانوا يتجافون عما حرمه الله بعد إلا امرأة الأب ، والجمع بين الأختين[٣] . وتباعد أهل مكة فى مناكحهم عن البنت وبنت البنت والأخت وبنت الأخت غيرة ونفورا من المجوسية ، ثم نزل القرآن الكريم بتوكيد صنيعهم وحسن اختيارهم[٤] .

ولم يكن العرب يمارسون ذلك التضييق فى الحجاب ، أو ذلك التعنت فى عزل النساء من المجتمع[٥] .

على أن قلة من العرب كانوا يخلفون آباءهم على نسائهم ، بدليل قوله تعالى « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف[٦] » . والآية الكريمة تعنى رجالا خلفوا آباءهم على أزواجهم[٧] . وقد سجل ذلك عمرو بن معد يكرب فى قوله لزوجته التى خلف أباه عليها[٨] .

فلولا إخوتى وبَنِىَّ منها ملأتُ لها بذى شُطُب يمينى
لَمَنْصَلَةُ الاجام برأس طَرْفٍ أحبُّ إلى من أن تنكحينى

ولما جاء الإسلام فسخ أربع زيجات من هذا كانت قائمة[٩] . والدليل على أن

(١) ول ديورانت ٦٠

(٢) الملل والنحل وبلوغ الأرب للعطار ٣١ والمختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا ١ — ٩٩

(٣) تفسير الطبرى ٤ — ٢١٧ — ٢١٩ وروح المعانى للألوسى ٤ — ٢٦١

(٤) معجم البلدان ٨ — ١٣٧

(٥) راجع المرأة فى الشعر الجاهلى والغزل فى العصر الجاهلى للمؤلف .

(٦) النساء ٢٢ .

(٧) تفسير الطبرى ٤/٢١٧ .

(٨) لسان العرب مادة نكح .

(٩) الإصابة ٨/٥٤ والمعارف ٣٧ و ٥٠ والأغانى ١/١٧ و ٣/١٢٣ والملل والنحل ٣/٢٣٢ وأسد الغابة ٢ — ٢٣٨ والروض الأنف ١ — ١٤٦ والمحبر ٣٢٥ والكشاف ١ — ١٩٧ والمبسوط ٤ — ١٩٨ ومعجم البلدان ٨ — ١٣٧ .

الذين ما رسوا ذلك كانوا قلة أن الإسلام لم يجد من هذا النوع غير هذه الزيجات ، وأن العرب كانوا يمقتونه ، ويسمون المولود عليه المَقتي ، ومن ثم قال الله تعالى « إنه كان فاحشةً ومَقْتًا وساء سبيلاً » كأنه قال فاحشة في دين الله بالغة في القبح، قبيح ممقوت في المروءة[1] ، وكانوا يسمون من يخلف أباه على امرأته الضيْزَن ، ويتهمونه بأنه فارسي يدين بالمجوسية ، قال أوس بن حجر في هجاء بعض العرب :

والفارسية فيكم غيرُ مُنكَرَةٍ فكلكم لأبيه ضَيْزَنٌ سَلَفُ[2]

وقال المتلمس يهجو عمرو بن هند ملك الحيرة ويلصق به نقيصة مدعاة هي أنه يغازل أمه ويلاعبها ، على عادة الفرس :

ملكٌ يلاعِبُ أمه وقطينَها رخو المفاصل . . . كالمبرد[3]

وقد بقيت زيجة من هذا النوع إلى عهد عمر ، لأن منظورة بن زبان كان قد تزوج امرأة أبيه ، ولم تزل معه إلى خلافة عمر ، ففرق بينهما ، وقال منظور :

لعمرو أبي دينٌ يفرق بيننا وبينك قراراً إنه لعظيمُ

وهجاه حُجْر بن معاوية بقوله :

لبئسَ ما خلف الآباء بعدهُمُ في الأمهاتِ عجانُ الكابِ منظور
قد كنت تغمرها والشيخ حاضرها فالآن أنت بطول الغمز مغذور[4]

وكان بعض العرب يجمعون بين الأختين ، ذكرهم أبو الحسن المدائني في كتابه (كتاب فيمن جمع بين الأختين)[5] . لكن أكثرهم أبغضوا هذا النوع كما أبغضوا سابقه ثم حرمه الإسلام[6] على أن أثرا منه بقي إلى عهد عمر ، فقد فرق

---

(١) الكشاف ١ — ١٩٧ .

(٢) ديوان أوس ١٧ ولسان العرب ٢٧ — ١٢٢ والمعاني الكبير لابن قتيبة ١ — ٥٢١ .

(٣) ديوان المتلمس ٦ مخطوط .

(٤) الأغاني ١١ — ٥٣ .

(٥) معجم الأدباء ١٤ — ١٣٣ والفهرست ١٠٢ .

(٦) الملل والنحل ٣ — ٢٣١ والمحبر ٣٢٧ وإنساء لعيون ١ — ٤٤ وروح المعاني ٤ — ٢٦١ .

بين أختين عند رجل من جذام حلف أنه لا يعلم أن الإسلام حرم الجمع بين الأختين [١] .

وأما زواج البنات فلم يحدث بين العرب . وليس لدينا الإحادثة واحدة تنسب إلى حاجب بن زرارة فقد قيل وإنه تزوج بنته دُخْتَنُوس ثم ندم [٢] . وقيل إن لقيط بن زرارة هو الذي تزوج بنته دختنوس ، وهو الذي سماها بهذا الاسم الفارسي، فلما قتل يوم شعب جبلة وهي في عصمته قال :

يا ليت شعري عنك دُخْتَنوس   إذا أتاها الخبر المرموس
أتحلقُ الرأس أم تَميسُ   لا ، بل تَميسُ إنها عروس [٣]

لكن هذا الإبهام في حاجة إلى نَظَر ، لأن كثيرا من الثقاة يخالفون ما ذكره ابن قتيبة أنها بنت حاجب ، ويوافقون ابن الأثير في أنها بنت لقيط ، ويرون أنها كانت زوجا لابن عمها عمرو ، ثم تزوجها بعده معبد بن زرارة أو عميرة ابنه ، ولم يشيروا إلى زواج أبيها بها [٤] .

---

(١) فتوح الشام للبصري ٢٣٧ .
(٢) المعارف لابن قتيبة ٢٠٥ والاعلاق النفيسة لابن رسته ٧ — ٢١٧ والزينة لأبي حاتم الرازي ٦٠ مخطوط والمعرب للجواليقي ١٤٢ شرح شاكر .
(٣) الكامل لابن الاثير ١ — ٢١٣ .
(٤) الأغاني ١٠ — ٣٨ وتاج العروس ٤ — ١٤٧ ومجمع الأمثال ٢ — ١٣ والشعر والشعراء ٢٧١ .

الفصل الثالث

أثر الفرس فى الحروب

كثيراً ما كان العرب والفرس يشتبكون فى حرب ، إذ يغير العرب على حدود الفرس ، فيرد الفرس غارتهم ، وقد يتعقبونهم إلى أطراف الصحراء أو إلى أعماقها ، كما تبين فى عوامل الاتصال .

وقد عرف العرب الكتائب الفارسية والأسلحة الفارسية ، فالنعمان المعروف بالأعور (٤٠٣ — ٤٣١م) كانت له كتيبتان إحداهما عربية يقال لها دَوْسَرَ ، والأخرى فارسية يقال لها الشهباء ، وكان يغزو بهما الشام ومن لم يدِنْ له من العرب[1] .

ونجد فى شعر الحارث بن حلزة ذكراً لكتيبة فارسية فى قوله يعدد من انتصر قومه عليهم :

ثم حجرا أعنى ابن أم قطام ... وله فارسية خضراء[1]

ونجدهم ينسبون إلى الفرس نوعا من الدروع ، جاء فى فخر عمرو بن امرئ القيس أنهم لا يرهبون الأسود ، ولا يخشون الأعداء لأنهم أبطال يمشون فى دروعهم الفارسية فى زهو واعتداد كأنهم فحول من الإبل :

والله لا يَزْدَهِى كتيبتنا ... أُسْدُ عرينٍ مَقيلُها غُرُفُ

إذا مشينا فى الفارسى كما ... تمشى جمال مَصاعبٌ قُطُفُ

---

(١) الطبرى ٢/٧٣ .

(٢) شرح المعلقات العشر ٢٨٣ . حجر : معطوف على الضمير فى بيت سابق كان حجر قد غزا امرأ القيس أبا المنذر بن ماء السماء فى جمع من كندة كثير وكانت بكر بن وائل مع امرىء القيس فخرجت وردته وقتلت جنوده .
فارسية خضراء : كتيبة خضراء من كثرة سلاحها ، والمراد بالخضرة السواد .

نمشي إلى الموت من حفائظنا   مشياً ذريعاً وحكمنا نصف[1]

وجاء في شعر دُرَيْد بن الصِّمة أنه نصح أخاه عارضاً وأصحابه ، وأنذرهم أن يأخذوا حذرهم من أعدائهم الهاجين في دروع فارسية :

نصحت لعارض وأصحاب عارض   ورهط بني السَّوداء والقومُ شُهَّدى

فقلت لهم ظنوا بألفي مُدَجَّج   سَراتهم في الفارسي المُسَرَّد[2]

ولقد كانت هذه الحروب توحي إلى الشعراء والخطباء بالافتخار بالنصر وبحفز الهمم وبعث العزائم ، وبالتحذير من الغفلة والاستهانة . وقد أسلفت طرفا من هذا في عوامل الاتصال .

وهذه لمحات أخرى تكشف عما كان للحرب من أثر في الأدب .

١ — في عهد كسرى غزت إياد سواد العراق ، واعتدت على ملوك آل نصر وعلى امرأة من شريفات العجم ، فنزاهم كسرى ، لكن العرب انتصروا أول الأمر انتصاراً مبينا ، حتى قالوا إن جماجم الفرس وأجسادهم كانت كالتل العظيم . ولم يلن كسرى لهذه الهزيمة ، فبعث في آثارهم مالك بن حارثة ومعه أربعة آلاف من الأساورة ، فبغتهم واقتتلوا قتالا شديداً حتى ظفر بهم وهزمهم ، واسترد منهم ما كانوا قد أصابوا من الأعاجم يوم الفرات . وكان لقيط بن يعمر الأيادي[3] قد حذر قومه إياد بعد نصرهم بقصيدة طويلة منها :

يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غُيُرًا   على نسائكم كسرى وما جَمَعَا

هو الفناء الذي يجتثُّ أصلكم   فمن رأى مثل ذا يوماً ومن سَمِعَا

---

(١) جمهرة أشعار العرب ٢٦٢ يزدهي . يستخف . غرف : المراد الغايات . الفارسي : الدرع . مصاعب : فحول . قطف : بطيئة المشي .

(٢) الأصمعيات ١١٢ ، وجمهرة أشعار العرب ٢٢٥ .
بنو السوداء : أصحاب أخيه عبد الله الذي يرثيه . ظنوا : أيقنوا . الفارسي المسرد : الدرع المتينة النسج الضيقة الحلق .

(٣) كان كاتبا ومترجما عند كسرى . الأغاني ٢٠ — ١٠١ ، ومعجم ما استعجم ١ — ٥٧

وقد بذلت لكم نُصْحى بلا دخل   فاستيقظوا إن خير العلم ما نفعا[1]

وحذرهم مرة أخرى بقوله :

سلام فى الصحيفة من لقيط   على مَنْ بالجزيرة من إياد
فإن الليث آتيكم دَلِيفاً   فلا يَحْبِسْكُم سَوْقُ النِّقَاد
أتاكم منهم ســتون ألفاً   يُزَجُّون الكتائب كالجراد[2]

٢ — وتحارب العرب والفرس فى يوم الصَّفْقَة[3] ، وسببه فى إحدى الروايات أن باذان عامل كسرى على اليمن أرسل إلى كسرى عيراً تحمل ثياباً ومسكا وعنبرا ومناطق محلاة ، وكان يخفرها بنو الجُمَيد المراديون ، فلما كانت القافلة ببلاد بنى حنظلة ابن يربوع من تميم أغار عليهم هؤلاء وغيرهم ، وقتلوا حماتها ومن معهم من الفرس ، واقتسموها ، وعلم الفرس الذين بهجر ، فساروا إلى بنى تميم ، وقاتلوهم قتالا شديداً انهزم فيه الفرس ، فاستشاط كسرى ، فانتقم من العرب بضرب أعناقهم غيلة فى الحصن المسمى المُشَقَّر .

وفى رواية أخرى أن العير كانت تحمل رماحاً أرسلها كسرى إلى اليمن ، وكان العرب يخفرون متاجره بالتناوب ، كل فى منطقته لقاء جعل ، ولكن هَوْذَةَ بن على الحنفى تعهد بخفارة العير فى المناطق كلها على أن يأخذ وحده الجُعْل ، فغضب بنو سعد من تميم ، وهاجموا العير واقتسموها ، وقتلوا الأساورة ، وأسروا هوذة حتى افتدى نفسه . وفى هذا يقول شاعر بنى سعد :

ومنا رئيس القوم ليلة أَدْلَجُوا   بِهَوْذَةَ مقرون اليدين إلى النَّحْرِ
وردنا به نخل اليمامة عانياً   عليه وثاق القد والحَلَق السُّمْرِ

---

(١) الأغانى ٢٠/٢٣

(٢) المؤتلف والمختلف للآمدى ١٢٥ والأغانى ٢٠/٢٤ النقاد : صغار الغنم أو الغنم القصيرة الأرجل القبيحة الشكل ، أى لا يمنعكم حرصكم على غنمكم من الدفاع عن نفوسكم .

(٣) الطبرى ٢/١٣٤ ، والأغانى ١٦/٧٥ ، والعقد الفريد ٣/١٥٤

ويقول الجذاب التيميمي :

وهن مَصَبْنَ هوذَة يوم حَجْرٍ فظل ينازع المسد المُنارا[١]

ثم سار هوذة إلى كسرى ، فأرسل معه جيشاً ، ونزلوا المشقر من أرض البحرين وبعث إلى العرب ليمتاروا معاً معه ، وكانوا بنو سعد أكثر من جاء إليه ، فاحتال الثأر منهم بأن يدخلوا من باب المشَرّ رجلا رجلا ، وكلما دخل رجل ضربت عنقه . ثم كشف العرب الخديعة وثاروا ، فاضطر هوذة والأساورة إلى الهرب ، فتبعهم بنو سعد والرّباب يقتلون من يلحقون به . وقد افتخر كاشف الحملة بقوله .

الأهل أتى قومى على النأى أننى حميت ذمارى يوم باب المشقّر

ضربت رتاج الباب بالسيف ضربة تفرّج منها كل باب مُضَبّر[٢]

وقد مدح الأعشى هوذةَ بن على الحنفى بقصيدة طويلة ، أشار فيها إلى مكرمة له يوم المشقر ، لأنه لما رأى ثورة القوم وأنهم قد أنذروا به ، كلم قائد الفرس فى أن يعفو عن مائة من خيار بنى تميم ، فوهبهم له يوم الفِصْح ، فأعتقهم :

سائل تميما به أيام صَفْقتهم لما رآهم أسارى كلهم ضَرعا

فقال للملك أطلق منهم مائة رسْلاً من القولِ مخفوضا وما رفعا

ففك عن مائة منهم وِثاقهمُ فأصبحوا كلهم من غُلّة خُلعا

بهم تقرب يوم الفِصْح ضاحيةً يرجو الإله بما أسدى وما صنعا[٣]

٣ — أما أكبر الوقائع بين العرب والفرس ، وأكثرها شهرة وتأثيراً فى الأدب فهى موقعة ذى قار[٤] .

---

(١) معجم شعراء المرزبانى ٤٧١ .

حجر : موضع الوقعة . المسد المغار . الحبال المتينه من ليف .

(٢) الطبرى ٢ر١٣٤

مضبر : متين سميك .

(٣) ديوان الأعشى ١٠١ والطبرى ٢ — ١٣٤ . ضرع : ذليل . رسلا . لينا . ضاحية . ضحا .

(٤) الطبرى ٢/١٥٢ ، ومروج الذهب ١/١٣٤ والتنبيه والأشراف ٢٠٨ ، والأغانى ٢٩/٢ و ٢٠/١٣٢ — ١٤٠ ، وديوان الأعشى ٢٥٩ .

ذلك أن كسرى غضب على النعمان ، وحبسه بساباط أو بخانقين حتى مات ، وقيل إنه ألقاه تحت الفيلة فداسته انتقاما منه لقتل عدى بن زيد وقد سجل سلامة ما فعله ابن جندل كسرى بالنعمان في قوله :

هو المدخلُ النعمانَ بيتا سماؤُه — صدورُ الفيول بعد بيت مُسَرْدَقِ

وبعد مُصاب المزن كان يسوسه — ومالِ مَعَدّ بعد مال مُحَرِّق[1]

حنق كثير من العرب ، وكان من مظاهر حنقهم أن جعلت بكر بن وائل تغير على السواد ، فوفد قيس بن مسعود بن قيس بن خالد على كسرى ، وسأله أن يجعل له أجراً على أن يضمن له ألا تغير بكر على سواد العراق ، فأقطعه الأُبُلَّة وما والاها ، لكن البكريين أغاروا ، فغضب كسرى على بكر ، وسخط على قيس بن مسعود وحبسه ، وعبأ جيشا لقتال العرب ، فأنذر قيس قومه بقصيدة منها :

ألا ليتنى أرشو سلاحى وبغلتى — لمن يُخْبِرُ الأنباء بكر بن وائل[2]

واستدعى كسرى إياس بن قبيصة الطائى — عامله على عين التمر وما والاها إلى الحيرة — فأتاه بصنائعه من العرب الذين كانوا بالحيرة ، وجيش من العرب ثلاثة آلاف ، ومن الفرس الفين ، وجعل على الفرس قائدين هما الهامرز وخنابرين ، وبعث مع الجيش عيرا فيها متاجر إلى اليمن ، وقال : إذا فرغتم من عدوكم فسيروا بالعير إلى اليمن .

بلغ الخبر هانىء بن قبيصة الشيبانى وقبيلة بكر ، فانتهو إلى ذى قار . ولما التقى الزحفان خطب هانىء فقال : يا قوم مهلكٌ مقدورٌ خيرٌ من نجاء مغرور وإن الحذر لا يدفع القدر ، وإن الصبر من أسباب الظفر ، المنية ولا الدنية ، واستقبال الموت

---

(١) مسردق : مشدود أعلاه وأسفله ، مصاب المزن : إشارة إلى الأرض التى كان النعمان يحميها والمطر يصيبها . معد . المراد القبائل العمالية التى كانت خاضعة له من نسل معد بن عدنان . محرق يطلق على عمرو بن هند لأنه حرق مائة من بنى تميم ، وعلى الحارث بن عمرو ملك الشام لأنه أول من حرق العرب فى ديارهم ، فهم يدعون آل محرق ، وعلى امرىء القيس بن عمرو .

(٢) هذه رواية الأغانى ، ورواية معجم الشعراء ٣٢٥ (لأن تعلم الأنباء والعلم وائل) وهى بهذا لا إقواء فيها .

خير من استبد باره ، والطعن فى الثغر أكرم من الطعن فى الدبر ، يا قوم جدوا فما من الموت بد وتبارى العرب فى الإقدام وفى التحميس على الاستبسال ، وروى من تحميسهم شعر كقول عمرو بن جبلة اليشكرى :

يا قوم لا تَغرُرْكمُ هدى الحرقْ ولاوميضُ البِيْض فى الشمس شَرَقْ
من لم يقاتل منكم هذا العُنَق فَجنِّبُوه الراح واسقوه المَرَق[1]

وقول حنظلة بن ثعلبة العِجْلى :

يا قوم طيبوا بالقتال نفسا أجدر يوم أن تفلوا الفرسا

وقول ازيد بن المُكَسَّر بن حنظلة بن ثعلبة بن ثعلبة بن سيار :

من فر منكم فرّ من حَرِيمه وجاره وفر عن نديمه
أنا ابن سيار على شكيمهْ إن الشِّراك قُدّ من أديمه
وكلهم يجرى على قديمه من قارح الهُجْنة أو صَميمه

وكانت النسوة يحرضن الرجال على الاستبسال ، ويلهبن بطولتهم بأناشيد حماسية كقولهن :

إن تَهزموا نُعانِق ونَفْرش النمارق
أو تَهْربوا نُفارق فراق غير وامِقْ

واستمات العرب فقطعوا أحزمة رواحل نسائهم ، حتى يقتسروا أنفسهم على الثبات ، دفاعا عن الحرائر اللاتى لا يستطعن الفرار على رواحل تقطعت أحزمة رحالها .

ثم انجلت المعركة عن هزيمة الفرس ، واقتفى البكريون آثارها إلى السواد ، وغنموا وقسموا نساءهم ما فى العير من بز وعطر وألطاف .

ولقد أشاد الشعراء بقبائل بكر وشَيْبان وعِجْل بحماسة ، كقول الدّهّان ابن جَنْدَل :

---

(١) العنق . الجمع من الناس .

إن كنتِ ساقيةً يوما على كرمٍ   فاسقى فوارس من ذهل بن شَيْبانا
واسقى فوارس حاموا عن ديارهم   وعَلِّى مفارقهم مسكا وريحانا

وكقول الأعشى :

فدى لبنى ذهل بن شيبان ناقتى   وراكبُها يوم اللقاء وقَلَّتِ
هم ضربوا بالحِنْوِحِنْوِ قُراقِرٍ   مقدِّمة الهامرز حتى تولت
تناهت بنو الاحرار إذ صبرت لهم   فوارس من شيبان غُلْبٌ فَوَلَّتِ
وأَفْلَتَهُمْ قيس فقلت لعله   يَبلُّ لئن كان به النعل زلت[1]

كانت هذه الوقعة لتمام أربعين سنة من مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، وقيل كانت بعد الهجرة ، وقيل كانت بعد غزوة بدر بأشهر .

ولما علم الرسول بانتصار العرب قال : هذا يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبى نصروا .

وقد لاحظ الاستاذ أحمد أمين أن العرب لما انتصروا على الفرس فى موقعة ذى قار لم يتغنوا بنصرة العروبة عامة ، وإنما تغنوا بنصرة القبائل التى اشتركت فى الحرب ، وهم الشيبانيون والعجليون واليشكريون ، فلم تتجل فى الغناء روح عربية عامة ، لأن العرب لم يكونوا يدركون أنهم أمة ، وأنما كانوا يعتمدون على الحياة القبلية[2] .

والحق أن الحياة القبلية كانت طاغية على شعور العرب بأنهم أمة ، لكن هذا لم يكن السبب الوحيد فى أنهم لم يتغنوا بانتصارهم على الفرس غناء يدل على الشعور

---

(١) راكبها : يريد نفسه . يوم اللقاء : يوم لقاء الفرس حنوقراقر : حنوذى قار : من المواضع التى كانت بها المعركة قرب الكوفة . الهامرز : أحد قواد الفرس فى ذلك اليوم وكانت شيبان على ميمنة بكر بازاء كتيبة الهامرز . بنو الاحرار : الفرس . تناهت : كفت غلب : جمع أغلب وهو الغليظ العنق ، ويوصف به الاسد . قيس : هو قيس بن مسعود . يبل : يذهب ويهلك . لئن كانت به النعل زلت : إن كان أخطأ بسيره مع جيوش كسرى . والظاهر أن كسرى شك فى أمره فطلبه ، فهرب منه .

(١) ضحى الاسلام ١/١٨ .

بالقومية ، ذلك أن بعض القبائل العربية كانوا يحاربون إخوتهم العرب نصرة للفرس ، وكان عددهم نحو ثلاثة الآف كما يقول المؤرخون ، يتزعمهم إياس بن قبيصة الطائي وصنائع الفرس الذين كانوا بالحيرة وما حولها ، فكيف يتغنى الشعراء بروح عربية عامة ؟

لو أن العرب كلهم كانوا يحاربون الفرس لكان الفخر القبلي دليلا على فقدان الشعور بأن العرب أمة ، ولو أن الشعراء أشادوا بالعرب كلهم في موقعة ذي قار لكانوا كاذبين على الواقع ، لأنهم يعلمون أن الجيش الذي حاربهم ثلاثة أخماسه من العرب وخمساه من والفرس .

الفصل الرابع

أثر الفرس فى الخيال الشعرى

أثر اتصال العرب بالفرس فى خيال الشعراء ، فجاءوا بصور شتى من علاقتهم بالفرس .

فالمرقش الأكبر يشبه البقرة الوحشية التي ترعى فى الأطلال متمهلة مطمئنة مختالة برجال من الفرس يمشون مختالين فى قلانسهم :

أمست خلاء بعد سكانها مقفرة ما أن بها من أرَمْ
إلا من العينِ ترَعَى بها كالفارسيِّين مشوا فى الكُمَمْ[1]

والخنساء تشبه أخاها صخراً بالرمح ، ثم تشبه اختياله فى مشيته بخيلاء قائد من قواد الفرس .

مثل الرُّدينىِّ لم تنفَدْ شبيبته كأنه تحت طىِّ البُرْدِ أسوار[2]

وقد ذكر شارح الديوان أنها شبهت أخاها بسوار من الذهب أو الفضة فى حسنه وضموره — ولكنى أرى أن التشبيه بقائد الفرس أولى . والمخبَّل السَّعدى يشبه وجه حبيبته بالصحيفة ملاسةً ولينا ، ويقول إنه ليس ضامرا ولا مكتنزا ؛ وهو كالدرة النادرة التى أضاء بها المعجم صدر مجلس عزيزهم ، وقد اشتراها العزيز بثمن غال ، لأنها نادرة جهد الغواص فى العثور عليها ، إذ جاء بها من أعماق البحر المائج المتماوج الواسع غواص دقيق العظام ، كأنه سهم فى سرعته ونحوله ، وقد دهن جسمه بالزيت ليقيه ملوحة البحر .

وتُريك وجها كالصحيفة لا ظمآنُ مختلَجٌ ولا جَهْمُ
كعقيلة الدُّر استضاء بها محرابَ عرش عزيزها العُجُمُ
أغلى بها ثمنا وجاء بها شَخْتُ العظام كأنه سَهْمُ

(1) المفضليات ٢/٤٩ أرم : أحد . الكمم . القلانس .
(2) ديوان الخنساء ٨٢ .

بلَبانه زيتٌ وأخرجهـا من ذى غوارِبَ وَسْطه اللخمُ[١]

والمثقّب العَبْدى يصف ناقته بعد إجهادها بأنها ضخمة الهيكل تشبه دكة البواب

فأبقى باطـلى والجِدُّ منهـا كدُكّان الدَّرابنة المَطين[٢]

وعلقمة بن عَبَدَة شبه ناقته الصلبة الضامرة بغمد السيف الفارس المحـكم :

وقد اقطع الخرْقَ المَخُوفَ به الردى بمثْنى كجفن الفارسى المسَرَّد[٣]

وخُفَاف بن نَدْبة يصف المرقبة التى راقب بها أعداءه بالارتفاع الشاهق، ويقول إن جوارح الطير تبيت فى أعاليها فتبدو كناصيه فى بيت فارس على مرتفع :

ومرقبة طيرتُ عنها حمامَها نمامتُها منها بضاحٍ مُزَلَّق

يبيتُ عتاقُ الطير فى رقَبَاتها كطُرَّة بيت الفارسى المُمَلَّق[٤]

ربأت . . .

وقد شبه الحارث بن حِلِّزة آثار الديار بالمهارق ، وهى الورق الفارسى الذى كانوا يكتبون فيه :

لمن الديار عَفَوْنَ بالحبسِ آياتها كمهارق الفُرْسِ[٥]

وكذلك شبهها الهَيْثُ بن حُرَيْث الحنفى :

لمن طلل بروضات السِّخالِ تأبَّدَ كالمهارق البوالى[٦]

---

(١) المفضليات ١ــ١١٣ مختلج : هزيل . جهم . كثير اللحم . أغلى بها ثمنا أشتراها بثمن غال : شخت : دقيق . لبانه : صدره . غوارب . أمواج . اللخم . السمك الكبير .

(٢) المعرب لأبى الجواليقى ١٤٠ ، ولسان العرب ١٨ ـــ ١١ ، والمفضليات ٢ ـــ ٩٢ . باطلى . ركوبى فى طلب اللهو والغزل . جدها . اجتهادها فى السير . الدكان . الدكة المبنية للجلوس عليها . الدرابنة . جمع دربانة وهو البواب مثلثة الدال . والدكان والدربان كلمتان فارسيتان معربتان . مطين ـــ مطلى بالطين .

(٣) شعراء النصرانية ٥٠٦ . الخرق . الخرقاء وهى الأرض الواسعة تتمزق فيها الرياح . مثنى ناقة صلبة . الجفن . غمد السيف . المرد السيف . الفارس . المسرد : المحكم ضم الطرفين .

(٤) الأصمعيات ١٣ ، المرقبة . موضع المراقبة . النمامة . كل بناء على الجبل كالظلة الضاحى البارز للشمس . المزلق . الأملس لا تثبت عليه قدم . عتاق الطير . جوارحها . رقباتها . أعاليها . الطرة . الناصية . ربأت . صرت ربيئة وطليعة وعينا .

(٥) المفضليات ١ــ١٣٠ الحبس . موضع . عفون . درسن وبلين . آياتها . أعلامها .

(٦) معجم البلدان ٤ــ٣١٧ ، السخال . موضع .

وشبه أوس بن حَجَر ممدوحه فضاله بالمرزبان — حاكم اقليم من فارس — في قوله :

ليثٌ عليه من البَرْدِيِّ هِبْرِيَةٌ   كالمرزبانيِّ عَيَّالٌ بأوْصالِ[1]

(١) البردى . نبات ذو هبرية وزغب . عيال . متبختر الأوصال . أعضاء الجسم .

الفصل الخامس

أثر الفرس فى مفردات اللغة

كان من الطبيعى بعد هذا الاتصال أن يستعمل العرب كلمات فارسية ، ورد بعضها فى الشعر . ولعل أكثرهم ثراء بهذه الكلمات واستخداما لها فى شعره الأعشى ، لأنه كما قال عن نفسه :

وقد طفتُ للمال آفاقه عمانَ فحمص فأوريشلمْ
أتيت النجاشى فى أرضه وأرض النبيط وأرض العجم[1]

وقال أيضاً :

قد سرت ما بين بانقياء إلى عدن وطال فى العجم ترحالى وتسيارى[2]

لهذا نجد فى شعره كلمات فارسية ، وغير فارسية ، منها هذه الأسماء الفارسية للأزهار وغيرها ، ذكرها فى وصفه لمجلس من مجالس الشراب واللهو :

ببابل لم تُعصَر فجاءت سُلافةً تخالط قنديداً ومسكا مُختّما
يطوف بها ساق علينا مُتوَّمٌ خفيفٌ ذَفيفٌ ما يزال مُفدَّما
بكأسٍ وإبريقٍ كأن شرابه إذا صُبَّ فى المصحاة خالط بَقّما
لنا جلّسانٌ عندها وبنفسجٌ وسيسنْبرٌ والمرزجوش مُنَمْنَماً
وآسٌ وخيرىٌ ومَرْوٌ وسوسَنٌ إذا كان هِنْزَمْنٌ ورحتُ مُخشّما
وشاهَسْفِرمٌ والياسمينُ ونرجسٌ يُصبِّحنا فى كل دَجْن تغيّما
ومُسْتُقُ سينينٍ ووَنٌّ وبَرْبطٌ يجاوبه صنج إذا ما ترنما[3]

---

(١) الديوان ٤١

(٢) الديوان ١٧٩ ، ومعجم البلدان ٢ — ٥١

(٣) الديوان ٢٩٣ . بابل : مدينة قديمة كانت تبعد عن بغداد نحو مائة كيلو ينسب العرب إليها الخمر والسحر . السلافة : ما سال قبل العصر وهى أجود الخمور . القند بفتح القاف والقنديد =

ومنها كلمة سمسار الفارسية ، وردت فى شعر الأعشى بلفظها الفارسى فى قوله :

وأصبحت لا أستطيع الكلام سوى أن أراجع سمسارها[١]

وأصل الكلمة من السنسكريتية انتقلت إلى العرب من طريق الفرس . وقد نقل حديث من قيس بن أبى غرزة الصحابى الغفارى قال فيه : كنا نسمى السماسرة ، فسمانا النبى صلى الله عليه وسلم بأحسن منه ، فقال يا معشر التجار[٢] .

على أن الكلمة عُربت بكلمة سِفْسير[٣] . قال النابغة :

وفَارَقَتْ وهى لم تَجْرَبْ وباع لها من الفَصَافِصِ بالنُّمِّىِّ سِفْسِيرُ[٤]

وذكر ابن سلام أن الناس أصبحوا فرأوا على باب دار الندوة :

ألهى قريشا عن المجد الأساطير ورشوه مثل ما تُرشَى السَّفاسِيرُ

فأنكروا ذلك ، وقالوا ما كتبها إلا ابن الزبعرى[٥] .

ومن هذه الكلمات الفارسية البستان ، فارسى معرب ، قال الأعشى فى المدح :

يهبُ الجِلة الجراجِر كالبستان تحنو لدَرْدَقٍ أطفال[٦]

ومن هذه الكلمات الفارسية القرنفل والزنجبيل فى قول قيس بن الخطيم :

= بكسرها عسل قصب السكر فارسى معرب. مختم مسدود بالطين ونحوه . متوم : مقرط بلؤلؤتين. ذفيف مسرع . مقدم : يقدم الكئوس . المصحاة : قدح من فضة يشرب به . البقم: شجر كبير ورقه كورق اللوز وساقه أحمر يصطبغ بطبيخه . المرزجوش والمسان والبنفسج والسيسنبر والآس والخيرى والياسمين والسوسن والمرو والشاهسفرم كلها أنواع من الورد والرياحين فارسية معربة . منمنم : مزخرف . الفنز : من عيد من أعياد النصارى . مخشم : سكران شديد السكر . دجن غيم ومطر . المستقة وألون والبربط : أنواع من آلات الطرب ، كلها فارسية معربة . الصنج . دوائر من النحاس تثبت فى أطراف الأصابع ويضرب بها على نغمات الموسيقى معرب .

(١) ديوان الأعشى ٣١٩ .

(٢) المعرب للجواليق ٢٠١ والإصابة ٥ — ٢٦٢ ومسند أحمد ٤ — ٦ ، ٢٨٠ .

(٣) اللسان والقاموس .

(٤) المعرب ١٨٥ فارقت . قاربت أن تجرب . باع لها . اشترى لها يعنى السمسار . الفصافص جمع فصفص بكسر الفاء وهو القت الرطب . النمى . فلوس كانت بالحيرة للتعامل .

(٥) طبقات الشعراء لابن سلام ١٩٦ السفاسير . جمع سفسير .

(٦) المعرب ٥٣ واللسان ٥ — ٢٠٢ ، ٣٥٠ و ١١/٣٨٥ الجلة . الضخام . الجراجر . جمع جرجور وهو البعير الكبير الصلب . كالبستان : المراد كالنخل . الدردق : الصغار من كل شىء .

كأن القرنفل والزنجبيـــل وذاكى العبير بجلبابها[١]

والزنبق فى قول أمرىء القيس :

وفوق الحوايا غِزْلَةٌ وجآذر تَضمخن من مسك ذكى وزَنبق[٢]

والأقحوان فى قول طرفة :

بادنٌ تجـلو إذا ما ابتسمت عن شتيت كأقاحى الرمل غر[٣]

والأباريق فى قول عبيد بن الأبرص :

إذا ذُقتَ فاها قلتَ طعمُ مُدامة مُشَعْشعة تُرْخِى الإزار قديحُ

بماء سحاب فى أباريق فضة لها ثمن فى البائعين ربيح[٤]

وفى قول عدى بن زيد :

فدعوا بالصبوح يوما فجاءت قينة فى يمينها إبريق[٥]

وكذلك كلمة ، دخرار (ثوب أبيض بالفارسية معرب تخت دار) جاءت فى قول عدى بن زيد :

أرقتُ لمكفهر بات فيــه بوارق يرتقين رءوس شيب

تلوح المشرفيـــة فى ذراه ويجلو صَفْحَ دَخْدار قشيب[٦]

والاستبرق غليظ الديباج فارسى معرب أو ضرب من الحرير أصله استفره أو أستروه ، قال مالك بن نويرة :

---

(١) ديوان قيس بن الخطيم ٢٣ ولسان العرب ١٨/ ٣١٤ .

(٢) الديوان ١١٧ غزلة . جماعة من الغزلان . جآذر وهو ولد البقرة الوحشية

(٣) ديوان طرفة ٥١ .

(٤) ديوان عبيد القصيدة ٢١. مشعشعة : ممزوجة بغيرها . ترخى الازار : تمد لأسباب اللهو. قديح . ما يتبقى فى أسفل الدن ، أى أنها خمرة مركزة أو قديح بمعنى مصبوبة فى القدح .

(٥) الأغانى ٥ /١٥٨ .

(٦) المعرب للجواليقى ١٤١ ، والأغانى ٢]٢٣ وفى ٢/ ٣٨ (ويجلو صفحة الذيل القشيب). المكفهر . السحاب المتراكب . الشيب . السحائب التى فيها سواد وبياض شبهها بالرءوس الشيب وقيل بل شيب جبل معروف . شبه البرق فى السحب بلمعان السيوف .

ولا ثيــابُ من الديبــاج تلبسها هي الجياد وما في النفس من دَيب[١]

وقد اشتقوا من كلمة ديباج فقالوا : دَبج المطرُ الأرضَ ودبَّجها إذا زينها بالرياض، وأصبحت الأرضُ مدبَّجة ، وطيلسان مدبَّج ، وهو الذي زينت أطرافه بالديباج ، وفلان يصون ديباجته أي خديه ، وللقصيدة ديباجة حسنة إذا كانت مُحَبَّرة[٢] .

البَلاس : المِسْح ، وهو الكساء من الشعر ، قال الراجز لامرأته :

إنْ لا يكنْ شيخك ذا غِراس فهو عظيم الكيس والبَلاس

في القَزَبات مُطعم وكاسي[٣]

والإسوار بكسر الهمزة وضمها هو الرامي ، وقيل الفارس ، ويجمع على أساور وأساورة . قال القُلاخ :

ووتَّر الأساورُ القِياســـا صُغْديةً تنتزع الأنفاسا[٤]

وقد سبق في الخيال الشعري تشبيه الخنساء صخراً بالأسوار .

والأستار : الأربعة ، أصلُها بالفارسية جهار فعربوه فقالوا أستار .

قال الأعشى :

تُوفِّ ليوم وفي ليـــلةٍ ثمانين تُحسَبُ إســـتارها[٥]

والتاج فارسية كانت في البهلوية تاز قال عمرو بن كلثوم :

وسيد معشر قـــد توجوه بتــاج الملك يحمى المُحْجَرينا

تركنــا الخيل عاكفة عليه مقلدة أعنتهــا صُفونا[٦]

---

(١) المعرب ١٤٠ . الدأب . العيب .

(٢) أساس البلاغة مادة دبج .

(٣) المعرب ٤٦ وذكر ابن دريد في الجمهرة ٢٨٨/١ أن العرب تكلمت به قديما . القزبات جمع قزبة بسكون الزاي وهي الشدة .

(٤) اللسان مادة قوس والمعرب ٢١ . القياس . جمع قوس . الصغد : بلد أوجيل من العجم .

(٥) المعرب ٢٤ ولسان العرب ٨/٦ توف . يعني القارورة الكبيرة إذا شربوا بالصغير ثمانين يكون بالكبير أربعة . كل عشرين واحد .

(٦) شرح المعلقات للزوزني ١٣٢ .

والبوصِىّ ضرب من السفن ، بالفارسية بوزى ، وقد تكلموا به قديما ، قال طرفة فى وصف عنق ناقته :

وأتلع نَهاض إذا صعَّدَتْ به ... كسكان بُوصِىٍّ بدَجْلة مُصْعِدِ[١]

وقال الأعشى:

ما يَجعَلُ الُجدُّ الظنونُ الذى ... جُنِّب صَوْبَ اللَّجِبِ الماطر

مثل الفُراتىِّ إذا ما طما ... يَقْذِفِ بالبُوصِىِّ والماهر[٢]

والأرَنْدج واليدندج أصله بالفارسية رَنْدة وهو جلد أسود ، قال الأعشى :

عليه دَيابوذٌ تسربل تحته ... أرَنْدجَ إسكافٍ يخالط عِظْلِما[٣]

والبربط من آلات الطرب ، أو هو العود ، معرب بَرَبطْ أى صدر الأوز أو البط لأنه يشبهه ، قال الأعشى :

والنَّاى نَرْم وبَرْبطٍ ذى بُحّةٍ ... والصَّنجُ يبكى شَجْوَهُ أن يُوضعا[٤]

والسنبك : طرف مقدم الحافر.

جاء فى حديث أبى هريرة : « تخرجكم الروم منها كفراً كفراً إلى سنبك من الأرض[٥] » .

وقال العباس بن مرداس :

---

(١) المعرب ٥٤ واللسان ٨ — ٢٧٤ وشرح القصائد العشر ٧١ . أتلع . صفة لعنق ناقة أى أنه طويل . نهاض . ينهض فى السير . السكان . الذى تقوم به السفينة . مصعد : سابح فى مقابلة التيار فهو يعالج الموج .

(٢) المعرب ٥٥ . الجد : البئر الجيدة الموضع من الكلأ . الظنون : القليلة الماء التى لا يوثق بمائها . اللجب . الكثير الصوت ؟ طما ارتفع الماهر . السابح

(٣) المعرب ١٦ ولسان العرب ٣ — ١٠٨ و ٥ — ٢٤ .

الديابوز . ثوب ينسج على نيرين . العظلم . نوع من الشجر يخضب به .

(٤) المعرب ٧٢ والقاموس المحيط مادة بربط . النادى نرم والصنج من آلات الملاهى .

(٥) المعرب ١٧٧ .

الكفر . الأرض البعيدة عن الناس والمراد القرية . سنبك من الأرض . شبه الأرض التى يخرجون إليها بسنبك الدابة فى الغلظ

شهدن مع النبي مسوَّمات حُنَيْنا وهي دامية الحوامي
ووقعة خالدٍ شهدتْ وحكَّتْ سنابكَها على البلد الحرام[1]

والدَّرْياقة : الخمر ، وهي أيضا التِّرْياقة ، قال حسان بن ثابت :

من خمر بيسانَ تخيَّرتُهـا دِرْياقة توشك فَتْرَ العِظام[2]

والطَّرْز والطِّراز النموذج ، قال حسان في مدح بني غسان :

بيض الوجوه كريمةٌ أحسابُهم شُمُّ الأنوف من الطِّراز الأول[3]

وتقول العرب : طَرْزُ فلان طرزٌ حسن ، أي زيه وهيئته .

وقابوس اسم فارسي ، وكان النعمان بن المنذر قد سمى ابناً من أبنائه قابوس ، فكان يكنّى أبا قابوس ، قال النابغة :

نُبِّئْتُ أن أبا قابوس أوعدني ولا قرار على زأر من الأسدِ[4]

وقال أيضاً :

فإن يهلك أبو قابوس يهلك ربيع الناس والبلد الحرام[5]

ودختنوس كلمة فارسية معناها الجميلة اللطيفة أو بنت الهناءة .

وقد سمى لقيط بن زرارة التميمي بنته دختنوس وهي التي عناها بقوله كما قيل :

يا ليت شعري عنك دُخْتنوسُ إذا أتاها الخبر المرموس
أتحلق الرأس أم تَمِيسُ لا بل تَمِيسُ أنها عروس[6]

---

(١) المعرب ١٧٨
مسومات : معلمات . وقعة خالد : المراد دخوله مكة يوم الفتح على الخيل أي أن الخيل وطئت أرض مكة .
(٢) المعرب ١٤٢
(٣) المعرب ٢٢٣
(٤) ديوان النابغة ٣٦ وشعراء النصرانية ٦٥٨ والمعرب ٢٠٩
(٥) المعرب ٢٥٩ وشرح الحماسة ٤ / ١٨٥
الكلمة بالفارسية كابوس وكاووس وكى كاوس ، ومعناها كلها الحسيب الشريف العادل
(٦) الكامل لابن الاثير ١/٢١٣

وعرف العرب الورق الفارسي الذي كانت تكتب فيه العهود، وهو المهارق بالفارسية . .

قال الحارث بن حلزة يذكّر قبيلة بكر بما كان بينها وبين قبيلته تغلب من معاهدة وكفالة[1] .

واذكروا حِلْفَ ذي المجاز وما قُدِّم فيه العهود والكفلاء
حَذَرَ الجَوْر والتَّعدي وإن ينْقُضَ ما في المهارق الأهواء[2]

وبعد :

فتلك طائفة من الكلمات الفارسية الكثيرة التي عربها العرب في العصر الجاهلي، ثم ورد بعضها في القرآن الكريم[3] .

ولا شك أن ورود بعضها في القرآن الكريم أعظم دليل على أن العرب عرفوها وعربوها وألفوها قبل نزول القرآن، فصارت من صميم لغتهم .

---

(١) جمع عمرو بن هند قبيلة بكر وتغلب وأصلح بينهم وأخذ من الحيين رهنا من كل حي مائة غلام فكف بعضهم عن بعض (شرح القصائد العشر ٢٥١)

(٢) شرح القصائد العشر ٢٦٩ والبيان والتبيين ٣/٦ . المهارق : جمع مهرق فارسي معرب [

(٣) الإتقان للسيوطي ١/١٣٥ — ١٤١ .

الفصل السادس

أثر الفرس فى الغناء والموسيقى والخمر والترف

١ — يتردد ذكر القيان كثيرا فى الشعر الجاهلى ، وفيما بعده ، ولا نجد ذكرا فى الشعر الجاهلى لرجل يتغنى .

وأغلب الظن أن مرجع هذا إلى أن النساء أليق باحتراف الغناء من الرجال ، لأنهن فى الغالب أندى صوتا ، وأحلى ترجيعا ، وأرق نغما ، ولأن أنوثتهن وجمالهن ورقتهن تضاعف الطربَ لهن ، لهذا رأى الجاحظ أن (الغناء المطرب فى الشعر الغزلى من حقوق النساء ، وإنما ينبغى أن تغنى بأشعار الغزل والتشبيب والعشق والصبابة النساء اللواتى فيهن نطقت تلك الأشعار ، وبهن شبب الرجال ، ومن أجلهن تكلفوا القول فى التشبيب . وكم بين أن تسمع الغناء من فم تشتهى أن تقبله ، وبين فم تشتهى أن تصرف وجهك عنه ، على أن الرجال دخلاء على النساء فى الغناء ، كما رأينا رجالا ينوحون فصاروا دخلاء على النوائح . وبعد فأيما أحسن وأملح وأشهى : أن يغنيك فحل ملتف اللحية كثيف العارضين ، أو شيخ منخلع الأسنان متغضن الوجه ؟ ، أم تغنيك جارية كأنها طاقة نرجس أو كأنها ياسمينة ، أو كأنها خرطت من ياقوتة أو من فضة مجلوة [1] ؟

وإذا كان الجاحظ قد عقد موازنة بين الجارية الحسناء والرجل القبيح لينتهى إلى إيثار الجارية ، فان النتيجة لا تختلف إذا عقدنا مثل هذه الموازنة بين مغنية جميلة ومغن جميل .

وشبيه بهذا ماحدث به ثمامة بن أشرس فى قوله : كنت عند المأمون يوما ، فاستأذن المغنى عُمَيرٌ ليدخل ، فكرهت ذلك ، فقال المأمون : مابك ياثمامة ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، إذا غنى عُمَيرٌ ذكرت مواطن الابل وكثبان الرمل ، وإذا غنتنا فلانة انبسط أملى ، وقوى جذلى ، وانشرح صدرى ، وذكرت الجنان والولدان .

---

(١) رسالة العشق والنساء للجاحظ ١٦٥

كم بين أن تغنيك غادة كأنها غصن بان ، ترنو بمقلة وسنان ، كأنما خلقت من ياقوتة أو قرطت من فضة ، وبين أن يغنيك رجل كث اللحية ، غليظ الأصابع خشن الكف ؟ .

فتبسم المأمون وقال : الفرق بينهما واضح ، ياغلام لا تأذن لعمير ، وأمر بأن تحضر أطيب قيناته [١]

أما القينة فهي الأمة المغنية ، من التَّقَيُّن وهو التزين ، ومنه قيل للمرأة مُقَيِّنة إذا كانت تزين النساء . وقيل القينة هى الأمة مغنية أو غير مغنية ، والمغنية تسمى قينة إذا كان الغناء صناعة لها ، وذلك من عمل الاماء دون الحرائر [٢] .

٢ — وقد عرف القيان منذ زمن بعيد ، ولكن الذى يمنينا الآن ما يتصل بالفرس ، ونظن أن هريرة وخليدة قينتى بشر بن عمرو بن مرثد كانتا فارسيتين ، لانه قدم بهما اليمامة لما هرب من النعمان ملك الحيرة [٣] ، وهريرة هذه هى التى شبب بها الأعشى فى قوله :

وَدِّعْ هريرة ان الركب مُرتَحِلٌ . . وهل تطيق وداعا أيها الرجل ؟ [٤]

ونظن أن القيان اللاتى ذكر حسان بن ثابت أنهن كن يُغَنِّين غناء أهل الحيرة فارسيات أيضا فقد ذكر أنه سمع عند جبلة بن الأيهم الأمير الغسانى عشر قيان ، خمس روميات يغنين بالرومية وخمس يغنين غناء أهل الحيرة[٥] .

لكن الذى لاشك فيه أن الحرائر من العربيات ما كن يحترفن بالغناء ، لأنهن إما مكفولات الرزق برجالهن ، وإما كاسبات بغير الغناء ، إذ أن الغناء يقتضى المرأة المغنية أن تتزين للسامعين ، ولقد كان يقتضيها أن تكشف عن بعض مفاتنها ، وأن تكون مناط أنظارهم ومجمع اشتهائهم ، كما تحدث الشعراء ، ولا يرضى رجل عربى أن تكون كذلك امرأة تصلها به قرابة ، ولا تجرؤ امرأة عربية على أن تشذ عن بنات جنسها ، فتحتمل هذا الوضع المخصص للإماء . فالقيان إذاً أجنبياتٌ فارسياتٌ وروميات وحبشيات ، وقد ذهب إلى ذلك المستشرق ليآل ، فقال : إن القيان كن

---

(١) زهر الآداب ٣ — ٢٧ (٢) اللسان مادة قين .
(٣) الأغانى ٨ — ٧٧ (٤) الديوان ٤١ (٥) الأغانى ١٦ — ١٤

فارسيات أو يونانيات من سورية ، وأنهن كن يغنين بالعربية ، وربما غنين بلهجة أجنبية [١] وهو فى هذا يتفق مع فون كريمر ، وإن ذهب فون كريمر إلى أنهن كن يغنين بلسانهن اليونانى أو الفارسى [٢] .

أما الأدلة على غناء بعضهن بالشعر العربى فمنها قول عبدة بن الطبيب :

ثم اصطحبت كُمَيْتا قَرْقَفًا أُنُفًا   من طَيِّب الرّاح ، واللذاتُ تعليل
صِرْفًا مزاجا وأحيانا يُعللنا   شِعْرٌ كمُذْهبة السمّان محمول
تَذْرِى حواشيه جَيْداء آنسةٌ   فى صوتها لسماع الشَّرْب ترْتيل
تَغْدُو علينا تلهينا ونَصْفِدها   تُلْقَى البرودُ عليها والسرابيل [٣]

كذلك كان بالمدينة قينة ، أوحى إليها أهل المدينة أن تغنى النابغة بقصيدة من شعره فيها إقواء فتيقظ له وأصلحه [٤] .

والأمثلة على غنائهن بالشعر العربى كثيرة جدا [٥]

على أنه لا عجب فى أن كان يتغنى بعضهن بغير اللغة العربية ، فيطرب سامعوهن ، لأنهم يطربون للصوت واللحن ، ويعجبون بالجمال . فقد روى أن أبا تمام سمع بخراسان غناء بالفارسية فلم يدر ما هو غير أنه أشجاه فقال :

حمدتكِ ليلةً شَرُفَتْ وطابَتْ   أقام سُهادها ومضَى كَراها
سمعتُ بها غناء كان أولى   بأن يقتاد نفسى من عناها
مرَّت أوتارها فشجتْ وشاقت   فلو يَسْطيع حاسدها فداها

---

(١) الشعر الغنائى فى الأمصار الإسلامية للدكتور شوقى ضيف ٥٤

(٢) Farmer. A History of Arabian Music. p. 17.

(٣) المفضليات ١ — ١٤٣ كميت : خمر فى لونها سواد وحمرة . قرقف : تصيب شاربها برعدة . أنف : لم يشرب منها أحد قبله . صرفاً مزاجاً : خالصة وكأنها ممزوجة بالماء لطيبها . يعللنا : يلهينا . السمان : وشى أو أصباغ . محمول : مروى ذائع لحسنه . تذرى : ترفع أو تسقط حواشى غنائها تطريباً وترجيعاً .

حواشيه : أطرافه . آنسة : منبسطة . متحدثة . نصفدها : نعطيها .

(٤) الأغانى ٩ — ١٥٧ .

(٥) الأغانى ٨ — ٧٢ و ٨ — ٣ و ١٠ — ١٧ و ١٠ — ٧ و ١٦ — ١٤ وإنسان العيون ٣ — ٧٨ والطبرى ٣ — ١١٩ والإصابة ٨ — ١٦٦ و ٨ — ٤ والعقد الفريد ٢ — ٢٣١ :

ولم أفهم معانيهـا ولـكن وَرَتْ كبدي فلم أجهل شجاها
فـكنت كأنني أعمى مُمَنًّى يُحبُّ الغانيات ولا يراها[1]

وكثيراً ما كان لبعض الشعراء قيان يتغنين بشعرهم ، فكان لعبد الله بن جُدْعان قينتان[2] ، ولبشر بن عمرو بن مرثد قينتان[3] ، ولسلامة بن جندل قينة[4] وكذلك ولطرفة قينة[5] ، وكذلك لعمرو بن الإطنابة[6] ولعبدة بن الطبيب[7] ولعبد يغوث[8] وكان لامرئ القيس قيان يغنينه في رحلاته ولهوه[9] .

وكثيرا ما كانت القيان يغنين بمقاطيع حب وغزل ووصف جميل ، كما في شعر طرفة والأعشى وسلامة بن جندل .

ولا يحسبنا هنا قول عمرو بن الاطنابة في وصف قيانهم إنهن كن يشغلن أنفسهن بالتزين والتجميل والتحلي بقلائد فارسية :

إن فينا القيان يعزفن بالدف لفتياننـا وعيشـا رَخِيّا
يتبارين في النعيم ويصببـن خـلال القرون مسكا ذكيا
إنمـا همهن أن يتحلين سموطا وسُنْبلا فارسيا
من سموط المرجان فصل بالدر فأحسِنْ بحَلْيهن حُلِيـا[10]

ويظهر أن عدد القيان والإماء الفارسيات كان كثيراً ، وأن العرب استولدوا بعضهن ، لأن علي بن محمد المدائني ألف كتابا ذكر فيه أسماء الذين تزوجوا فارسيات

---

(١) تهذيب الكامل ٢ — ٣٤ وزهر الآداب ١ — ١٣٢ .
(٢) أوائل الأوائل لأبي هلال العسكري ٢١٩ مخطوط ورسالة القيان للجاحظ ٦٢ والأغاني ٨ — ٣ .
(٣) الأغاني ٨ — ٧٧ .
(٤) المفضليات ١ — ١١٨ .
(٥) ديوان طرفة ٢٨ .
(٦) الأغاني ٩ — ١٦٤ .
(٧) المفضليات ١ — ١٤٣ .
(٨) المفضليات ١ — ١٥٦ .
(٩) الأغاني ٨ — ٦٥ والديوان ١٨٧ .
(١٠) الأغاني ٩ — ١٦٤ سموط : قلائد .

سماه (كتاب فيمن تزوج مجوسية[١]) وأرجح أن ذلك الزواج كان قبل الإسلام لأن الإسلام لا يحل زواج المجوسية ، إذ أن المجوس يؤمنون بنبوة زرادشت ويكذبون سائر الأنبياء[٢] .

٣ — هذا الغناء كان يقتضي الموسيقى ولقد يعزز أن بعض القيان كن فارسيات اننا نجد في الشعر العربي القديم أسماء فارسية لآلات الطرب والموسيقى .

من ذلك : الطنبور ، كلمة فارسية معناها إلية الحَمَل[٣]

والبربط هو العود ، فارسي معرب ، معناه صدر البط أو الأوز[٤] لأنه يشبهه .

والوَنّج هو المعزف أو المزهر أو العود ، وقيل نوع من الصنج فارسي معرب أصله ونه ، ونطقه العرب الونّ[٥] .

ومستق صيني آلة يضرب عليها ، يذكر الضبي إن الكلمة فارسية أصلها مشقة صيني أي يؤخذ باليدين[٦] . وفي القاموس مشتقة بضم التاء وفتحها آلة يضرب بها الصنج ونحوه معرب[٧] .

ويحسبنا أن نسوق من شعر الأعشى ما يدل على معرفتهم بعض هذه الآلات الفارسية قال الأعشى :

وبربطنا دائماً معمَلٌ فأيُّ الثلاثة أزرَى بها ؟
ترى الصنج يبكي له شجْوَهُ مخافة أن سوف يُدْعَى بها[٨]

---

(١) معجم الأدباء ١٤ — ١٣٣ .
(٢) الفصل في الملل والنحل ١ — ١١٣ .
(٣) لسان العرب والقاموس المحيط مادة طنبور وفرهنك تفيسى Steingass
(٤) اللسان والقاموس مادة بربط
(٥) اللسان والقاموس مادة ونج
(٦) الملاهي للضبي ٢١ مخطوط
(٧) مادة ستوق
(٨) الديوان ١٧٣ والمعاني الكبير لابن قتيبة ١ — ٤٦٨ واللسان مادة صنج

وقال :

ومستق صيني وونّ وبربط يجاوبه صنج إذا ما ترنما[1]

أما المِزْف والكران والعود والمزهر فعربية الأصل ، فقلها الفرس عن العرب فيما بعد[2] .

وقد بقيت هذه الآلات إلى العصر الأموى وعزفت القيان عليها ، مثل سيرين وجيلة ورائقة وعزة الميلاء[3] .

٤ — على أن الذى يتتبع أخبار ملوك الحيرة يجدهم يحاكون ملوك فارس فى كثير من ضروب الأبهة ومظاهر الترف .

فقد حجبوا أنفسهم عن الشعراء بأستار كما كان يفعل ملوك الفرس ، نستدل على هذا من أن الحارث بن حِلِّزة أنشد عمرو بن هند قصيدته التى مطلعها :

آذنتنــا ببينها أسمــاء رُبَّ : ثاو يُمَلُّ الثَّواء

وكان ينشده من وراء سبعة ستور ، فأمر الملك برفع الستور ، استحساناً لما سمع ، وأدنى الشاعر وقربه[4] .

٥ — وإذاً فقد كان العرب على صلة بالغناء الفارسى والرومى والحبشى منذ الجاهلية ، وليس أدل على ذلك من ذكر الشعراء لأسماء الآلات الموسيقية الأجنبية قبل أن يبزغ الإسلام ، ومن أن الغناء الفارسى والرومى كان معروفاً لهم فى الشام كما سمعه حسان بن ثابت .

لهذا رجحت أن بعض القيان كن فارسيات .

على أن التاريخ يحدثنا بأن الحارث بن كَلَدة قد تعلم العزف على العود بفارس

---

(١) الملاهى للضبى ٢١ مخطوط

(٢) المعاجم العربية و Steingass

(٣) الاغانى ١٦ — ٢

(٤) العمدة ١ — ٢١ والشعر والشعراء ٣

واليمن ، ثم قدم مكة وعلم أهلها[١] ، ثم سافر ابنه النضر إلى فارس كما سافر أبوه ، وتعلم هناك أشياء جليلة القدر[٢] .

فمن حقنا إذاً أن نصحح ماذكره أبوالفرج الأصفهانى ، أو نذهب فى فهمه مذهباً آخر ، ذاك أنه يذكر أن سعيد بن مِسْجَح المكى الأسود أول من نقل غناء الفرس إلى العرب ، لأنه تعلم هناك الغناء والطرب ، وتعلم بالشام ألحان الروم ، ثم قدم الحجاز فعلم الناس محاسن تلك النغم[٣].

وذكر فى رواية أخرى أنه مر بالفرس وهم يبنون المسجد الحرام فسمع غناءهم بالفارسية ، فقلبه فى شعر عربى ، وهو الذى علم ابن سُرَيْج والغريض[٤] .

وذكر فى رواية ثالثة : أنه سمع بنائين من الفرس يغنون وهم يبنون دورا لمعاوية ، فأخذ ألحانهم ونقلها إلى الشعر العربى ، ثم صاغ على نحوها[٥] .

وهذه الروايات وإن اختلفت فى ظروف نقل ابن مِسْجَح للغناء الفارسى تتفق على أنه أول من نقله إلى الغناء العربى .

ثم ذكر أبو الفرج فى موضع آخر أن ابن مُحْرِز الفارسى الأصل شخص إلى فارس والشام ، وتعلم الألحان وألف منها الأغانى التى صنعها فى أشعار العرب ، وهو الذى ابتكر غناء الرَّمَل ، ولم يعرفه العرب ولا الفرس قبله ، لأن ابن سُلَّمك أول من غنى رملا بالفارسية أيام الرشيد محاكيا لابن مُحْرِز أستاذه[٦] .

ويذهب مرة ثالثة إلى أن سائب خاثر الفارسى الأصل أول من صنع مثل الغناء الفارسى فى العربية ، وأنه أستاذ ابن سُرَيْج وجميلة ومعبد وعزة الميلاء وغيرهم[٧] .

ثم تبع بعض المؤرخين للحضارة الاسلامية أبا الفرج ، فذهب خدابخش إلى أن

---

(١) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ١ — ١٠٩ وأخبار الحكماء ١١١
(٢) عيون الأنباء ١ — ١١٣
(٣) الأغانى ٣ — ٨١
(٤) الأغانى ٣ — ٨١ و٨٢
(٥) الأغانى ٣ — ٨٤
(٦) الأغانى ١ — ١٤٠
(٧) الأغانى ٧ / ١٦٩

الموسيقى الفارسية دخلت بلاد العرب فى الاسلام مع أسرى الفرس الذين وفدوا إلى مكة أفواجا ، وعلموا العرب الغناء على نغمات الدف والناى والعود والطنبور[١].

لكننا نلاحظ أن روايات أبى الفرج لا تلتق على شخص معين يصح أن ينسب إليه السبق فى ادخال الغناء الفارسى أو الرومى إلى العرب ، فهو مرة ابن مِسْجَح ومرة ابن مُحْرِز ، وثالثة سائب خاثر ، ورابعة نُشَيْط ، وخامسة طُوَيْس[٢]

ولست أنكر أثر الغناء الفارسى أو الرومى فى العربى ، وأنما أذهب إلى أن هؤلاء الذين ذكرهم أبو الفرج كان لهم الفضل فى تجديده ورفده بالغناء الاجنبى ، ولم يكن أى واحد منهم هو السابق ، لأن العرب — كما سبق — عرفوا الغناء الفارسى وعرفوا الغناء الرومى من قبل ، وأطربتهم به قيانهم ، ورددوا فى لغتهم وشعرهم أسماء آلات موسيقية فارسية ورومية وحبشية قبل أن يوجد واحد من هؤلاء المغنين .

٦ — كانت الخمر المعتقة ترد إلى العرب من جهات شتى ، من أهمها بابل ، لهذا نسبوا الخمر إليها ، قال لبيد فى غزله :

كأن الشَّمول خالطت فى كلامها ... جَنِيًّا من الرمان لَدْنًا وذابلا
لذيذا وَمنقُوفا بصافى مخيلة ... من الناصع المختوم من خمر بابلا[٣]

وكانت تأتيهم من عانة ، قال زهير :

كأن ريقتها بعد الكرى اغتَبَقَتْ ... من خمر عانَةَ لما يَعْدُ أن عتقا[٤]

ونسبها مالك ابن جريم (حريم) الهمدانى إلى فارس :

كأن جَنا الكافور والمسك خالصاً ... وبرد الندى والأقحوان المنَزَّعا
وقلتا قَرَتْ فيه السحابة ماءها ... بأنيابهــــا والفارسى المشَعْشَعا[٥]

---

(١) مقدمة خدا بخش لكتاب الحضارة الإسلامية لفون كريمر ٢٥ .

(٢) الاغانى ٤/ ٣٨

(٣) ديوان لبيد ٢٦ الشمول : الخمر أو الباردة منها . منقوفا : ممزوج مصفى مخيلة : سحابة ممطرة

(٤) اللسان ١٧/ ١٧٥ عانة : بلد على الفرات تنسب إليه الخمر العانية . اغتبقت : شربت الخمر بالعشى .

(٥) الأصمعيات ٥٨ الجنى : كل مايجنى الأقحوان : نبت له نور أبيض . المنزع : المنزوع . القلت : النقرة فى الجبل تمسك الماء . قرت : جمعت . الفارسى : المنسوب إلى فارس والمراد الخمرة . المشعشعة : الممزوجة بالماء . بأنيابها : خبر كان .

وكانت ترد من بَيْسان ، ذكر قيس بن عاصم التميمى أن تاجر الخمر كان يجىء بها من بيسان فيبيع له ، وما يزال الخمار فى جواره يبيع له حتى يستهلك ماله :

وتاجر فاجر جاء الإله به   كأن عُثْنُونه أذنابُ أجمال
جاء الخبيث ببيسانية تركت   صحبى وأهلى بلا عقل ولا مال[1]

ونسبها الاعشى إلى الفرس فى قوله :

وطلاء خُسْرُوانى إذا   ذاقه الشيخ تَغَنَّى وأرجحَنْ[2]

ولهم فنون من الابداع فى وصف الخمر ومجالسها وندماها وسقاتها وأثرها فى النفس ، يهمنا منه قول الأسود بن يَعْفُر النهشلى إن الخمر كان يسعى بها غلام مقرط مَنطّق وأنهم كانوا يشترونها بدراهم فارسية :

ولقد لهوت — وللشباب لذاذة —   بسلافة مُزِجَتْ بماء غوادى
من خمر ذى نَطَف أغنّ منطّق   وافى بها لدراهم الإسْجاد
يَسْعَى بها ذو تُومَتين مُشَمِّرٌ   قَنَأت أنامله من الفِرْصاد[3]

٧ — وكان ملوك الحيرة ينافسون أكاسرة الفرس فى الترف ومظاهر النعمة والعظمة ، فقصورهم مؤثثة بأثمن الاثاث ، وحدائقها مستورة بأعز الازهار ، وقواربهم الأنيقة الساطعة الانوار تشق الفرات ليلا ، حاملة أعلى الأمراء وأمهر الموسيقيين لهذا أطلق العرب لأنفسهم عنان الخيال ، فقصوا علينا أنباء القصور الساحرة العجيبة التى أضحت أجمل مساكن الشرق وأطيبها[4] .

وكان القصر الملكى فى الحيرة ينطق بالثراء والرفاهية ، كما يبدو فى مدائح الشعراء ،

---

(١) الأغانى ١٢/١٤٥ والأشربة لابن قتيبة مخطوط والعقد الفريد ٣/٣١٣

(٢) الديوان ٣٥٩ طلاء خمر . خسروانى : نسبة إلى خسروشاه .

(٣) المفضليات ٢/١٨ الغوادى : السحب الناشئة غدوة . نطف جمع نطفة بفتحتين وهى القرط . منطق . غلام عليه نطاق . الاسجاد ودراهم الاسجاد هى دراهم الاكاسرة كانت عليها صورة يسجدون لها . تومتين : لؤلؤتين . قنأت : اشتدت حمرتها حتى مالت إلى السواد . الفرصاد : التوت .

(٤) حضارة العرب ١١٦ جستاف لوبون .

وقد بقى القصران العظيمان الخَوَرْنق والسَّدِير يستعملان بعض الاستعمال ، وكانت بقايا الخورنق مأوى الراحلين للصيد إلى أوائل العصر العباسى[١] .

ونسب العرب إلى الفرس أنواعا من الملابس ووسائل التجمل والزينة ، كقول عمرو بن الاطنابة فى وصف قيانهم :

إنمـــا همهن أن يتحلـــين سموطا وسنبلا فارسيا[٢]

وقول أبى دواد الايادى :

لمن الظعن بالضحا واردات جدول الماء ثم رُحْن عشية
مظهرات رَقْا تُهال له العـــين وعَقْلا وعَقْمة فارسية[٣]

وقوله أيضاً :

ويَصُنَّ الوجوه فى المَيْسنا نى كما صان قرن شمس غمام[٤]

---

(١) مسالك الثقافة الأغريقية إلى العرب ٢٨ : أوليرى .

(٢) الأغانى ٩/١٦٤

(٣) معجم البلدان ٤/١٥٠ الرقم : ضرب من الخز أو الوشى مخطط . العقل : ثوب أحمر يجلل به الهودج أو ضرب من الوشى . العقمة : بفتح العين وكسرها المرط الأحمر أو كل ثوب أحمر .

(٤) الأصمعيات ٢١٤ الميسانى : نوع من الثياب منسوب على غير قياس الى ميسان وهى كورة بين أواسط البصرة .

الفصل السابع

أثر الفرس فى القصص والتاريخ

١ — عرف العرب بعض أخبار الفرس وقصصهم ، كقصة رستم وأسفنديار[1] وقد ذكر ابن هشام أن النضر بن الحارث كان من شياطين قريش وممن يؤذون النبي عليه الصلاة والسلام ، وكان قد شخص إلى الحيرة ، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وقصة رستم وأسفنديار[2] .

وذكر ابن أبي أصيبعة أن النضر رحل إلى فارس وتعلم بها[3] ، فكان الرسول إذا جلس مجلسا وذكر فيه بالله وحذر قومه ما أصاب الطغاة من قبلهم ، خلفه النضر فى مجلسه إذ قام وقال : يا معشر قريش أنا والله أحسن منه حديثا ، فهلم إلى . ثم يحدثهم عن ملوك فارس وعن رستم وأسفنديار . وهو الذى قال ، سأنزل مثل ما أنزل الله . وفيه نزلت ثمانى آيات من القرآن الكريم ، منها قوله تعالى : « إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين »[4] وروى أنه اشترى كتب الفرس ليحدث منها ، وأنه المعنى بقوله تعالى : « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ، ويتخذها هزوا ، أولئك لهم عذاب مهين » .

٢ — وكان مؤرخو الفرس قد دونوا تاريخ العرب ثم استقى منه كثير ممن أرخوا للعرب ، فالطبرى مثلا يقول : (وكان أمر آل نصر بن ربيعة ومن كان من

---

(١) قصة فارسية قديمة أعادها الفردوسى فى الشاهنامة ، تدور حول الحرب التى نشبت بين رستم بطل إيران القديم الذى كفل لها النصر على أعدائها أكثر من ثلاثمائة سنة وبين اسفنديار البطل الناشىء بطل دين زرادشت ، وقد دارت الحرب بينهما زمنا طويلا وأظهر اسفنديار بطولة تشبه بطولة رستم ولكن المبارزة بينهما انتهت بقتل اسفنديار .

(٢) سيرة ابن هشام ١ — ٣٢٠

(٣) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ١ — ١١٢

(٤) ابن هشام ١ — ٣٢٠ .

ولاة ملوك الفرس وعمالهم على ثغر العرب الذين هم ببادية العراق عند أهل الحيرة منبها لما كان مثبتا عندهم فى كنائسهم وأشعارهم . وقد حدثت من هشام بن محمد الكلبي أنه قال : انى كنت أستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى وتاريخ سنيهم من بيع الحيرة وفيها ملكهم وأمورهم كلها[1]) .

---

(١) تاريخ الطبرى ٢ — ٣٧

الفصل الثامن

أثر العرب فى الفرس

ليس من الطبيعى أن تجتمع عوامل الاتصال بين العرب بالفرس أحقابا طوالا فيتأثر العرب بالفرس هذا التأثر الذى سبق ، ثم لا يتأثر الفرس بالعرب .

لكن مظاهر تأثير عرب الجاهلية فى الفرس لا يستطاع توضيحها ، لأن أدب الفرس قبل أن يسلموا مجهول ، وأدبهم بعد الإسلام هو المدون المدروس .

لهذا يبدو تأثير العرب فى لغة الفرس وآدابهم وثقافتهم كما سنبين فى فصل خاص .

على أننا نجد أمارة تدلنا على أن العرب قبل الإسلام كان لهم فى الفرس أثر .

ذلك أننا نقرأ فى بعض كتب التاريخ العربية ما يدل على إعجاب الفرس بعرب الحيرة ، إذ يروون أن يزدجرد الأول (٣٩٩ — ٤٢٠ م) الملقب بالأثيم دفع ابنه بهرام جور إلى النعمان الأعور (٤٠٣ — ٤٣١ م) ليربيه تربية عربية ، ويذكرون أن النعمان بنى الخورنق مسكنا لبهرام وأنه كان يخرجه إلى البادية[1] وفى رواية أخرى أن الذى تعهد بتربية بهرام هو المنذر بن النعمان[2] ، لكن هذه الرواية لا تتمشى مع سنوات حكم المنذر (٤٣١ — ٤٧٣ م) وحكم يزدجرد ، إذ كان يزدجرد قد توفى قبل ولاية المنذر .

ويزيد بعضهم الأمر تفصيلا فيذكر أن بهرام رضع من امرأتين عربيتين وامرأة فارسية ، وتعلم على أساتذة من الفرس والروم ومن العرب ، ويقولون إنه أجاد اللغة العربية وقرض الشعر العربى والفارسى[3] ، ثم يرتبون على هذه العلاقة الوثيقة نتيجتين تلاءمانها : —

---

(١) الطبرى ٢ — ٧٢ .

(٢) الطبرى ٢ — ٧٤ .

(٣) مروج الذهب ١ — ١٢٦ .

أولاهما — أن بهرام جور استعان بالعرب على أن يخلف أباه على عرشه فأعانوه ، إذ كان كثير من أشراف الفرس تعاقدوا — بعد وفاة يزدجرد — على ألا يملكوا أحدا من ذرية يزدجرد ، لسوء سيرته وقالوا إنه لم يخلف ولدا غير بهرام ، وأن بهرام لم يتول ولاية يختبرونه بها ، ولم يتأدب بأدب العجم ، وإنما أدبه العرب ، فصار أشبه بهم في اخلاقه ، وأنفقوا على صرف الملك عنه إلى آخر[1]. ثانيتهما — أن خصوم بهرام خشوا — بعد انتصاره عليهم — وبعد توليه الملك — أن ينكل بهم ، فتوسطوا بالعرب ليتجاوز عن مساءتهم إليه ، فاستجاب بهرام وعفا عنهم[2].

ولقد يعزز ماذكره مؤرخو العرب ويدفع الشك عنه — ماذكره محمد عوفى وشمس الدين محمد الرازى .

أما محمد عوفى فقد ذكر في (لباب الألباب) وهو أول كتاب في تاريخ الأدب الفارسي أن بهرام جور أول من أنشأ شعرا بالفارسية ، وأنه تعلم الشعر من العرب ، إذ نشأ بينهم ، وعرف دقائق لغتهم ، وكان له شعر عربي بليغ ، ويضيف عوفى إلى ذلك أنه رأى ديوانه في خزانة كتب في بخارى ، وأنه قرأه ونقل بعضه وحفظ بعضه وكانت به أبيات نظمها حينما رجع من الحيرة إلى فارس واستقر على سرير الملك بتأييد من العرب[3].

وأما شمس الدين الرازى فيذكر في كتابه (المعجم في معايير أشعار العجم) أن بهرام جور تربى في الحيرة وتأدب بآداب العرب ويقول إن حماد ابن أبي ليلى الراوية روى عن أهل الحيرة قطعا من الشعر العربي لبهرام ، ثم يروى بيت بهرام الذى يزعم الفرس أنه أول شعر فارسى ، ويقول :

ورأيت في بعض كتب الفرس أن علماء عصر بهرام لم ينكروا شيئاً من أخلاقه وأحواله إلا قول الشعر ، فلما بلغت إليه نوبة الملك واستقر له الأمر تقدم إليه الحكيم

---

(١) الطبرى ٢/٧٤ — ٧٦ .

(٢) الطبرى ٢ — ٧٨ .

(٣) الادب الفارسى الاسلامى للدكتور عبد الوهاب عزام . من قصة الادب في العالم ١ — ٤٤٨

آذرباد ونصحه قائلا : أيها الملك اعلم أن قول الشعر من كبار معايب الملوك ودنيّ عاداتهم ، لأن أساسه على الكذب والزور ، وبناء على المبالغة الفاحشة والغلو المفرط ولذلك أعرض عن الشعر العظماء من علماء الدين وذموه ، وعدوا مهاجاة الشعراء من أسباب هلاك الممالك السالفة والأمم الماضية ، فارعوى بهرام ، ولم يقل شعرا بعد ولا سمعه ، ونهى عنه أولاده وأقاربه[1].

(١) المرجع السابق ١ — ٤٥٠ .



الباب الثاني

بين الفرس والعرب في الإسلام



الفصل الأول

عوامل الاتصال

تعددت عوامل اتصال العرب بالفرس فى الإسلام ، فلم تكن من جانب واحد هم العرب فى أكثر الأحوال ولم تكن فردية أو سطحية ، أو عاجلة كما كان الحال فى العصر الجاهلى ، بل كانت فى الإسلام من جانب الفرس ومن جانب العرب معا ، وكانت جماعية لا فردية ، وعميقة لا سطحية ، وثابتة طويلة الأجل لا عاجلة وهى نابعة كلها من فتح العرب بلاد الفرس .

فتح فارس

ضعف الفرس قبل الفتح :

تفاقت عوامل الضعف فى فارس حتى استعصت على الإصلاح منذ أواخر القرن الخامس الميلادى .

فقد كان الشعب ينوء بالانقسام الدينى ، بين زرادشتية هى الدين الرسمى للدولة ، رجالها يضطهدون الديانات الأخرى ، وما تدعو إلى الزهد والكمال ، ومزدكية تحض على الشيوع فى الأموال والنساء ، ونصرانية يصطرع مذهباها النسطورى واليعقوبى ، على حين أن الحكومة الفارسية تضطهد النساطرة واليعاقبة فى كل حرب بينها وبين الدولة البيزنطية ، وكان هناك يهود وصابئة يقاسون ألوانا من الاضطهاد والتنكيل .

وكانت الحكومة قد أنهكتها الحروب المتوالية مع جيرانها وبخاصة الدولة البيزنطية فى الغرب والقبائل التركية فى الشرق ، وهذه الحروب اقتضت ضرائب باهظة أثقلت الشعب .

ولم يستطع الشعب أن يعبر عن سخطه فى جو الحكم المطلق . فنظام الحكم
وراثى قائم على أن كسرى يملك بتفويض من الله ، والأكاسرة منقطعون أو شبه
منقطعين من الرعية ، والشعب يدين بأن ملوكه مختارون من الله ليتولوا سياسته ،
ولهم على الناس السمع والطاعة ، وليس لأحد من الناس عليهم حق .

يقول الأستاذ نولدكه : إن الملوك الفرس يزعمون أنهم وحدهم أصحاب الحق
فى لبس التاج ، بما يجرى فى عروقهم من دم إلهى .

ويقول الأستاذ برون : إن نظرية الحق الإلهى لم تعتنق كما اعتنقت فى فارس
فى عهد الملوك الساسانية . ويوافقهما فى هذا الوصف دوزى وملر وغيرهما[1] وكان
من نتائج ضعف الفرس أن انتصرت بعض القبائل العربية على جيشهم فى موقعة
ذى قار حوالى ٦١٠م كما قدمنا فى علاقة العرب بالفرس فى الجاهلية ، وأن تعاقب على
العرش الفارسى اثنا عشر ملكا من رجال ونساء وصبيان وغاصبين للملك ، فى عشر
السنوات التى سبقت الفتح الإسلامى .

لكن العرب ما زالوا يظنون بهم القوة التى عهدوها وسمعوا بها ، فلما آن لهم
لهم أن يفتحوا بلادهم تهيبوا ، إذ جعل عمر بن الخطاب يندبهم فلا ينتدب أحد
إلى فارس « وكان وجه فارس من أكره الوجوه إليهم . وأثقلها عليهم لشدة
سلطانهم وشوكتهم وقهرهم الأمم[2] .

ثم استجابوا لعمر ومضوا إلى بلاد الفرس .

سير الفتح :

لما فرغ خالد بن الوليد من إخماد ثورة المرتدين وجهه أبو بكر ومعه المثنى
ابن حارثة إلى العراق ، فأخضع القبائل العربية بجنوبى الفرات ، ثم استولى على
الحيرة والأنبار سنة ١٢ هـ ، وكتب خالد إلى أهل فارس يدعوهم إلى الإسلام
أو الجزية ، فصمموا على الحرب .

---

(١) أدب السياسة فى العصر الأموى للمؤلف ٣٤ .
(٢) الطبرى ٤/٦١

ثم توجه خالد إلى الشام ، فحدثت بين العرب والفرس وقائع انتصر المسلمون فى بعضها ، وانهزموا فى موقعة الجِسْر سنة ١٣ هـ ثم انتصروا فى يوم البُوَيْب .

ولما دهم الفرس ما دهمهم ؛ اجتمع عظماؤهم وأصلحوا ما بين رستم ومنافسه الفَيْرُزان ، وأجمعوا على تولية يزدجرد الثالث ، وتبارى المرازبة فى طاعته ، وأعدوا العدة لطرد المسلمين من العراق ، حينئذ هم عمر أن يشخص إليهم بنفسه ، واستشار أصحابه فأشاروا عليه بأن يقيم ويبعث إليهم من الصحابة واحدا ، بعد آخر ، ويمده بالجنود ، فقبل مشورتهم ، واختار سعد بن أبى وقاص ، ومده بجيش بلغ نحو ثمانية آلاف ، والتقى الجيشان فى القادسية[1] ، فانتصر المسلمون على الفرس بعد جهاد وجلاد ومصابرة ، وقتل رستم سنة ١٦ هـ (٦٣٧ م) وبعد ذلك فتح المسلمون المدائن عاصمة الفرس ، وهزموا الفرس مرة أخرى عند جَلُولاء ، فصار العراق ملكا لهم .

ثم انساحوا فى بلاد الفرس ، وهزموهم فى موقعة نَهاوَنْد ، سنة ٢١ هـ ، وقد عرفت هذه الموقعة بفتح الفتوح ، لأنها الموقعة الفاصلة التى كفلت للمسلمين الاستيلاء على فارس ، وما زال المسلمون يطاردون يزدجرد الثالث ، ويستولون على بلاده حتى اضطر إلى الفرار إلى أن قتل سنة ٣١ هـ فى عهد عثمان بن عفان ، وبموته انقرضت دولة آل ساسان .

من نتائج الفتح :

كان من نتائج هذا الفتح أن انفسح المجال لتيارات اتصال الشعبين ، فصارت الخيوط التى كانت تصلهما فى الجاهلية طرقا فسيحة ممهدة ، وصارت العلائق الفردية روابط جماعية ، وأصبحت الصلات الموقوتة عرى دائمة . وحسبنا أن نذكر من نتائج الفتح وعوامل الاتصال عدة مظاهر .

١ — أسس العرب بين جزيرتهم وبلاد الفرس مدينتى البصرة والكوفة ، ثم أسسوا فيما بعد مدينة بغداد[2] على نهر دجلة بالقرب من فارس ، وسرعان

(١) موضع على حافة البادية بالقرب من الكوفة .

(٢) اتخذ العباسيون الكوفة عاصمة لهم سنة ١٣١ هـ ، وكانوا يقيمون أحيانا بالهاشمية شمال الكوفة ، وأحيانا بالأنبار ، فلما أنشأ المنصور بغداد سنة ١٤٩ وجعلها العاصمة بدأت الكوفة =

ما امتلأت هذه المدن وغيرها بمهاجرى العرب من يمنية ونزارية ، وشرقت بالوافدين عليها من الفرس ، وسرعان ما ازدهرت هذه المدن ، وصارت مراكز للثقافة العربية والإسلامية .

كذلك انتشر الفرس فى بلاد الجزيرة وما حولها واندمجوا بالعرب ، واستعربوا .

٢ — أقبل كثير من الفرس على اعتناق الإسلام أحرارا مختارين ، فى غير ما إجبار أو اضطرار ، لأن المظالم التى اصطلوا بنيرانها قبل الاسلام حببت إليهم أن يقبلوا سراعا على اعتناقه ، فكفل لهم العرب حريتهم الدينية ، وعاملوا أتباع الزراد شتية معاملة أهل الكتاب ، فقبلوا منهم أن يبقوا على دينهم ويدفعوا الجزية .

٣ — وإذ كانت اللغة العربية لغة الدين الذى آمن به كثير منهم ، ولغة الفاتحين الذين يتصلون بهم ، تسابق كثير منهم إلى تعلمها ، وسرعان ما أجادها بعضهم ، وكانوا قدوة لمن بعدهم ، حتى صار كثير من مشهورى الشعراء والكتاب والعلماء باللغة والدين من أبناء الفرس .

٤ — اتسعت دائرة الخلافة الإسلامية ، وكثرت خيراتها ، إذ ضم المسلمون مملكة كبيرة كثيرة الخيرات إلى حوزتهم ، وملكوا كنوز الفرس ، وما أعظمها ، فصار هذا الثراء من روافد الترف الذى سنتحدث عنه .

٥ — جعل الخلاط يقوى شيئا فشيئا منذ الفتح إلى آخر العصر الأموى ، فلما قامت الدولة العباسية — وكان للفرس ضلع فى إقامتها — توثقت الصلات بالمخالطة والمجاورة والمعاشرة والمصاهرة ، فكثر من أبناء العرب من أمه فارسية ومن أبناء الفرس من أمة عربية .

وزاحم الفرس العرب فى الوزارة والحجابة وقيادة الجيوش وجباية الأموال وولاية الأقاليم ومنادمة الخلفاء ، ثم غلبوهم عليها .

= تفقد مركزها السياسى ، لكنها بقيت محتفظة مركزا للثقافة ، وكانت البصرة مملوءة بالأعاجم من فرس وهنود ويونان ؛ يعملون فى التجارة والملاحة ، وهذا هو السبب فى أنها كانت المنبع الأول للاحتكاك الدينى فى العقائد ، حيث نشأت الفرق الدينية كالمعتزلة للرد على أصحاب الملل القديمة الذين تهجموا على الإسلام .

٦ — وكان من ثمرات هذا كله أن تأثر العرب بالفرس فى كثير من أساليب الحكم ومظاهر الحياة ، حتى إن خلفاء بنى العباس كانوا حراصا على معرفة تاريخ الفرس وأخبار ملوكهم ، وكان بعضهم يصطحب معه من يقص عليه تاريخهم ، كما كان السفاح يصطحب أبا بكر الهزلى ويستمع إليه ، وكما طلب المنصور — حينما هم بقتل أبى مسلم . وتردد بين الاستبداد برأيه والمشاورة فيه ، فأرق ليلته — من إسحاق ابن مسلم العقيلى أن يحدثه حديث الملك الفارسى سا ور الأكبر الذى قتل وزيره[1] .

نصيب الفرس فى قيام الدولة العباسية :

لما هب محمد بن على بن عبد الله بن العباس يدعو لآل العباس ، ويقوض دعائم الملك الأموى ، واتخذ خراسان مجالا لبث دعوته . وكان اختياره موفقا لأن أكثر من بالشام والعراق وجزيرة العرب كان هواهم أمويا ، ولأنه فى خراسان كما قال محمد العباسى : « العدد الكثير ، والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة ، وقلوب فارغة ، لم تقتسمها الأهواء ، ولم تتوزعها النحل ، ولم يقدم عليها الفساد ، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة . . . وإنى أتفاءل إلى المشرق ، وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق » .

ولما وجه ابراهيم بن محمد أبا مسلم إلى خراسان سنة ١٢٨ هـ قال له : ياعبد الرحمن انك رجل منا أهل البيت ، فاحفظ وصيتى ، وانظر هذا الحى من اليمن فأكرمهم ، فإن الله لايتم هذا الأمر إلا بهم . وانظر هذا الحى من ربيعة فاتهمهم فى أمرهم . وانظر هذا الحى من مضر فانهم العدو القريب الدار ، فاقتل من شككت فى أمره ومن كان فى أمره شبهة ومن وقع فى نفسك منه شىء . وإن استطعت ألا تدع فى خراسان لسانا عربيا فافعل . فايما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله[2] »

ومعنى هذا أنه يعتمد على الفرس وعلى من بها من العرب اليمنية ، وينظر إلى العرب الآخرين هناك نظرته إلى العدو ، ويود أن يقضى عليهم ليبلغ مايريد .

ثم إن الفرس كانوا حانقين على العرب عامة ، وعلى بنى أمية خاصة .

---

(١) البيان والتبيين ٣ — ٣٩٨ .

(١) الطبرى ٩ — ٧٦

وليس من المستبعد أن يكون ذوو الرأى من أبناء الفرس قد تطلعوا فى أواخر الدولة الأموية إلى إقامة دولة جديدة تقربهم وترفع من أقدارهم ، فقد كان الفرس يتخذون التشيع لعلى وآل بيته لوناً سياسيا ، إذ كانوا قد وثقوا بأن من المستحيل أن يسترد الفرس فى ذلك الوقت استقلالهم السياسى وحريتهم الدينية على نحو ما كانت عليه قبل الإسلام . فلم يكن بد من أن يصلوا إلى السلطان من الإسلام ، ومن طريق السياسة الحزبية الإسلامية ، فنصروا المضطهد من هذه الأحزاب — وهو حزب العلويين — وكان هذا الحزب ضعيفاً أيام عثمان ، مضطهدا أقبح الاضطهاد أيام بنى أمية ، فأيده الفرس وناصروه حتى وصلوا به إلى السلطان ، ولكنهم لم يصلوا بالعلويين إلى السلطان ، لأن ظروفا سياسية خاصة دعت إلى أن يستأثر بنو العباس بالحكم دون بنى على ، فلان الفرس ومرنوا وآزروا بنى العباس ، ليصلوا معهم إلى السلطان ، وتشدد منهم فى مذهبهم العلوى قوم لقوا فى سبيل هذا المذهب منايام ، ومن هؤلاء أبو مسلم ، ومنهم البرامكة أيضا[1] .

ولم يكن ذلك الأمل الذى راود الموالى يخاف على ساسة العرب ، فهذا نصر بن سيّار — والى خراسان فى عهد هشام الثانى — يدعو العرب إلى الوحدة ، ويهيب بالنزاريين واليمانيين أن يتآخوا ، ليتقوا الهلاك الذى يبيته العجم لهم ، ويوبخهم على غفلتهم عن أولئك الأعداء :

أبلغ ربيعة فى مرو وإخوتهم ... فليغضبوا قبل ألا ينفع الغضب

ولينصبوا الحرب إن القوم قد نصبوا ... حربا يُحَرّق فى حافاتها الحطب

ما بالكم تلقحون الحرب بينكم ... كأن أهل الحجا عن رأيكم عُزُب[2]

وتتركون عدوا قد أظلكم ... ممن تأشَّبَ لا دين ولا حسب[3]

قوما يدينون دينا ما سمعت به ... عن الرسول ولم تنزل به الكتب

فمن يكن سائلا عن أصل دينهم ... فإن دينهم أن تهلك العرب

---

(١) حديث الاربعاء للدكتور طه حسين ٢ — ٢٢٧

(٢) الحجا : العقل ، عزب : جمع أعزب وهو البعيد جدا

(٣) تأشب : جمع

ويظهر أن نذير الخطر نبه العرب المتعادين إلى أن يتحدوا ، ليدفعوا الهلاك النازل بهم ، فقد تَوادعت قبائل العرب من ربيعة ومضر واليمن على التعاضد وقتال أبي مسلم الخراساني ، لكن أبا مسلم وأعوانه فوتوا عليهم هذه الوحدة ، وأشعلوا نار الفتنة من جديد[١] .

والعجب أن كان فى أعوان أبي مسلم اليمنيون والرَّبَعيون ، وأن كان فى النقباء كثير من العرب ، كَقَحْطبة الطائى ، وقد رويت له خطبة فى أهل خراسان يحمسهم فيها على الثورة ، ويذكرهم بعظمتهم السابقة ، ويحقر من شأن العرب ، كقوله : « هذه البلاد كانت لآبائكم الأولين ، وكانوا يُنْصرون على عدوهم لعدلهم وحسن سيرتهم ، حتى بدلوا وظلموا ، فسخط الله عز وجل عليهم ، فانتزع سلطانهم ، وسلط عليهم أذل أمة كانت فى الأرض عندهم فغلبوهم على بلادهم . . . ثم بدلوا وغيروا وأخافوا أهل البر والتقوى من عترة رسول الله صلى الله عليهم ، فسلطكم الله عليهم لينتقم منهم عليهم بكم ، ليكونوا أشد عقوبة ، لأنكم طلبتموهم بالثأر[٢] .

ولما كانت زعامة الشيعة قد آلت إلى محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، نشط إلى ترويج الدعوة السرية ، إذ عين للشيعة نقباء ودعاة ، وأوصاهم ببث الدعوة سراً ، وبالتظاهر بها لآل البيت عامة من غير تعيين الفرد .

وكان للدعوة ركزان : أحدهما الكوفة ، وهى ملأى بالموالى من الفرس وملأى بالشيعة ، وكانت عاصمة الخلافة زمن على ؛ والآخر خراسان وهى ساخطة على بنى أمية كما تقدم .

وقد جاب الدعاة البلاد منذ أوائل القرن الثانى ، يمارسون التجارة فى الظاهر ، ويبثون الدعوة فى السر ، وظلوا كذلك نحو سبعة وعشرين عاما .

وكان ولاة بنى أمية فى خراسان يطاردونهم وينكلون بهم ، حتى إن أسد ابن عبد الله القسرى أمير خراسان كان إذا ظفر بأحدهم قطع يديه ورجليه وصلبه . لكنهم مضوا فى دعوته على الرغم مما ينصب عليهم من حتوف .

---

(١) ابن خلدون ٢ — ١١٩ و ٣ — ١٢١ .
(٢) الطبرى ٩ — ٩٨ — ١٠٦

وكان البيت المرواني قد أصيب بالتفكك والضعف ، وجعل كثير من الأمراء وولاة العهود يكيد بعضهم لبعض ، وكانت الفتن والثورات تتفاقم ، حتى إن آخر بني أمية — وهو مروان بن محمد — زلزلته ثورات الولاة عليه في أنحاء الدولة ، وزلزلته دعوة الشيعة في كل مكان ، وهزته بقايا الخوارج بزعامة الضحاك الشيباني ، وبذل مروان جهوداً في إخماد هذه الثورات ، فانتصر على كثير منها ، لكنه شغل عما كان يحدث في خراسان ، فاتسع المجال هناك للشيعة ، واستطاع دعاتها بزعامة أبي مسلم الخراساني أن ينتزعوها من بني أمية مستندين إلى العصبية القومية والحزبية الشيعية ، ومنتهزين الشقاق بين القبائل العربية ومؤازرة اليمنية لهم ، ثم اتجهوا إلى العراق واستولوا عليه ، وأعلنوا الدعوة لبني العباس ، وبويع أبو العباس عبد الله الملقب بالسفاح سنة ١٣٢ هـ (٧٤٩ م) بالكوفة .

ثم انتصر على مروان بن محمد في العام نفسه ، فهرب مروان إلى مصر ، فتعقبه صالح بن علي ، وقتله في قرية بوصير آخر سنة ١٣٢ هـ وبقتله تقوضت الدولة الأموية ، وقامت الدولة العباسية .

إشادة العباسيين بهم :

لم يغمط بنو العباس فضل الفرس في قيام دولتهم ، بل جاهروا به مرات . قال داود بن علي في خطبته يوم بويع السفاح بالخلافة : « يا أهل الكوفة إنا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا ، حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا ، وأفلج بهم حجتنا ، وأظهر فيكم دولتنا ، وأراكم الله ما كنتم تنتظرون ، وإليه تتشوفون ، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم ، وبيض به وجوهكم ، وأدالكم على أهل الشام ، ونقل إليكم السلطان وعز الإسلام . . . إن لكل أهل بيت مصراً ، وإنكم مصرنا[1] » .

وخطب أبو جعفر المنصور في أهل خراسان فقال « يا أهل خراسان ، أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا وبعد أن عدد مالاقى العلويون وبنو هاشم من

---

(١) الطبري ٩ — ١٢٧

اضطهاد قال : حتى بعثكم الله شيعة وأنصاراً ، فأحيا شرفنا بكم وعزنا بكم أهل خراسان ، ودمغ بحقكم أهل الباطل ، واظهر حقنا وأسار إلينا ميراثنا من نبينا صلى الله عليه وسلم ، فقر الحق مقره وأظهر مناره ، وأعز أنصاره ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين .

ولم ينس أن يوصى ابنه وهو شاخص إلى الحج سنة ١٥٨ هـ بأهل خراسان فى قوله . «وأوصيك بأهل خراسان خيراً ، فإنهم أنصارك وشيعتك ، الذين بذلوا أموالهم فى دولتك ، ودماءهم دونك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم أن تحسن إليهم ، وتتجاوز عن مسيئهم ، وتكافئهم على ما كان منهم ، وتخلف من مات منهم فى أهله وولده»[1] .

فإذا ذهبنا نستشهد بأقوال المؤرخين وجدنا كثيراً من نوع هذا الاعتراف ، فالمسعودى يذكر أنهم كانوا يسمون باب خراسان فى بغداد باب الدولة لأن الدولة العباسية أقبلت من خراسان[2] .

والجاحظ يقول : دولة العباس أعجمية خراسانية ، ودولة بنى مروان عربية أعرابية .

نصيبهم فى انتصار المأمون على الأمين :

ثم ناصروا المأمون على أخيه الأمين .

ذلك أن الرشيد قد عهد بولاية العهد إلى أبنائه الثلاثة معا . الأمين والمأمون والقاسم . ثم قسم البلاد بينهم ، فجعل الشرق للمأمون — خراسان والرى إلى همذان — وجعل الغرب للأمين — المغرب ومصر والشام — وجعل للقاسم الذى سماه المؤتمن الجزيرة والثغور والعواصم .

وهو بذلك ألقى بأسهم بينهم ، وغرس شجرة الشر بيده ، فتحقق ما قاله الشاعر[3] .

---

(١) الطبرى ٩ـ٣١٩

(٢) مروج الذهب ٢ـ١٨٣

(٣) الطبرى ١٠ ـ ٧٣

رأى الملك المهذب شر رأى لقسمته الخلافة والبلادا
فقد غرس العداوة غير آل وأورث شمل ألفتهم بدادا[1]
والقح بينهم حربا عوانا وسلس لاجتنابهم القيادا
ستجرى من دمائهم بحور زواجر لا يرون لها نفادا
فوزر بلائهم أبداً عليه أغيا كان ذلك أم رشادا

لكن الأمين أراد أن ينحى أخاه المأمون ، فعزز المأمون مركزه بخراسان ، وقرب إليه الأشراف ورؤساء العشائر ، فسر به أهل خراسان وعاضدوه وناصروه وقالوا : ابن أختنا — إذا كانت أمه فارسية الأصل — وابن نبينا ، وتوالت كتبه إلى أخيه محمد الأمين بالتعظيم والهدايا ، لكن البطانة أشعلت جذوة الحقد بين الأخوين فأمر الأمين خلع أخيه ، فكان رد المأمون أن أعلن نفسه خليفة ، وقامت الحرب بينهما ، وانتهت بانتصار المأمون وقتل الأمين سنة ١٩٨ هـ .

ويرى موير أن انتصار المأمون على الأمين يماثل انتصار العباسيين على الأمويين لأن كليهما انتصار للفرس على العرب .

ثم ازداد نفوذهم فى عهد المأمون ، إذا كانوا أعوانه على الأمين ، وكان يجهر بإيثارهم ، فقد تعرض رجل له بالشام مرارا فقال له : « يا أمير المؤمنين أنظر لعرب الشام كما نظرت لعجم أهل خراسان ، فقال : أكثرت على يا أخا الشام . والله ما أنزلت قيساً عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهم واحد . وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتنى قط . وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفيانى وخروجه فتكون من أشياعه . وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مضر ، ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شاريا أعزب فعل الله بك[1] » !!

ثم لم يلبث الترك أن سيطروا على شئون الخلافة فى عهد المعتصم ، إذا استكثر من الترك وآثرهم على الفرس ، فنكل الترك بالفرس والعرب معاً .

---

(١) البداد بفتح الباء المبارزة والمراد هنا العداوة .

(١) الطبرى ١٠ — ٢٩٦ الشارى . الخارجى . السفيانى . يقابل المهدى المنتظر الذى كان تنتظر الشيعة (أدب السياسة فى العصر الأموى) .

الفصل الثانى

أثر الفرس فى الإدارة والسياسة

غلبة العصبية العربية أول الأمر :

قامت الدولة العباسية مستندة إلى عصبيتها من الموالى الذين آزروها واصطنعتهم ، وكان منهم أكفاء فى شئون الإدارة والسياسة ، لا يعيب كثيرا منهم إلا طموحهم إلى استعادة مجد الفرس وحكمهم .

على أن الدولة العباسية لم تتخافل من عروبتها فى إبان قوتها ، بل اعتمدت عليها لتتقى بها أولئك الفرس المتطلعين إلى إعادة ملكهم ، فاصطنعت كثيرا من رجل العرب من ربيعة ومضر واليمن ، ولكن بنى العباس لم ينتبهوا إلى ما بين القبائل من بغضاء وفرقها نفوسهم منذ زمن بعيد ، ولعلهم انتبهوا إلى هذه البغضاء ، لكنهم أرتضوها ليستعينوا بفريق على فريق ، ولو أنهم جدوا فى إزالة ما بين القبائل العربية الموالية لهم من خصومة وحزازة لوجدوا فيها ماجأم الأمين ، ودرعهم التى تقيهم هجمات الموالى من فرس ومن ترك .

حقاً إن الفرس كانوا أصحاب نفوذ عظيم فى العصر العباسى الأول ، لكنه لم يطغ على سلطان الخلفاء كما حدث من الفرس ومن الترك فى العصر العباسى الثانى . فقد كان خلفاء بنى العباس فى العصر الأول ما زالوا يعتزون بعروبتهم ويحرصون على سلطتهم ، لهذا لم يتوانوا فى التنكيل بالفرس إذا ما تخوفوهم على الخلافة أو على الخليفة ، فالسفاح قتل وزيره الفارسى أبا سَلَمة الخلال ، والمنصور قتل قائده الفارسى الكبير أبا مسلم الخراسانى ، ثم جاء الرشيد ففتك بالبرامكة ، وجاء المأمون فقتل وزيره الفارسى الفضل بن سهل .

كان الوزراء فى العصر العباسى الأول أكثرهم من الفرس ، وكان القواد من

العرب ومن الفرس ، وكذلك ولاة الأقاليم ، وكان جند المنصور من أربع فرق ثلاث من العرب ورابعة من الفرس[١] .

ومعنى هـذا أن العرب ما زالوا يحتفظون بكثير من نفوذهم ، وأن الحكم لم يصطبغ بالصبغة الفارسية التي لونته في العصر العباسي الثاني ، وإلا ما اشتهر أمثال هؤلاء القواد من العرب : معن بن زائدة الشيباني ، وسعيد بن مسلم الباهلي ، والمهلب بن أبي صُفْرة ، وأبو دُلَف العِجْلي ، ورَوْح بن حاتم بن قَبِيصة ، وثُمامة بن أشْرس .

الوزارة :

كان العرب في الجاهلية وفي العصر الإسلامي يعرفون كلمة وزير ، لـكنهم لم يريدوا بها المعنى الإصطلاحي الذي عرفوه في العصر العباسي . والذي نعرفه اليوم ، بل أرادوا بها النصير والمشير فـكان للنبي وللخلفاء الراشدين ، ولبني أمية أعوان ومستشارون يقومون بأعمال الوزراء ، ولم يطلق على واحد منهم لقب وزير . وهى بهذا المعنى وردت في القرآن الـكريم على لسان موسى عليه السلام في قوله « واجعل لي وزيراً من أهلي ، هارون أخي ، أشدُدْ به أزري ، وأشرِكه في أمري » .

أما في العصر العباسي فعرفوا المعنى السياسي للوزير كما كان الفرس يعرفونه ، إذا أطلقوه على من يقوم مقام الملك أو الخليفة في تصريف شئون الدولة . يقول ابن خلـكان[٢] إن أبا سلمة الخلال أول من وقع عليه اسم الوزير وشهر بالوزارة في دولة بني العباس ، ولم يكن قبله من يعرف بهذا الاسم لا في دولة بني أمية ولا في غيرها .

وقد كان أبو سلمة وزيرا لأبي العباس السفاح وهو أول من أتخذ لنفسه وزيرا من الفرس فلما قتـله أستوزر فارسياً آخر هو خالد البرمـكي ، وما زال خالد وزيره حتى مات السفاح وتولى أبو جعفر المنصور ، فعينه والياً على إقليم فارس ثم للموصل .

---

(١) الطبري ٩/٢٨٢

(٢) وفيات الأعيان ١ــ٢٢٩

وكان للمنصور وزيران أحدهما عربي هو ابن عطية الباهلي ، والآخر فارسي هو أبو أيوب المورياني الخوذي . ثم جاء المهدي فاستوزر يعقوب بن داود .

وأما الرشيد فقد استوزر يحيي بن خالد البرمكي ، وفوض إليه تفويضاً كاملا أن يصرف شئون الدولة قائلا : « قد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنق إليك ، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب ، واستعمل من رأيت ، واعزل من رأيت ، وأمض الأمور على ما ترى[1] » ولم يلبث أن دفع إليه خاتم الخلافة فاجتمعت له الوزارتان ، فصار بهما وبكرمه موئل القاصدين ، وكان أولاده الخمسة وبنوهم رؤساء بالدولة في عهد الرشيد . ثم تنازل يحيى عن الوزارة لابنه جعفر ، ولم يأفل نجم البرامكة إلا حينما أوقع بهم الرشيد سنة ١٨٧ هـ .

ثم أستوز المأمون الفضل والحسن ابنى سهل ، وثابت بن يحيى الرازى .

وكان كل وزير من هؤلاء وغيرهم يحشد في الدواوين من يستطيع من بنى جنسه . وتجلى هذا منذ عهد المنصور ، إذ بدأ الفرس يكثرون في الوظائف ويحلون في مناصب يجب أن يحل فيها العرب ، حتى ليقال إنه أول خليفة استعمل مواليه وغلمانه وصرفهم في مهماته ، وقدمهم على العرب ، وكثر ذلك بعده فزالت رياسة العرب وضاع بأسها ، وذهبت مراتبها[2] ، حتى أن شيخاً أعرابياً أستأذن ليدخل على أبي جعفر المنصور فلم يؤذن له ، على حين أن الخراسانية تدخل وتخرج تتسخر به ، فقال له رجل يعرفه : كيف ترى ما أنت فيه في هذه الدولة ؟

فقال الأعرابي[3] :

أكثر خلق الله مَنْ لا يدْرَى	من أى خلق الله حين يُلْقَى
وحلْقَةٌ تنشر ثم تُطْوَى	وطيلسان يُشْتَرَى فَيُغْلَى
لعبد عبد ، أو لمولى مولى	يا ويح بيت المال ماذا يلقى ؟

---

(١) الوزراء والكتاب للجهشيارى ١٣٤

(٢) الوزراء والكتاب للجهشيارى ١٢٩ — ١٠٧ وتاريخ الخلفاء للسيوطى ١٠٠ ومروج الذهب ٢ — ٤٠١

(٣) الأغانى ١٨ـ١٤٧

كان الوزير ينوب عن الخليفة فى تصريف شئون الدولة كلها دون توجيه منه ، أو ينفذ ما يمليه الخليفة عليه ، ذلك أن الوزارة فى العصر العباسى كانت نوعين : النوع الأول وزارة التنفيذ ، وهى التى يقتصر فيها الوزير على تنفيذ أوامر الخليفة ، فهو إذن وسيط بينه وبين الموظفين والشعب ، والنوع الثانى وزارة التفويض ، وهى التى يعهد فيها الخليفة إلى الوزير بالنظر فى شئون الدولة والتصرف فيها ، بغير رجوع إليه ، وليس للخليفة إلا تولية العهد وعزل من يوليهم الوزير ، وكان يحيى بن خالد البرمكى وزير تفويض للرشيد ، ثم خلفه ابنه جعفر .

وإذ كان منصب الوزارة منقولا عن الفرس اتسم بعدة مظاهر فارسية ، فكان الذى يختار للوزارة يرتدى زياً خاصاً ، ثم يثار بين يدى الخليفة فى حفل رسمى كما كان الفرس يفعلون .

وكان الوزراء الفرس يحاكون سلفهم فى بعض المظاهر التى لا عهد للعرب بها ، فالفضل بن سهل يقعد على كرسى مجنح ، ويحمل فيه عند دخوله على المأمون ، فإذا اقترب من المأمون ووقعت عينه عليه وضع الكرسى ، وترجل الفضل ، وحمل الكرسى حتى يوضع بين يدى المأمون ، ثم يسلم الفضل ويعود إلى كرسيه فيقعد عليه . وهو فى ذلك يذهب مذهب الأكاسرة[1] .

وهو الذى أقنع المأمون بأن يستبدل بالسواد — شعار العباسيين — الخضرة ويكتب إلى عماله أن يجعلوا أعلامهم وملابسهم خضراء ، وقد كانت الخضرة شعار كسرى والمجوس[2] .

وإذا كان خلفاء بنى العباس قد حرصوا على عروبتهم واستندوا إليها فى أول أمرهم فقتل بعضهم وزراءهم من الفرس ، فإن هذا يدل على أمر آخر هو سريان النفوذ الفارسى والخوف من عواقبه .

وحسبنا أن نوجز البواعث التى حملت الرشيد على الفتك بالبرامكة ، لنتبين الدلائل على نفوذهم ، وعلى حنقه من سلطانهم . ونحن نستبعد من هذه البواعث ما زعمه

(١) الوزراء والكتاب ٤٠١

(٢) المرجع السابق ٣٩٦ .

بعضهم من علاقة العباسة بنت المهدى أخت الرشيد بجعفر البرمكي وزواجه بها سراً ، لأنها قصة بينة الاختراع والاختلاق ، ونرى أن أقرب تعليل إلى الصواب هوماذهب إليه ابن خلدون[1] ، فقد فند قصة العباسة ونفاها ، وانتهى إلى أن الفتك بالبرامكة كان نتيجة لأسباب شتى ، من الممكن حصرها فى استئثارهم بالسلطة والنفوذ واستمالة الناس واجتذاب الأشراف ، واغترارهم بما نالوا من ثراء وجاه ، وإسرافهم فى العطايا والهبات ، وتغافلهم أو غفلتهم عما للخليفة من حقوق وسلطان ومظاهر واجب المراعاة .

يقول ابن خلدون : إنما نكب البرامكة ماكان من استبدادهم على الدولة واحتجانهم أموال الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه ، فغلبوه على أمره ، وشاركوه فى سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف فى أمور ملكه ، فعظمت آثارهم ، وبعد صيتهم ، وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم ، واحتازوها من سواهم ، من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم ، يقال إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالدخمسة وعشرون رئيساً من بين صاحب سيف وصاحب قلم زاحموا فيها أهل الدولة ... فتوجه الإيثار من السلطان إليهم ، وعظمت الدالة منهم ، وانبسط الجاه عندهم ، وانصرفت نحوهم الوجوه ، وخضعت لهم الرقاب ، وقصرت عليهم الآمال ، وتخطت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الأمراء ، وصيرت إلى خزائنهم فى سبيل التزلف والاستمالة أموال الجباية ، وأفاضوا العطاء فى رجال الشيعة وعظماء القرابة وطوقوهم المنن ، وكسوا من بيوتات الأشراف المعدم ، وفكوا العانى ، ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم ، وأسنوا الجوائز لعفاتهم ، واستولوا على القرى والضياع ، حتى آسفوا البطانة وأحقدوا الخاصة ، وأغضبوا أهل الولاية ، فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ، ودبت إلى مهادهم الوثير عقارب السعاية .....

وقد رويت أخبارشتى من سرفهم وثرائهم وسعتهم فى العطاء ، منها قول معاصرى خالد البرمكي : لم يكن يرى لجليس خالد بن يحيي البرمكى دار إلا وخالد بناها له ،

(١) المقدمة ٦٢

ولا ضيعة إلا وخالد ابتاعها له ، ولا ولد إلا وخالد ابتاع أمه إن كانت أمة ، أو أدى مهرها إن كانت حرة ، ولا دابة إلا وخالد حمله عليها أما من نتاجه أو من غير نتاجه[١] .

وقال الرشيد وهو يسمع ضجة فى مجلس يحيى بن خالد : ما هذا ؟ فقيل يحيى بن خالد ينظر فى أمور المتظلمين . فقال فعل الله به وفعل يذمه ويسبه — استبد بالأمور دونى ، وأمضاها على غير رأيى ، وعمل بما أحبه دون محبتى . وتكلمت أم جعفر بنحو من كلامه ، وثلبته أكثر مما يثلبه أحد[٢] .

بيوت الاذن :

لم يعرف العرب فى صدر الإسلام والدولة الأموية نظام البيوت الخاصة بالاستئذان على الخلفاء ، وكان بنو أمية يقيمون فى قصورهم ، ويقف الناس على أبوابهم حتى يؤذن لهم أو يصرفوا . فلما تولى بنو العباس ، وبنى المنصور قصره جعل فيه بيوتاً للاذن ، فجرى خلفاؤه على سنته .

السياف :

كان السياف موظفاً فى الدولة ، وهى وظيفة فارسية قديمة ، لم يكن العرب يعرفونها أيام الخلفاء الراشدين أو بنى أمية .

المنجمون :

كذلك جد المنجمون ، وكان لهم شأن فى الدولة العباسية ، ورأى أحياناً فى توجيه السياسة وفى الحروب ، وهم الذين أشاروا على المعتصم بتأجيل فتح عمورية إلى أن ينضج التين والعنب ، لكنه خالفهم ، وانتصر ، فسخر بهم أبو تمام فى قوله[٣] .

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحدُّ بين الجد واللعب

---

(١) الوزراء والكتاب ١٧٣

(٢) الوزراء والكتاب ١٧٨

(٣) الديوان ١ — ٤٠

بيض الصفائح لاسود الصحائف فى ... متونهن جلاء الشك والريب [١]

والعلم فى شهب الأرماح لامعة ... بين الخميسين لاف السبعة الشهب [٢]

أين الرواية أم أين النجوم وما ... صاغوه من زخرف فيها ومن كذب

تخرصا وأحاديثا ملفقة ... ليست بنبع إذا عدت ولا غرب [٣]

ثم يهزأ بتحكمهم قبل ذلك فيقول :

وخوفوا الناس من دهياء مظلمة ... إذا بدا الكوكب الغربى ذوالذنب [٤]

وصيروا الأبرج العليا مرتبة ... ما كان منقلبا أو غير منقلب [٥]

يقضون بالأمر عنها وهى غافلة ... ما دار فى فلك منها وفى قطب

لو بينت قط أمراً قبل موقعه ... لم تخف ما حل بالأوثان والصلب

العريد :

نقل العباسيون عن الفرس نظام البريد ورسل البريد ، وكان رسل البريد عيون الخليفة فى الأقاليم والولايات .

---

(١) بيض الصفائح : المراد السيوف

(٢) شهب الارماح : أسنتها . السبعة الشهب : زحل والمشترى والمريخ والشمس والزهرة وعطارد والقمر . الخميس : الجيش

(٣) التخرص : الكذب . النبع : شجر صلب ينبت فى روس الجبال تتخذ منه القسى . الغرب شجر ينبت على الأنهار ليست له قوة .

(٤) دهياء : داهية . . كانوا قد زعموا أن طلوع ذلك الكوكب فتنة عظيمة وتغير وهلاك

(٥) مرتبة : بكسر التاء أى مدبرة . الأبرج العليا . بروج السماء التى أولها الحمل وآخرها الحوت

الفصل الثالث

أثر الفرس فى التقاليد

حرص الأمويون وولاتهم على الصبغة العربية ، فكان تأثرهم بالفرس والروم إلى الحد الذى لا ينقلهم إلى أن يكونوا أشبه بهم ، فقد أولم الحجاج فى ختان بعض ولده ، فسأل بعض الدهاقين من ولائم الفرس ، فقال له الدهقان : شهدت بعض مرازبة كسرى وقد صنع لأهل فارس صنيعاً ، أحضر فيه صحاف الذهب على أخونة الفضة ، أربعاً على كل واحد ، وتحمله أربع وصائف ، ويجلس عليه أربعة من الناس ، فإذا طعموا منحوا الأربعة بصحافها ووصائفها[1] . فلم يعجب الحجاج هذا النظام الفارسى وقال : يا غلام ، أنحر الجُزُر ، واطعم الناس وهذا يدلنا على أنه أراد أن يولم على طريقة العرب التى ألفها وألفوها ، وأن يبتعد عن هذا السرف الفارسى .

لكن العرب جعلوا يتأثرون التقاليد الفارسية شيئاً بعد شىء ، حتى جاء العصر العباسى ، فعظم تأثرهم ، ونقلوا عن الفرس كثيراً من عاداتهم ووسائل ترفهم ولهوهم ومجونهم .

النيروز والمهرجان :

١ — النيروز كلمة فارسية معناها اليوم الجديد ، وموعده الأيام الستة الأوائل من أول شهر فى سنتهم الشمسية ، وهو يوافق ٢٤ من تشرين الأول ، ويوافق شهر بابه القبطى ، أى يوافق أول الربيع . واليوم السادس من أيام النيروز يسمى النيروز الكبير لأن الأكاسرة كانوا ينصرفون فيه إلى مجالس أنسهم مع خاصتهم .

والنيروز أعظم أعياد الفرس وأجلها ، ويتميز على عيد المهرجان بأنه استقبال السنة ، وافتتاح جباية الخراج ، وزمن تولية العمال واستبدالهم وضرب الدراهم

---

(١) تاريخ ابن خلدون ١/١٤٥

والدنانير ، وتذكية بيوت النيران ، ورش الناس بعضهم بعضا بالماء ، وتقريب القربان ، وإشادة البنيان ، وما أشبه ذلك[١] .

وقد كان لملوك الفرس نظام معين فى النيروز ، يجلس الملك فى اليوم الأول ، فيقابل الناس ويحسن إليهم ، ويجلس فى اليوم الثانى لمن هم أرفع مرتبة وهم الدهاقين وأهل البيوتات ، ويجلس فى اليوم الثالث لأساورته ... ثم يختص ولده وصنائعه باليوم الخامس ، فيصل إلى كل واحد منهم ما يستحقه من رتبة وتكريم . فإذا كان اليوم السادس نَوْرَزَ لنفسه ، ولم يصل إليه إلا أهل أنسه ومن يصلح لخلوته[٢] .

أما المهرجان فهو الأيام الستة الأوائل من أول شهرهم مهرماه ، وهو يوافق أول الخريف ، ويسمى اليوم السادس منه المهرجان الكبير .

فالنيروز إستقبال الربيع ، والمهرجان إستقبال الخريف .

كان ملوك الفرس يأمرون بإخراج ما فى خزائنهم فى النيروز والمهرجان من ملابس فتفرق كلها على بطانة الملك وخاصته ، ثم على بطانة البطانة ، ثم على سائر الناس على مراتبهم[٣] . . . وكانوا يتقبلون الهدايا فى الميدين من طبقات شتى « والسنة فى ذلك أن يهدى الرجل ما يحب من ماله إذا كان فى الطبقة العالية ، فإن كان يحب مسكا أهدى مسكا لا غيره ، وإن كان يحب عنبرا أهدى عنبرا ، وإن كان صاحب بزة أهدى كسوة وثيابا ، وإن كان الرجل من الشجعان والفرسان فالسنة أن يهدى نشاباً ، وإن كان من أصحاب الأموال فالسنة أن يهدى ذهباً أو فضة ، وكان الشاعر يهدى الشعر ، والخطيب الخطبة ، والنديم التحفة والطرفة ... وعلى خاصة نساء الملك وجواريه أن يهدين إليه مايؤثرنه[٤] » .

٢ — تأثر العرب بالفرس فحاكوهم فى الاحتفال بالنيروز والمهرجان ، ويظهر أن ذلك بدأ منذ العصر الأموى ، لأنهم يذكرون أن الحجاج ابن يوسف أول

---

(١) التاج للجاحظ ١٤٦

(٢) الآثار الباقية للبيرونى ٢١٨

(٣) التاج ١٤٩

(٤) التاج ١٤٦

من رسم هدايا النيروز والمهرجان فى الإسلام ، ثم أبطلها عمر بن عبد العزيز إلى أن أعادها أحمد بن يوسف الكاتب فى العصر العباسى الأول .

أما فى العصر العباسى فقد شاع الاحتفال بهذين العيدين ، حتى إن ، الخلفاء كانوا يجلسون فيهما لتقبل التهنئات واستماع مدائح الشعراء . وكان عبد الله بن طاهر يفرق مافى خزائنه من ملابس على خاصته وعلى بطانتهم ثم على سائر الناس ، كما كان يفعل الأكاسرة ، حتى لا يترك فى خزائنه ثوباً واحداً وهذا من أحسن ما يذكر من فضائله[1] .

وصار من الشائع فى قصائد الشعراء التعبير عن الربيع بالنيروز ، قال البحترى فى مدح الهيثم الغَنَوى :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا من الحسن حتى كاد أن يتكلما .
وقد نبه النيروز فى غسق الدجى أوائل ورد كن بالأمس نوماً[2]

وقال عبد الصمد بن بابك يمدح الصاحب بن عباد :

لقد نشر النيروز وشيا على الربا من النَّوْر لم تظفر به كَفُّ راقم
كأن ابن عباد سق المزن نشره فجاء برشاش من الوَبْل ساجم

وقال ابن الرومى فى تهنئته عبيد الله بن عبد الله بيوم المهرجان :

ما رأت مثل مهرجانك عينا أزد شير ولا أنو شروان
مهرجان كأنما صورته كيف شاءت مُخَيِّراتُ الأمانى

ثم جعل يصف الاحتفال والغناء والقيان .

التـرف :

حاكى الخلفاء العباسيون الأكاسرة الفرس فى الترف والسرف ، فكان عرش المهدى يوم بيعته مكللا بأنواع اللؤلؤ والياقوت ، وعلى رأسه قبة من الديباج ،

---

(١) التاج ١٤٩

(٢) ديوان البحترى ٢٣٤

وحوله غلامان ملتحفان بالذهب يحملان مظلتين من الريش مرفوعتين على رمحين مسكورين بعروق الذهب ، يتدلى منهما الياقوت والزبرجد والفيروز، وعلى يمين العرش منبر مزخرف بالجواهر والديباج .

وكان الرشيد ينفق على طعامه كل يوم عشرة آلاف درهم، ويقدم له ثلاثون صنفاً من الطعام .

ولما تزوج زبيدة كانت هباته أوانى من الذهب مملوءة بالفضة وأوانى من الفضة مملوءة بالذهب ونوافج المسك :

وقد كان عرس المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل مظهرا صارخا للسرف والترف ، قالوا إن المأمون أعطاها ليلة زفافها ألف حصاة من الياقوت وأوقد شموع العنبر فى كل واحدة مائة من — وهو رطل ونصف — وبسط لها فرشا كان منسوجا بالذهب مكللا بالدر والياقوت . وكان الوزراء — ولاسيما البرامكة — يتغالون فى الترف ومظاهر النعمة والثراء ، فقد نثر الحسن بن سهل على الطبقة الأولى من حاشية المأمون ليلة زفاف بنته بوران بنادق المسك ملثوثة على الرقاع بالضياع والعقار مسوغة لمن تقع فى يده أو يمتلك ما كتب بها ، وفرق على الطبقة الثانية بدر الدنانير فى كل بدرة عشرة آلاف ، وفرق على الطبقة الثالثة بدر الدراهم كذلك ...[1]

وقد حكوا عن خالد بن يحيى أنه لم يكن له جليس إلا وقد بنى له داره أو اشترى له ضيعه ، أو وهب له أمة أو أدى عنه مهر زوجة أو منحه دابة .[2]

وليس أدل على أن الانطلاق فى ميدان السرف كان من نتائج الحضارة والتأثر بالفرس وغيرهم من العجم ، من أن العرب فى البادية عاشوا وهم يجهلون هذه المظاهر

يدل على ذلك أن ناهض بن ثومة الكلابى — وهو شاعر بدوى كان يحيا فى العصر العباسى ـ تحدث أنه وفد على حلب ، فمر بقرية رأى بها دورا متباينة ،وناسا يقبلون ويدبرون عليهم ثياب تحكى ألوان الزهر ، فقال فى نفسه : هذا أحد العيدين الأضحى أو الفطر ، ثم ثاب إلى ما عزب من عقلة ، ثم أتاه رجل فأخذ بيده ،

---

(١) مقدمة ابن خلدون ١٤٤

(٢) الوزراء والكتاب ١٧٣

وأدخله دارا فوراء ، بها شاب يتدلى شعره على منكبيه ، والناس حوله سماطان فقال في نفسه : هذا الأمير الذى يحكى لنا جلوسه للناس وجلوسهم بين يديه ، فقال : السلام عليك أيها الأمير ، فجذب رجل يده ، وقال اجلس ، فإن هذا ليس بأمير قال : فمن هو ؟ قال له : عروس — فقال ناهض : واثكل أماه ، رب عروس رأيته بالبادية أهون على أهله من أحقر شيء.[1] قال ناهض ثم دخل رجال يحملون هنات مدورات ، وضعوها أمامنا وتحلق القوم عليها حلقا ، ثم جاءوا بخرق بيض ألقوها بين أيدينا فظننتها ثيابا ، وهممت أن أسأل القوم منها خرقة ، أعطمها قميصا ، فلما بسطها القوم بين أيديهم إذا هي تتمزق سريعا ، وإذا هي فيما زعموا صنف من الخبز لا أعرفه ، ثم أتينا بطعام كثير بين حلو وحامض وحار وبارد ، فأكثرت منه وأنا لا أعلم ما في عقبه من التخم والبشم ، ثم أتينا بشراب أحمر فقلت لا حاجة لى فيه ، فإنى أخاف أن يقتلني .. ثم هجم علينا شياطين أربعة ، أحدهم قد علق في عنقه جبة فارسية مسنجة الطرفين دقيقة الوسط مشبوحة بالخيوط شبحا منكراً ثم بدر الثاني فاستخرج من كمه هنة سوداء وضعها في فمه وحرك أصابعه على أحجرة فيها فأخرج منها أصواتا عجيبة ، ثم بدأ ثالث يصفق بمرآتين معه ، فخالط بصوته مايفعله الرجلان ، ثم جعل الرابع يقفز كأنه يثب على ظهور العقارب ، ورأيت القوم يحذفونه بالدراهم ..

ثم جاء شاب بخشبة عيناها في صدرها بها خيوط أربعة ، استخرج من خلالها عودا فوضعه خلف أذنه ، ثم عرك آذانها وحركها بخشبة في يده ، فنطقت وإذا هي أحسن قينة رأيتها ، وغنى عليها فأطربني حتى استخفني من مجلسي ، فوثبت فجلست بين يديه ، وقلت : بأبي أنت وأمى ما هذه الدابة فلست أعرفها للاعراب وما أراها خلقت إلا قريبا فقال : هذا البربط . فقلت : بأبي أنت وأمى ، فما هذا الخيط الأسفل ؟ قال : الزِّير . قلت : فما الذى يليه ؟ قال : المَثْنَى . قلت : فالثالث ؟ قال : المثلث . قلت : فالاعلى ؟ قال : البَمّ . فقلت : آمنت بالله أولا وبك ثانيا وبالبربط ثالثا وبالبم رابعا .[2]

(١) أحقر شيء عوض عن التعبير الأصلى الذى آثرت إغفاله .
(٢) الأغاني ١٢ — ٣٦

الجوارى :

شرقت القصور بالجوارى من أجناس شتى ، وكان العنصر الفارسى أكثرها عددا ونسات هؤلاء الجوارى العرب ، وكثر نساهن ، حتى أن أكثر خلفاء بنى العباس من أمهات غير عربيات ، وتناسى العرب فى العصر العباسى ما جرى عليه بنو أمية من زراية بأبناء الأماء .

ولا شك أن نظام التسرى كان عظيم الآثار فى الحياة الأسرية وفى الحياة العامة وقد سبق أن الفرس عاضدوا المأمون على أخيه الأمين لعدة بواعث ، منهـا أن أمه فارسية .

الغناء :

قلنا أن العرب عرفوا فى جاهليتهم الغناء الفارسى وبعض آلات الموسيقى ، لـكن هذه المعرفة كانت سطحية محدودة .

أما فى العصر العباسى فقد تنوعت المعرفة واتسعت وعمقت ، فازدهر الغناء ، وتطور وارتقت الموسيقى ، وتنوعت الآلات وتزعم المغنين فى أول الدولة العباسية فارسيان هما ابراهيم الموصلى وابنه اسحاق ، وكانا يجمعان إلى غنائهما المطرب الشعر والظرف وتعليم الجوارى الغناء ، واقتدى بهما من بعدهما من المغنين .

وكان ملوك الفرس يحتجبون عن الندماء فى مجالس اللهو ، فحاكاهم خلفاء بنى العباس ، فـكان أبو العباس السفاح يظهر للندماء فى أول خلافته ، ثم احتجب منهم ، وكان يطرب ويصيح خلف الستارة ، ويقول للمغنى : أحسنت والله ، أعد هذا الصوت .

كذلك كان أبو جعفر المنصور لا يظهر للندماء ، بل يجلس وراء الستارة ويسمع الغناء .

وكان للمغنين شأن رفيع فى الدولة ، لأن الخلفاء والأمراء مشغوفون بالغناء ولأنهم يحاكون الأكاسرة فى تقريبهم .

وقد جعلهم الرشيد طبقات كما جعلهم أردشير بن بابك وأنو شروان ، فـكان

ابراهيم الموصلي وإسماعيل بن جامع وزلزل في الطبقة الأولى ، وكان سليم بن سلام الكوفي وعمرو الغزال في الطبقة الثانية ، وكان العازفون في الطبقة الثالثة .

وقد كثرت الجواري المغنيات بالكوفة وبغداد وغيرهما ، وأقمن بيوتهن لرواد العبث والمجون ، وتوافد عليهن شبان اللهو والخلاعة ، وليستمتعوا باللذات مطبقين الآراء الجديدة التي نشرها ابن المقفع وأمثاله وهي في جملتها تدعو إلى التحلل من الدين ، والجرأة على حرماته ، وتصور الاستمتاع بالملذات المحرمة صورة مباحة لا اثم فيها .

وغلا بعض الأثرياء في تقدير أثمانهن ، حتى إن جعفر بن سليمان اشترى جارية بمائة ألف درهم ، وصالح بن علي اشترى أخرى بتسعين ألفا[1] .

وما من شك في أن الغناء والموسيقى والخمر والقيان كان أثرها عميقا في الأدب وفي أخيلة الشعراء ، وحسبنا أن كثيراً من الشعراء أغرموا بالمغنيات أو تغزلوا بهن ، كما قال ابن الرومي في وحيد المغنية[2] .

يا خليلي تيمتني وحيد ففؤادي بها مُعنًّى عميدُ
غادة زانها من الغصن قد ومن الظبي مقلتان وجيد
وزهاها من فرعها ومن الخد ين ذاك السواد والتوريد
فهي برد بخدها وسلام وهي للعاشقين جهد جهيد
ما لما تصطليه من وجنتيها غَيْرَ تَرْشاف ريقها تبريد
وغرير بحسنها قال : صفها قلت : أمران : بين وشديد
يسهل القول أنها أحسن الأشياء طرا ، ويصعب التحديد
تتجلى للناظرين إليها فشقي بحسنها وسعيد
ظبيبة تسكن القلوب ورعا ها ، وقربة لها تفريد
تتغنى كأنها لا تغني من سكون الأوصال وهي تجيد
طاب فوها وما ترجع فيه كل شيء لها بذاك شهيد

(١) الأغاني ١٣ـ١٢٨

(٢) الديوان ٩٨

في هوى مثلها يخف حليم راجح حلمه ، ويغوى رشيد

***

وحسان عرضن لي قلت : مهلا عن وحيد ، فإنما التوحيد

حسنها في العيون حسن جديد فلها في القلوب حب جديد

الخمر :

اتسعت الحضارة ، واستفاض الثراء ، واشتدت مخالطة العرب للفرس وغيرهم وكانت الخمر بالعراق خاصة كثيرة متنوعة ، وكانت حاناتها متعددة ، فاستهتر بها كثير من الناس ، وكلف بها بعض الشعراء كأبي نواس ، حتى قال فيها آلاف الأبيات ، وحتى افتتح بالخمريات كثيراً من قصائده بدلا من الغزل وبكاء الأطلال ، وستتبين هذا من الفصل الذي عقدناه لتأثير الفرس في الأدب العربي .

الغلمان والمخنثون :

كان الفرس يستكثرون من الغلمان في قصورهم ودورهم ، ويستخدمونهم في أغراض شتى ، ويزينونهم بما تزين به الإناث ، فحاكاهم العرب في ذلك ومن الغلمان طائفة مخنثة انتشروا في الكوفة أول الأمر منذ امتلأت بجند خراسان الذين ناصروا بني العباس ، إذ كان الجند قد استقدموا معهم المخنثين لاستخدامهم ، جريا على تقليد فارسي قديم لأن كل ما نوى كان يصطحب غلاما أمرد ، ويستخدمه في شئونه . وكان للمخنثين بالكوفة مظهران ينافيان الأخلاق العربية : أحدهما التشبه بالنساء في الملبس والخضاب وتزجيج الحواجب وإطالة الشعر والتحلي بالذهب ، والآخر تغنيهم بالشعر الفاجر الماجن في غير تحرج أو استحياء من الناس[1] .

الأزياء :

كان من النظم الفارسية أن يلبس أهل كل طبقة لبسة خاصة بهم لا يلبسها غيرهم فإذا وصل الرجل إلى الملك عرف من زيه صناعته وطبقته ، وكان الكتاب يلبسون زيهم المقصور عليهم[2] .

---

(١) الأغاني ٤ــ١٦٩

(٢) الوزراء والكتاب ٣٠٤

وفى العصر العباسى تعددت الأزياء مشاكلة للوظائف والطبقات ، كما كان الفرس يفعلون ، وتزيا بعضهم بملابس فارسية .

لبس الخلفاء العمائم على القلانس ، ولبس القضاة القلانس الكبار ، ونوع الكبراء العمامة ، وجعلوا لها أحجاماً تطابق مكانتهم الاجتماعية كما كان الفرس يفعلون ، فللخلفاء عمة والفقهاء عمة ، وللأعراب عمة ، وللبائنين عمة ، وللقضاء زى ، وللشرطة زى ، ولكل طبقة من أصحاب السلطان زى[١] .

وقيل إن المنصور كان أول من لبس القلنسوة وتدل بعض النقود التى ضربت فى عهد المتوكل على أنه كان يرتدى الملابس الفارسية .

(١) البيان والتبيين ٣ ـ ٩٥

الفصل الرابع

اثر الفرس فى الزندقة

١ - دخل الفرس فى دين الله وحذقوا اللغة العربية والعلوم الإسلامية وتفوقوا فيها ، لكن آثار دينهم القديم وعاداتهم لم تزل عالقة بنفوسهم ، فأثرت أحيانا كثيرة فى معتقدهم وعاداتهم الجديدة دون قصد منهم ، وبقيت آثار لغتهم وآدابهم كامنة فى صدورهم ، أو مدونة فى بعض كتبهم ، أو متداولة فيما بينهم فى خلواتهم ، فلما قامت قائمتهم ، وتألق نجمهم ظهر ما كان خافيا ، وحاولوا إعادة مجدهم وإحياء علومهم وآدابهم[1] .

ذلك أن كبارهم ومثقفيهم لم يقنعوا بانتقال الملك من بنى مروان إلى بنى العباس ، ولم يكفهم ما نالوا من نفوذ سياسى فى الدولة الجديدة ، فطمعوا فى أن يكون لهم ملك فارسى فى مظهره وفى حقيقته ، ملك يستردون فيه سلطانهم ولغتهم ودينهم ، وكانت وسائلهم إلى تحقيق آمالهم تعتمد على الأقلام تارة وعلى الألسن تارة وعلى الثورات والحروب تارة ثالثة .

من هذه الوسائل محاولتهم إضعاف الإسلام بنشر الزندقة المستمدة من ديانات الفرس القديمة زارشتية ومانوية ومزدكية .

وأغلب الظن أن المانوية كانت أكثرها تأثيرا فى عقول بعض الناس وقلوبهم فى العصر العباسى ، وقد سبق فى التعريف بالمانوية أنهم دعوا إلى الشك فى الدين والتوانى فى العمل والامتناع عن الزواج والنسل ، لأن العالم شر ما دام الظلام ممتزجا بالنور ، فيجب أن يفنى هذا العالم ، ليعود النور إلى صفائه ، ومن تعاليمهم الكف عن ذبح الحيوان حماية له من الألم ، وهم جبرية يدينون بأن أفعال البشر صادرة من إله الخير أو من اله الشر أو من النور أو الظلمة[2] .

---

(١) قصة الأدب الفارسى ١٠١ حامد عبد القادر

(٢) الفهرست ٤٧٢ والحيوان ٤٤١/٤

وإذا كان بهرام بن هرمز قد قتل ماني وصلبه في القرن الرابع الميلادي وتعقب أتباعه بالقتل ، فإن بعضهم فروا إلى بلاد الترك ، وما زالوا هناك إلى أن فتح العرب فارس ، فعادوا إلى إيران ، وظهروا في عهد الدولة الأموية بالعراق وبالكوفة خاصة، يدل على هذا أن والي الكوفة خالداً القسري (١٠٥ - ١٢٠ هـ) كان يتعقب المانوية والزنادقة والمجان ، حتى إنه حرم الغناء ، لأن مجالسه كانت مباءة للفسوق ، ثم أباحه بعد أن اشترط ألا يحضره سفيه أو مريب[١] .

ثم تكاثروا في العصر العباسي بأماكن شتى ، فكان في بغداد وحدها حوالي ثلاثمائة من المانوية في عصر ابن النديم (القرن الرابع) وجعلوا ينشرون مذهبهم ويصوبون إلى الإسلام سهامهم ، لكن خلفاء بني العباس جدوا في تعقبهم وجدوا في التنكيل بهم ، وشجعوا العلماء على مجادلتهم والرد عليهم ، كالمنصور والمهدي والهادي والرشيد والمأمون والمعتصم وكانوا لا يترددون في الفتك بمن تثبت إدانته منهم .

ولقد استحدث الخليفة المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ) منصباً جديداً لمطاردتهم هو منصب (صاحب الزنادقة[٢]) ولم ينس أن يوصي ابنه الهادي بقوله : يا بني إن صار لك الأمر فتجرد لهذه العصابة - يعني أصحاب ماني - فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن ، كاجتناب الفواحش ، والزهد في الدنيا والعمل للآخرة ، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ، ومس الماء الطهور ، وترك قتل الهوام تحرجا وتحوبا ، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور ، فارفع فيها الخشب ، وجرد فيها السيف ، وتقرب بأمرها إلى الله لا شريك له » .

فلما تولى موسى الهادي ومضت من أيامه عشرة أشهر قال : أما والله لئن عشت

---

(١) الأغاني ٢ - ١١٩ .

(٢) الطبري ١٠ - ١٠

لأقتلن هذه الفرقة كلها حتى لا أترك منها عينا تطرف[1] . لكنه مات بعد شهرين من قوله هذا فلم يتكل بالمانوية كما أراد .

روى أن أحد المانوية وهو يزدان بن باذان حج ، فنظر المسلمين يهرولون فى الطواف فقال : ما أشبههم إلا ببقر تدرس فى البيدر — الجرن — فقال العلاء بن الحداد للخليفة الهادى :

أيا أمين الله فى خلقه ووارث الكعبة والمنبر
ماذا ترى فى رجل كافر يشبه الكعبة بالبيدر
ويجعل الناس إذا ما سعوا حمراً تدوس البُرَّ والدَّوْسر[2]

فقتله الهادى وصلبه سنة ١٦٩ .

وكان المأمون يمتحنهم بأن يظهرلهم صورة مانى ويأمرهم أن يتفلوا عليهم ويبرأوا منه ، فمن أبى قتله[3] .

وفى أيام الخليفة جعفر المقتدر بالله (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) لحق المانوية بخراسان خوفا على أنفسهم ، ومن بقى منهم بالعراق ستر أمره .

٢ — أما كلمة زندقة فقد اختلف كثير من الباحثين فى أصلها وفى دلالتها الأولى ، ولعل أقرب الآراء إلى الصواب أنه كان بين طبقات المانوية طبقة تسمى طبقة السماعين ، وهم الأحرار الذين لم يلتزموا تعاليم المانوية القاسية من زهد وتقشف ورهبنة ، وطبقة تسمى طبقة الصديقين — المخلصين المؤمنين — وهم الذين يلتزمون تعاليم المانوية ، ويؤثرون الزهادة والصيام والتغلب على الشهوات ويتركون اللحم والخمر والزواج ، وكلمة (صديق) عربيه تستعمل فى العبرية بلفظها ومعناها ، وهى بالآرامية والسريانية زدبق ، ومن الثابت ن الفارسية الفهلوية تأثرت بالآرامية ، وحرفوها بعض التحريف فنطقوها زنديق . ثم نقل العرب الكلمة عن الفرس وكسروا الزاى لتنسجم مع كسرة الدال .

(١) الطبرى ٤٢/١٠
(٢) الدوسر : مثل الحنطة .
(٣) مروج الذهب ٢٣٢/٣ .

كانت كلمة زنديق تطلق أول الأمر على المؤمن المخلص من أتباع مانى ، لكن الزراد شتيين نظروا إلى المانوية على أنهم ملاحدة خوارج على الزرادشتية ، فأطلقوا الكلمة على كل الملاحدة ، وهذا هو المعنى الذى ما زال يفهم من الكلمة فى العصور الاسلامية ، كالذى روى عن أبى يوسف : ثلاثة لا يسلمون من ثلاثة : من طلب النجوم لم يسلم من الزندقة ، ومن طلب الكيمياء لم يسلم من الفقر ، ومن طلب غرائب الحديث لم يسلم من الكذب[1] .

٣ — ولقد ظهرت الزندقة فى العصر العباسى فى مظهرين : أحدهما الزندقة فى العقيدة والآخر الزندقة فى المظهر والسلوك .

الزندقة العقيدية :

أما الزنادقة الحقيقيون فهم الذين كانوا يدينون باله النور واله الظلام ، متأثرين بالمانوية خاصة وبالزراد شتية والمزدكية عامة .

وكانوا ينشرون عقيدتهم فى أول الأمر سراً ، ثم جعلوا يذيعونها جهراً فى كتب يترجمونها ، وكتب يؤلفونها ، وآراء يزجونها فى الشعر العربى الذى يروى ، وأحاديث يفترونها على رسول الله .

وفى أوقات الحرج كانوا جميعاً يعتصمون بالتقية، فيتظاهرون بالإسلام أو النصرانية أو المجوسية ليسلموا من العقاب .

أما فى فترات التسامح أو إخفاء أمرهم على الدولة وإطمئنانهم على أنفسهم فإنهم كانوا يترجمون كتبا فى الزندقة من الفارسية إلى العربية كما فعل ابن المقفع وأبان اللاحق ، أو يجهرون بعقائدهم ، ويعملون فرادى وجماعات مثل بشار وابن المقفع وعبد الكريم ابن أبى العوجاء وابن مناذر وصالح بن عبد القدوس وحماد الراوية وحماد عجرد وحماد بن الزبرقان ويحيى بن زياد ومطيع بن إياس .

من هؤلاء المترجمين لكتب الزندقة عبد الله بن المقفع وأبان اللاحقى ، وترجم الأول

---

(١) قصة الأدب الفارسى ٥٩ وفجر الإسلام ١٢٧ والفهرست ٤٧٩ .

A Literary Bistory of Persia. Hrowne. p. 1و 9 و

كتاب مزدك وغيره من كتب المانوية ، ويقال إن زندقته كانت سبب قتله ، قال له والى البصرة . والله يا ابن الزنديقة لاحرقنك بنار الدنيا قبل نار الآخرة[١] ، وقال الخليفة : ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع[٢] .

وترجم الثانى عدة كتب منها كتاب مزدك وكتابا من بوذا .

ومن الذين جهروا بعقيدتهم فى الشعر بشار بن برد ، فقد روى أنه كان على مذهب المجوس ، وهذا هو السبب فى تفضيله النار على التراب ، وتفضيله ابليس على آدم فى قوله :

الأرض سافلة سوداء مظلمة والنار معبودة مذ كانت النار[٣]

وقوله :

إبليس أفضل من أبيكم آدم فتبصروا يا معشر الفجار
النار عنصره وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار

ورد عليه صفوان الأنصارى بقصيدة مطلعها :

زعمت بأن النار أكرم عنصرا وفى الأرض تحيا بالحجارة والزند[٤]

وترجح أن تقيتهم كانت أحيانا تخفى حقيقة بعضهم على بعض ، يدل على هذا قول أبى نواس : كنت أتوهم أن حماد عجرد إنما يرمى بالزندقة لمجونه فى شعره ، حتى حبست معه فى حبس الزنادقة ، فإذا هو إمام من أئمتهم ، وإذا له شعر يقرأونه فى صلاتهم[٥] . ويدل عليه أن بشارا هجا حماد عجرد بقوله :

يا بن نُهْبَى رأسٌ علىَّ ثقيلُ واحتمال الرأسين أمرٌ جليل
فادع غيرى إلى عبادة ربين فإنى بواحد مشغول

فقال حماد . ما يغيظنى من بشار إلا مجاهله بالزندقة ، يوهم الناس انه يظن أن

---

(١) الوزراء والكتاب ١٧٠
(٢) وفيات الأعيان ١٨٧
(٣) الأغانى ٣ — ٢٠ والبيان والتبيين ١ — ١٦
(٤) البيان والتبيين ١—٢٧ — ٣٥ .
(٥) الأغانى ١٣—٧٤

الزنادقة تعبد رأسا ، ليظن الجهلة أنه لا يعرف الزندقة ، لأن العامة تقول مثل ذلك ، وهو لا حقيقة له ، وبشار أعلم بالزندقة من مانى[1] ويظهر أن الشعراء الزنادقة أحسوا بحاجتهم إلى الاتحاد والتآخى لأن العقيدة الشاذة تجمعهم ، ولأن فى تآخيهم نوعا من الأنس والاطمئنان ، فكانوا يجتمعون على الشراب للمنادمة وقرض الشعر ، ويكادون لا يفترقون ، وكانوا يتهاجون جادين وهازلين ، ويطرب بعضهم لهجاء بعض ، وأحيانا يتقاسمون مالهم ، فلا يستأثر أحدهم على صاحبه بمال ، هكذا كان يفعل مطيع بن إياس ويحيى بن زياد الحارثى وابن المقفع ووالبة بن الحباب[2] .

وكان حديثهم لا يخلو من مجون وخلاعة وتجريح للاعراض ، مرمطيع بن إياس بيحيى بن زياد وحماد الراوية وهما يتحادثان فقال لهما : فيم أنتما قالا : فى قذف المحصنات قال : وهل فى الأرض محصنة تقذفانها ؟ :

على أنه كان من الزنادقة من أسلم فخلف دينه القديم وراءه ، وكان منهم من تاب وأناب وصح دينه وتقاه ، ويمثل النوع الأول عبد الله بن المقفع ، إذ أسلم فى أواخر حياته ، وكان إلى ليلة إسلامه حريصا على أن يبيت ليلة على دين ، ذلك أنه قضى حياته إلا بضع سنوات على دين آبائه المجوس ، فلما أعتزم على الإسلام قال له عيسى ابن على عم الخليفة المنصور : ليكن إسلامك فى مجتمع من القواد ووجوه الناس ، فاحضر غداً ، وفى عشية اليوم نفسه حضر طعام عيسى ، فجلس يأكل ويزمزم[3] على عادة المجوس فقال له عيسى أتزمزم وأنت تعتزم الإسلام فى الغد ، فقال أكره أن أبيت على غير دين . وما من شك فى أنه قبل أن يسلم كان مجوسيا وكان يبث المجوسية فيما يترجم ويؤلف من كتب ، لكنه بعد إسلامه لم يعرف منه شىء من هذا القبيل . فلعل التهمة جائرة أريد بها التنكيل به لأن لها سندا من ماضيه الذى انفصل منه ، ومن شأن التهم ألا تفرق بين ماض وحاضر وألا تتبين أو تتحرى .

ويمثل النوع الثانى : أبو العتاهية ، فقد كان فى حياته الأولى زنديق العقيدة ، ثم

---

(١) الأغانى ١٣ـ٧٦

(٢) الأغانى ١٢ـ٧٧

(٣) الزمزمة : صوت يعمله المجوس عند تناول الطعام أو حين الاغتسال ، لا يستعملون فيه الشفة ولا اللسان ، وإنما يديرونه فى حلوقهم فيفهم بعضهم عن بعض.

ندم على مافرط منه ، وصار من أعلام الداعين إلى التقوى والزهد والخوف من الله ، لكن رواسب من مذهبه القديم مازالت تطفو على تعبيره ، كقوله :

الخير والشر مزداد ومنتقص   فالخير منتقص والشر مزداد
فالخير ليس بمولود له ولد   لكن له من بنات الشر أولاد

ومعنى هذا أن العالم كله شر ، لأن الخير دائما فى نقص ولا يلد خيرا على حين أن الشر دائما فى نماء ، لأنه يلد شرا ، ثم إن الخير له من بنات الشر أولاد ، وهذه فكرة مانوية .

وقال :

الخير والشر عادات وأهواء   وقد يكون من الاحباب أعداء
كل له سعيه والسعى مختلف   وكل نفس لها فى سعيها شاء
لم تقتحم بى دواعى النفس معصية   إلا وبينى وبين النور ظلماء

وهذا صريح فى أن أفعال الخير صادرة من النور وافعال الشر صادرة من الظلمة .

ويبدو أن أبا العلاء المعرى — على أنه لم يتزندق — متأثر فى بعض آرائه بالمانوية — وفيها عناصر بوذية كما تقدم — كأخذه نفسه بالزهد والعزوبة ، ودعوته إلى ترك الزواج والتناسل وامتناعه من أكل الحيوان وما ينتج منه ونظرته إلى العالم على أنه شر يجب الخلاص منه ، من هذا قوله إن العالم مجبول على الأذى والشر :

وفائدة النوم الخروج بأهله   من عالم هو بالأذى مجبول

وقوله ليت الناس لم يخلقوا :

خير لآدم والخلق الذى خلقوا   من ظهره أن يكونوا قبل ما خلقوا

وسخطه على الحياة وتحقيرها فى قوله :

أصاح هى الدنيا تشابه ميتة   ونحن حواليها الكلاب النوابح
فمن ظل منها آكلا فهو خاسر   ومن راح عنها ساغبا فهو رابح

ونصحه بترك الزواج والنسل :

نصحتك لا تنكح فإن خفت مأثما فأعْزِبْ ولاتَنْسُلْ فذلك أحزم

ونهيه من أكل السمك واللحم والبيض والطير وعسل النحل وشرب اللبن لأن ذبح الحيوان ظلم ، واغتصاب نتاجة ظلم :

لا أفجع الأم فى الرضيع ولا أشرك هذا الغرير فى اللبن

واعتقاده الجبر فى قوله :

مابإختيارى ميلادى ولا هرمى ولا حياتى ، فهل لى بعد تخيير

الزندقة الشكاكية :

وكان من أثر الزنادقة أن كثر المجان والخلفاء ومن لا يرعون حرمات الدين وإن لم يتزندقوا ، وأطلق عليهم الزنادقة ، كابراهيم بن سَيّار ، فإنه كان يرمى بالزندقة ، ولم يعرف عنه قول فى الدين ، وإنما رمى بها لخلاعته ومجونه ، وكآدم حفيد عمر بن عبد العزيز ، كان ماجناسكيرا ، يروى عنه قوله :

اسقنى واسق غُصُبْنا لاتبع بالنقـــد دينا

اسقنيها مُزّة الطعـــم تريك الشين زينا

فضربه المهدى ثلاثمائة سوط على أن يقر بزندقته فقال : والله ماأشركت بالله طرفة عين ، ومتى رأيت قرشيا تزندق ؟ لكنه طرب غلبنى ، وشعر طفح على قلبى ، وأنا فتى من قريش ، أشرب النبيذ وأقول ماقلت على سبيل المجون ، ثم هجر الشرب والمجون[1]

ومن هؤلاء أبو نواس ، وله فى الجرأة على الدين شهرة وضروب كقوله :

بكرت علىّ تلومنى فأجبتهـا أنى لأعـرف مذهب الأبرار

فدعى الملام فقد أطعت غوايتى وصرفت معرفتى إلى الانكار

ورأيت اتيانى اللذاذة والهوى وتعجُّلا من طيب هذى الدار

أحرى وأحزم من تنظر آجل علمى به رَجْمٌ من الاخبار

(١) الأغانى ١٤ — ١٠

ماجاءنا أحـــد يخـــبر أنه في جنـــة مَنْ مات أوفى النـــار

كذلك من آثارها ان أخذ بعض الناس من التظاهر بهذه الخلاعة وسيلة لوصمهم بالظرف ، وأن لم يكونوا من الزندقة الدينية فى شيء ، كمحمد بن زياد ، فقد كان يتظاهر بالزندقة تظرفا ، فقال فيه الشاعر[1]

يابن زياد يا أبا جعفر أظهرت دينا غـير ماتُخْفِي

مُزَنْدَق الظاهر باللفظ في باطـن إســلام فتى عـف

لست بزنديق ولكنما أردت أن توسم بالظرف

٤ — على أن المجون لم يكن طابع العراق ، والزندقة لم تكن لتقرب من أن تكون مرضا شبه عام وإنما كان المجون محدودا فى دائرة خاصة ، وكانت الزندقة العقيدية سمة أحاد وبضع عشرات من الناس ، أكثرهم من نسل الفرس ، ولولا قلة عدد المجان والزنادقة ما سجلت الكتب أسماءهم وأحداثهم ، فمن الخطأ أن نصم العراق فى العصر العباسى بإن المجون طابعه أو بأن الزندقة شعاره .

وكيف نغفل عن جمهرة الشعب ، وهم مؤمنون حراص على دينهم وهل من الانصاف أن نتناسى تعقب الدولة أيام وتقتيلها من تثبت زندقته ؟ ثم كيف نتغاضى من جمهرة العلماء وهم أصحاب جد وورع سواء منهم علماء الدين أو علماء اللغة والادب .

وهل من المعقول أن نتناسى المعتزلة وهم الذين وقفوا للزنادقة والملاحدة بالمرصاد ، يفسدون عليهم تدبيرهم ، ويردون إليهم أضاليلهم ، ويدفعون عن الاسلام بأقلامهم والسنتهم ؟ ولهم مؤلفات شتى فى أبطال ما كانت ترجف به الجهمية والرافضة والثنوية والدهرية ، وطالما ناظروا الزنادقة وأبطلوا دعاواهم ، كما يحدث التاريخ عن واصل بن عطاء ، فيروى عمر الباهلى أنه أطلع على الجزء الأول من كتاب (الالف مسألة) الذى الفه واصل للرد على المانوية[2] ، وتقول زوجة واصل أنه كان إذا جن الليل صف قدميه للصلاة وأمامه لوح ودواة ، فإذا مرت آية فيها حجة على مخالف

(١) الأغانى ١٧ـ١٥

(١) المنية والأمل للمرتضى ٢٠

جلس فكتبها ثم عاد إلى الصلاة[١] ، وكان أبو الهذيل العلاف قد ألف ستين كتابا في الرد على الزنادقة[٢] . كذلك حمل عليهم الجاحظ وناقشهم وفند مزاعمهم في كثير من كتبه ورسائله . ولم يكتف المتدينون من العلماء بالمناقشة والرد وإبطال أراجيف الزنادقة ، بل حرصوا على قتلهم فهذا واصل بن عطاء يغرى بقتل بشار في قوله : أما لهذا الأعمى الملحد الشنف المكنى بأبي معاذ من يقتله ؟ أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية لدسست إليه من يبعج بطنه في جوف منزله[٣] .

كذلك عرف العصر العباسي كثيرا من المتصوفة ، وكان التصوف فيه شأن عظيم والمتصوفة أبعد الناس عن المجون وعن الزندقة .

على أن العراق وبخاصة بغداد والكوفة والبصرة كانت عامرة بالأحناف والحنابلة وهم تقاة حماة للدين ، وكان الحنابلة يتشددون في مقاومتهم للمنكر ، وينكلون بالخارجين على الدين ، وليس من الحق أن نصف عصرا ما بالجد المطلق ، ولا أن نعم عصرا ما باللهو المطلق ، ولا من الحق أن نصور مجتمعا ما بصبغة نفرمنه ، ولا هذا تعميم لايصح أن يتجاوز نطاق التخصيص ، وهؤلاء النفر الذين اشتهروا في العراق بالزندقة عقيدية وشكلية ماهم إلا قلة في مجتمع كبير ، قلة منحرفة في كثرة لاتشا كلهم في الدين والاخلاق والنزعات .

وهل من الصواب أن نصف مجتمعنا المصرى المعاصر بالمجون والخلاعة لأن نفراً من الناس يشربون الخمر ويلعبون الميسر ، ويخادنون ويراقصون ويرتكبون ما يأباه الدين ؟ .

كذلك من الظلم للمجتمع العراقي في العصر العباسي أن نصورة مجتمعا منحلا ، إباحيا مستهينا بالدين ، حتى في بغداد نفسها ، كما صوره الدكتور طه حسين في كتابه حديث الأربعاء .

الحق أن العصر العباسي كان ذا ألوان ونزعات شتى ، وفي بغداد نفسها كان الالحاد والمجون والزندقة أنصلها لونا وأقلها عددا ، ولكن شذوذها كان السبب في شهرتها ومعرفة أصحابها ، لأنها خروج على المألوف ، ومصادمة للمجتمع ومن شأن الشاذ أن يذيع ويشيع .

---

(١) المنية والأمل ٢٥ (٢) البيان والتبيين ١ـ١٦

الفصل الخامس

أثر الفرس فى الشعوبية

تمهيد :

أقبل الفرس على اعتناق الإسلام ، وجعل إقبالهم يتزايد عاما بعد عام ، حتى جاء العصر الأموى وأكثرهم مسلمون . وكانوا يعيشون مع العرب ويخاطبونهم ويرتبطون بهم برابطة الولاء[1] ، وكان عددهم كبيراً منذ القرن الأول للهجرة يدل على هذا أن الموالى بالكوفة كانوا أكثر عدداً من العرب ، وكان أكثرهم من الفرس الذين قدموا إلى الكوفة أسرى حرب ودخلوا فى الإسلام ، ثم أعتقهم مالكوهم العرب ، فكانوا موالى لهم ، ويدل على هذا أن عدد القتلى فى موقعة الحرة من الموالى — فرس وروم وغيرهم — بلغ ثلاثة آلاف وخمسمائة ، على حين كان قتلى الأنصار نحو ألف وخمسمائة ، وقتلى قريش كذلك[2] .

هؤلاء الموالى وبخاصة الفرس حنقوا على العرب عامة وعلى بنى أمية خاصة ، أما حنقهم على العرب فراجع إلى أن العرب قوضوا دولتهم ، واحتلوا بلادهم ، وجعلوهم أتباعاً لهم ، ثم استعلوا عليهم .

وكانت أبرز ضروب الاستعلاء واضحة فى أعمال بعض الحكام والساسة ، وبعض العرب الذين ما زالوا متسمين بطابع الجاهلية .

---

(١) قد يكون الولاء نتيجة للعتق فينتسب إلى سيده الذى أعتقه أو إلى قبيلته ، وقد يكون نتيجة لإسلام أعجمى على يد عربى فعاهده على أن يكون مولى له ، وقد يكون ثمرة لإسلام الأعجمى مطلقا سواء أكان عبدا لعربى أم لا وسواء أأسلم على يد عربى أم لا ، لهذا سمى الأعاجم بالموالى ، لأن العرب فتحوا بلادهم عنوة وكان لهم استرقاقهم ، فاذا تركوهم أحراراً فكأنهم عتقوهم ، فالموالى إذن هم المعتقون .

(٢) أدب السياسة فى العصر الأموى ٤٣٦

وقد تعددت مظاهر هذا الاستعلاء ، فكان منها ترفع العرب من تزويج بناتهم الذين أسلموا من فرس وروم ، خطب أحد الموالى بنتاً من أعراب بنى سُلَيْم وتزوجها فنضب محمد بن بشير الخارجى ، ورأى أن هذا عار لحق بالعرب فركب إلى والى المدينة إبراهيم بن هشام بن إسماعيل ، وشكا إليه ، فأرسل الوالى إلى الزوج ، وفرق بينه وبين زوجته ، ولم يكتف بهذا ، بل ضربه مائة سوط ، وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه ، وطابت نفس محمد بن بشير بهذا العقاب فقال[1] :

قضيتَ بسنة وحكمت عدلا ولم تَرِث الحكومة من بعيد

وفى المائتين للمولى نَكالٌ وفى سلب الحواجب والخدود

إذا كافأتَهم ببنات كسرى فهل يجد الموالى من مزيد ؟

فأى الحق أنصف للموالى مِنِ أصهار العبيد إلى العبيد ؟

ومن هذه المظاهر احتقار بعض العرب لأبناء الاماء ، فكانوا يصفون ابن الأمة من عربى بأنه هجين ، ومعنى هذا أنه مشوب النسب معيب ، لأن الهجنة هى الكلام الذى يعيب قائله ، والهجين اللئيم ، والعربى المولود من أمة ، أو مَنْ أبوه خير من أمة[2] .

وكان بنو أمية — والدولة قوية — لا يستخلفونهم به بدعوى أن العرب لا ترضى أن تخضع لهم[3] ، فلما ضعفت الدولة وهدأت النعرة تولى بعضهم كيزيد ابن الوليد ، وأخيه إبراهيم ، ومروان بن محمد ومن عجيب أن جهر بتحقير أبناء الإماء عبد الملك بن مروان على مسمع من ابنه مَسْلَمَة — أمه أمة — وأن عنل بشعر ينقض من شأنهم ، فرد عليه مسلمة متمثلا بشعر يرفع من أقدارهم ، فسر عبد الملك ، وقبل رأسه وأمر له بمائة ألف[4] . وبلغ التعصب بنافع بن جُبَيْر أنه كان إذا مرت به

---

(١) الأغانى ١٤ — ١٥٠

(٢) اللسان والقاموس مادة هجين .

(٣) العقد الفريد ٣ — ٢٩٧

(٤) المرأة فى الشعر الجاهلى للمؤلف ١٣٩ و ٤٠٨

جنازة قال : من هذا ؟ فإذا قالوا : قرشي ، قال : واقوماه ، وإذا قالوا عربي : قال : وابلدتاه ، وإذا قالوا مولى : قال : هو مال الله يأخذ ما يشاء ، ويدع ما يشاء . ويذكرون من نافع هذا أنه قدم مولى ليصلي به ، فسئل من ذلك فقال : أردت أن أتواضع لله بالصلاة خلفه .

وفي العقد الفريد أمثلة شتى على هذه الشاكلة ، كنداء العرب لهم بالأسماء لا بالكنى وكتنحيتهم من محاذاة العرب في الصف وهم يمشون ، وإبعادهم من الصلاة على الميت إذا وجد عرب يصلون عليه[1] .

وأما حنقهم على بني أمية بخاصة فرجعه إلى أسباب عدة :

١ — انهم الحكام الذين يمثلون العرب الغادين على ملك الفرس والروم ، وأنهم يؤثرون العرب بالولايات والوظائف ، ويخصونهم بالتقريب والإيثار ، ويقصون الموالي من الحكم والتكريم .

٢ — ثم إن بعض ولاة بني أمية أساءوا معاملة الموالي ، فالحجاج أمر بألا يؤم الناس في الصلاة بالكوفة إلا عربي[2] ، ونفى النبط من واسط لما نزل هناك .

٣ — على أن الموالي خشوا على مكانتهم وأرزاقهم لما عربت دواوين الخراج ، والذي يعنينا هنا ما يتصل بتعريب ديوان فارس ، فإن الحجاج لما أمر بتعريبه ضاق كتاب الفرس ، كما ضاق من قبلهم كتاب الروم ، وخشوا أن ينضب معين رزقهم وأن يفقدوا مظهراً من مظاهر حاجة العرب إليهم ، فقالوا لصالح بن عبد الرحمن — وهو الذي عرب الديوان وكان يعرف ، العربية والفارسية — كيف تصنع بدَهْوَيْه وشِشْوَيْه ؟ فقال ا كتب عشراً ونصف عشر . فقالوا له : وماذا تصنع بويد ؟ قال : أكتب أيضاً فقال بعضهم : قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية . ثم بذلوا له مائة ألف درهم على أن يظهر عجزه عن تعريب الديوان ، فأبى لهذا قال عبد الحميد بن يحيي : « لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب » يريد الكتاب العرب .

---

(١) العقد الفريد ٤/٣٦٣ — ٣٦٨
(٢) العقد الفريد ١/٢٠٧

٤ — وقد كان من أسباب كراهيتهم لبنى أمية أن كثيراً منهم كانوا متشيعين منذ عهد على بن أبى طالب ، وأخذ عددهم يتزايد ويتضاعف[١] ، فهم يكرهون الأمويين ، لأنهم مغتصبون للخلافة وهى فى عقيدتهم حق العلويين ، ولعل هذا كان من حوافزهم إلى مؤازرة الثورات والثائرين .

لـكن جمهرة العرب لم يقيموا علاقاتهم بالعجم من فرس وغيرهم على هذه النعرة بل كانوا يرون فى العجم الذين خفق على بلادهم لواء الإسلام إخوة لهم فى الدين ، ولعلهم وجدوا فى هذه النظرة قربة إلى الله ومثوبة ، ووجدوا فيها امتثالا لقوله تعالى :

« إنما المؤمنون إخوة » وقوله : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وقول النبى صلى الله عليه وسلم : « كلـكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

ولقد كان لهم أعظم أسوة فى معاملة النبى وكبار الصحابة للموالى وتسويتهم بالعرب ، وهم يعلمون أن عمر تمنى فى آخر لحظة من حياته أن سالما مولى حُذَيْفة حى ليعهد إليه بالخلافة .

ويعلمون أن جماعة من أصحاب على مشوا إليه فقالوا : يا أمير المؤمنين أعط هذه الأموال وفضّل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالى والعجم ، واسْتَمِلْ من تخاف خلافه من الناس . فقال لهم : أتأمرونى أن أطلب النصر بالجور[٢] ؟

ذلك أنهم رأوا معاوية يختص أشراف العرب بعطائه ، فأرادوا من علىّ أن يصنع مثله ، ولم يكن علىّ يفضل شرفا على مشروف ، ولا عربيا على عجمى ، ولا يصانع الرؤساء وأمراء القبائل ، فـكان هذا من أقوى الأسباب فى تقاعدهم عنه[٣] .

وكان أكثر المسلمين لا يحتقرون الموالى ، ولا يترددون فى أخذ العلم عنهم ، كما أخذوا من الحسن البصرى ، وسعيد بن جُبَيْر ، وابن جُرَيْج ، وابن سيرين ، وعطاء بن يسار وغيرهم ؛ وكلهم موال . ويذكر ابن خلـكان أن الحسن البصرى كان

---

(١) أدب السياسة فى العصر الأموى للمؤلف ص ٣٤ .
(٢) ابن أبى الحديد ١ — ١٨٢
(٣) ابن أبى الحديد ١ — ١٨٠

ينتقد خلفاء بنى أمية ، ويعيب يزيد بن المهلب ، فجاءه يزيد فى رهط من قومه وهمّ أحدهم بقتل الحسن ، فغضب يزيد وقال : أغمد سيفك ، فو الله لو فعلت لانقلب مَن معنا علينا[١] .

أصداؤها فى العصر الأموى

حنق الفرس على الدولة الأموية ، لأنها عربية تسكل شئونها إلى العرب ، ولأنها لم تنظر إلى الفرس نظرة التقريب والتقدير ، ونقموا من العرب ، إنهم أمالوا عليهم وعدوهم أتباعا وأقل منهم شأنا وأدنى أصلا وحسبا .

لكن الفرس لم يستطيعوا فى العصر الأموى أن يجهروا بشعوبيتهم ، إذ كان بعضهم يدين للعرب بالسيادة والفضل ، لأنهم أهل الدين ، وكان بعضهم يداجى ويكتم ما بنفسه خشية من العرب ، وإن لم يدن لهم بفضل . وكان من الطبيعى أن ينادى بعض الفرس بتحقيق المساواة التى شرعها الإسلام وحققها النبى وخلفاؤه الراشدون .

ثم شرعت أصوات فارسية ترتفع فتقابل تعالى العرب بمثله ، وتباهى بماضى الفرس وسعة ملكهم وعظمة حضارتهم وثراء بلادهم ، وتميز بعض هذه الأصوات بالجرأة على العرب والتنديد بهم فى رمز ومواربة .

ويظهر أن شعراء العرب هم الذين بدأوا بالتهجم على الموالى فى العصر الأموى ، فقد مرت أبيات محمد بن بشير فى تحقيرهم ، وأنفته من اصهارهم إلى كل عربى . وفى شعر جرير والفرزدق جرح لهم وزراية بهم[٢] .

فلما مضى من عمر الدولة الأموية نحو نصفه ، بدأ نجم الأعاجم يتألق وبخاصة منذ عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥) وكان لهذا التألق عدة أسباب ، فقد اشتهر بالعلم والورع كثير ممن ولدتهم أمهات غير عربيات ، وكان بعض أمراء بنى أمية من أمهات فارسيات ، كيزيد بن المهلب وأخيه إبراهيم ، ويزيد هو القائل :

أنا ابن كسرى وأبى مروان وقيصر جدى وجدى خاقان

---

(١) وفيات الأعيان ٢ — ٤٠٨

(٢) أدب السياسة فى العصر الأموى ٤٤٥

ومن هؤلاء الأمراء مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، وكان بنو أمية قد بدأوا يخففون من زرايتهم بالموالى لأنهم كثرة يخشون منهم على الدولة ولا سيا أنهم ضالعون مع الشيعة ، والدعوى الشيعية تنتشر فى خراسان ، والفرس يهشون لها .

وفى هذا الوقت كان بعض الموالى من الفرس قد أجادوا الشعر العربى كزياد الأعجم مولى عبد القيس ، وأبى العباس الأعمى مولى بنى الدّيل ، ويزيد بن ضَبَّة مولى ثقيف ، وإسماعيل بن يسار .

وليس من الطبيعى أن يطيق هؤلاء ما يلقون من تحقير وإبعاد فشرعوا ينفسون عن أنفسهم ، فيتباهون بمجد الفرس وعظمتهم ، ويندّدون بالعرب تنديدا مستورا ، ويتهجمون عليهم فى لمح خاطف .

والأمثلة على هذا كثيرة ، منها أن هشام بن عبد الملك دعا إسماعيل بن يسار لينشده ، وكان لا يتوقع منه غير المدح ، فإذا به يسمع مباهاة بالفرس كقوله[1] .

أصلى كريم ومجدى لا يقاس به ولى لسان كحد السيف مسموم
أحمى به مجد أقوام ذوى حسب من كل قَرْم بتاج الملك معموم[2]
مَنْ مِثْلُ كسرى وسابورالجنودمعا والهرمزان لفخر أو لتعظيم
هناك أن تسألى تُنْبَئْ بأن لنا جرثومة قهرت عـز الجرائيم

فغضب هشام وسبه ، وأمر به فألقى فى بركة حتى كادت نفسه تخرج ، ثم نفاه إلى الحجاز .

ولم يكن إسماعيل بن يسار يقنع بهذا الفخر وما يماثله ، بل جعل يتهجم على العرب كقوله[3] :

فاتركى الفخر يا امام علينـا واتركى الجور وانطقى بالصواب
واسألى إن جهلت عنا وعنكم كيف كنا فى سالف الأحقاب
إذ نربى بناتنـا وتدســـون سَفَاها بناتـكم فى التراب

(١) الأغانى ٤ — ٤٠٨
(٢) قرم : سيد . معموم : معتم والمراد متوج
(٣) الأغانى ٤ — ١٢٠

وكان أشعب فى السامعين فقال له : صدقت والله ، أراد العرب بقاءهم لغير ما أردتموهن له . قال إسماعيل : وما ذلك ؟ قال أشعب : دفن العرب بناتهم خوفا من العار ، وربيتموهن لتنكحوهن . فضحك القوم ، وخجل إسماعيل . كذلك كان يزيد بن ضَبَّة يفاخر بالفرس كقوله :

ألم تر أننا لما ولينا أموراً خُرِّقَتْ فَوَهَتْ سَدَدْنا
ولينا الناس أزمانا طوالا وسسناهم ودسناهم وقُدْنا
ألم تر من ولدنا كيف أشْبَى وأشبينا ، وما بهم تَمَدْنا

وقد أنشد أمام الوليد بن عبد الملك شعرا يفخر فيه بالفرس ، فلم ينكره عليه .

ونلاحظ أنهم كانوا فى العصر الأموى كثيرا ما يكتفون بالفخر ، فإذا ما أرادوا التعرض للعرب اعتمدوا على الكناية والرمز بهند وإمامة ونحوها .

أصداؤها فى العصر العباسى

انتهى العصر الأموى وصوت الموالى خافت ، فلما جاء العصر العباسى علا صوتهم ودوّى ، إذ اتسع المجال أمامهم ، واطمأنوا إلى حريتهم للكفولة ، واستباحوا تسامح الدولة ، واستمتعوا بنفوذ عظيم فى قصور الخلفاء ودواوين الحكام ، بل كانت الوظائف الكبار مقصورة على الفرس ، وإذا كان قليل جداً من الموالى قد تولوا بعض أعمال عامة فى عهد بنى أمية فإن توليتهم فى عهد بنى العباس صارت القاعدة والأساس ، فأكثر من ولاهم المنصور موال ، ثم حاكاه من جاءوا بعده ، وقد كان المأمون يؤثر الفرس جهرة ، ويشك فى ولاء العرب له كما تقدم .

لهذا شرقت قصور الخلفاء بالموالى من رجال ونساء ، وغص الجيش بهم ، حتى إن الفضل بن يحيى البرمكى اتخذ جنودا من خراسان سماهم العباسية ، جعل ولاءهم للعباسيين ، بلغ عددهم مائة ألف ، وقدم منهم إلى بغداد عشرون ألفا ، ثم جاء المعتصم فاستخدم الترك وآثرهم على الفرس ، فتنافس الترك والفرس على السلطان ، وصار بأسهم بينهم شديداً ، لكن الترك انتصروا ففقد الفرس والعرب مكانتهم ونفوذهم[1] .

كانت الحالة السياسية والاجتماعية موانية للفرس فى العصر العباسى ، فجهروا بشعوبيتهم فى غير تعريض ولا كناية كما سنبين .

على أن بعض أبناء الفرس ما زالوا يشعرون بحاجتهم فى العصر العباسى إلى الاحتماء بالولاء وبالانتساب إلى العرب . كان لعلى بن الخليل الكوفى صديق من الدهاقين يعاشره ويبره ، فغاب عنه مدة طويلة ، ثم عاد إلى الكوفة وقد أصاب مالا ورفعة ، وقويت أحواله ، فادعى أنه من تميم ، فجاءه على بن الخليل ، فلم يأذن له ، فلقيه فلم يسلم عليه ، فقال يهجوه :

يروح بنسبة المولى ويصبح يدعى العربا

---

(١) أدب السياسة فى العصر الأموى ٥٠

فــلا هــذا ولا هــذا ك يدركه إذا طلبها
جحــدت أباك نسبته وأرجو أن تفيد أبا(١)

وكذلك هجا أبو العتاهية والبة بن الحباب لما أدعى نسبه فى العرب ودعاه إلى أن يعتصم بنسبه فى الموالى مثله .

أوالب أنت فى العرب كمثل الشّيص فى الرُّطَبِ
هــلم إلى الموالى الصَّيــــد فى سعة وفى رَحَب
فأنت بنـا لعمر الــــه أشبه منك بالعرب(٢)

فخر شعراء الفرس وتهجمهم على العرب :

علت أصوات فارسية تفخر بمجد الفرس وعظمتهم ، وتجهر بتحقير العرب ، وتعيرهم الفقر والجدب وشظف العيش والجهل والفوضى ووأد البنات ، وتذكرهم بأنهم كانوا عملاء كسرى أو حراسا على قوافله التجارية القادمة إلى بلادهم .

من فخرهم قول بشار بن برد :

ونبئت قوما بهــــم جِنَّةٌ يقولون من ذا ؟ وكنت العلم
إلا أيهــا السائلى جاهداً ليعرفنى أنا أنف الكرم
نمت فى الكرام بنى عامر فروعى وأصلى قريش العجم

ويسأله المهدى . من أى العجم أنت ؟ فيقول : من أكثرها فى الفرسان ، وأشدها على الاقران ، أهل طخارستان .

ويقول أيضاً :

وهجــانى معشر كلهـــم حُمُقٌ دام لهم ذاك الحمُقْ
ليس من جُرْم ولــكن غاظهم شرف العارض قد سد الأفق
من خراسان وبيتى فى الذرى ولدى المساة فَرْعى قد سَمَق

وكان يتبرأ من ولائه للعرب ، ويمحض الموالى على نبذ ولائهم فى قوله :

(١) الأغانى ١٣ — ١٨
(٢) الأغانى ١٦ — ١٩٤

أصبحت موالى ذى الجلال وبعضهم   مولى العُرَيْب فجُدْ بفضلك فافْخَر
مولاك أكرم من تميم كلها   أهل الفَعَال ومن قريش المَشْعَر
فارجع إلى مولاك غير مدافع   سبحان مولاك الأجل الأكبر

وقد لامه شريف من بنى زيد على دعوته الفرس لنبذ ولائهم ، وقال له : قد أفسدت علينا موالينا ، وتدعوهم إلى الانتفاء منا وترغبهم فى الرجوع إلى أصولهم ، وإلى ترك الولاء ، وأنت غير معروف الأصل . فقال بشار : والله لأصلى أكرم من الذهب ، ولفرعى أزكى من عمل الابرار ، وما فى الأرض كلب يود أن يستبدل نسبه بنسبك[1] .

ومن فخرهم وتهجمهم على العرب قول الخريمى[2] :

ونادبت من مرو وبلخ فوارسا   لهم حسب فى الأكرمين حسيب
فيا حسرتا لا دار قومى قريبة   فيكثر منهم ناصرى ويطيب
وإن أبى كسرى بن هرمز   وخاقان لى لو تعلمين نسيب
ملكنا رقاب الناس فى الشرك كلهم   لنا تابع طوع القياد جنيب
نسومكم خسفا ونقضى عليكم   بما شاء منا مخطىء ومصيب
فلما أتى الإسلام وانشرحت له   صدور به نحو الأنام تنيب
تبعنا رسول الله حتى كأنما   سماء علينا بالرجال تصوب

كذلك قال المتوكلى[3] وهو من شعراء الخليفة المتوكل ونديمه :

أنا ابن الأكارم من نسل جم   وحائز إرث ملوك العجم[4]
ومحيى الذى باد من عزهم   وعفى عليه طوال القدم
وطالب أوتارهم جهرة   فمن نام من حقهم لم أنم
معى علم الكابيان الذى   به أرتجى أن أسود الأمم[5]

---

(١) الأغانى ٣ — ٥١
(٢) الشعر والشعراء ٣٥٣
(٣) معجم الأدباء ١ — ٣٢٣
(٤) جم : يعنى جمشيد ملك الفرس
(٥) الكابيان : نسبة إلى كابة وهو حداد فارسى رفع علم الثورة

فقـــل لبنى هـــاشم أجمعين هلموا إلى الخلع قبـــل الندم
ملـكناكم عنوة بالرما ح طعنا وضربا بسيف حزم
وأولاكم الملك آباؤنا فما أن وفيتم بشـــكر النعم
فعودوا إلى أرضـــكم بالحجاز لأكل الضبـــاب ورعى الغنم
فإنى سأعـــلوا سرير الـــلوك بحـــد الحسام وحرف القـــلم

ولما أنعم الله على مهيار الديلمى الفارسى بنعمة الإسلام سنة ٣٩٤ هـ قال قصيدة يشيد فيها بالإسلام ، ويهجن قومه بعبادة النار :

بدات من ناركم ربهـــا وخبث مواقدها الخلد طيبا

لـكنه كان يفاخر بنسبه الفارسى ، ويخلطه أحيانا بفخره بالإسلام ، كقوله :

أعجبت بى بين نادى قومها أم ســـعد فمضت تسأل بى
سرها ما علمت من خلق فأرادت علمهـــا ما حسبى
لا تخالى نسبا يخفضنى أنا من يرضيك عنـــد النسب
قوى استولوا على الدهر فتى ومشوا فوق رءوس الحقب
وأبى كسرى على ايوانه أين فى الناس أب مثل أبى ؟
قد قبست المجـــد من خير أب وقبست الدين من خير نبى
وضممت الفخـــر من أطرافه ســـؤدد الفرس ودين العرب

أما أبو نواس فقد تهجم على العرب بوسيلة أخرى ، هى تهكمه الـكثير بطريقة العرب فى التقديم لقصائدهم بالغزل وبكاء الطلال ، ودعوته الملحة إلى بدء القصائد بالخمريات .

وقد يظن أن هذا لون من التجديد أراد أن يلون به الشعر العربى ، لـكن هذا الظن لا يلبث أن يتوارى إذا ما لحظنا سخريته بالعرب ، وتهوينه من شأن قبائلهم وقد كان يستطيع أن يجدد بغير تندر وسخرية وتحقير ، كما فعل المتنبى حينما عجب من الشعراء المتـكلفين للحب ، إذ افتتحوا مدائحهم بالغزل ، فهو على حق فى عجبه ، وهو لم يتعد العجب إلى الحملة على العرب ، قال المتنبى :

اذا كان مدح فالنسيب المقـــدمُ أ كل بليغ قال شـــعرا متيم ؟

وشتان بين هذا وقول أبي نواس :

تبكي على طلل الماضين من أسد ... لا دَرّ درك قل لي : من بنو أسد ؟

لا جف دمع الذي يبكي على حجر ... ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد

كم بين ناعت خمر في دساكرها ... وبين باك على نُؤْي ومُنْتَضَد

وقوله :

صفة الطلول بلاغة القِدَمِ ... فاجعل صفاتك لابنة الكرم

وقوله :

لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هند ... واشرب على الوَرْد من حمراء كالورد

وقوله :

دع الأطلال تَسْفيها الجنوبُ ... وتبكي عهد جِدّتها الخطوبُ

. . . . .

وهذا العيش لا خِيَمُ البوادي ... وهذا العيش لا اللبن الحليب

فأين البدو من إيوان كسرى ... وأين من الميادين الزروب ؟

ولما حبسه الرشيد لتهتكه ومجونه قال :

أعِرْ شعرك الطلول والمنزل القَفْرا ... فقد طالما أزرى به نعتك الخمرا

دعاني إلى نعت الطلول مسلط ... تضيق ذراعي أن أرد له أمرا

فسمعا أمير المؤمنين وطاعة ... وإن كنت قد جشمتني مسلكا وعرا

مؤلفات الفرس في التهجم على العرب

ألف الفرس كتبا شتى في الانتصار لأنفسهم ، بعضها في الإشادة بمناقبهم ومناقب العجم [1] عامة ، وبعضها في الانتقاص من قدر العرب وذكر مثالبهم . فمن الضرب الأول كتاب فضل العجم على العرب ، وكتاب انتصاف العجم من

(١) الفهرست ٤٢ و٥٤ و٩٩ و١٠٠ و١٠٥ و١٠٦ و١٢٠ و١٢٣ و١٤٥

العرب لسعيد بن حميد البختكان . وكتاب فضائل الفرس لأبي عبيدة معمر ابن المثنى .

ومن الضرب الثاني كتاب المثالب لعلان الفارسي الذي جرح فيه العرب ، وتناول القبائل كلها بالثلب ، وكتاب المثالب الكبير ، وكتاب المثالب الصغير ، وكتاب أسماء بغايا قريش في الجاهلية ، ألفها الهيثم بن عدى ، وكتب أخرى ألفها سهل بن هارون رئيس بيت الحكمة ببغداد ، وكتاب لصوص العرب ، وكتاب أدعياء العرب لأبي عبيدة معمر ابن المثنى . وكتاب مثالب العرب والإسلام ليونس ابن أبي فروة ، وقد شخص به إلى إمبراطور الروم فأعطاه جائزة[١] .

وأنه لمن الخير الكثير أن هذه الكتب وأمثالها قد فقدت ، ولم يبق منها إلا فقرات أو رسائل قصار نعثر عليها في بعض كتب الأدب مثل كتاب (العرب) لابن قتيبة ، والبيان والتبيين للجاحظ ، والعقد الفريد لا بن عبد ربه ، وعيون الأخبار لابن قتيبة . والعجب أن المأمون لم يجد بأسا في مؤلفات سهل بن هارون القيم على بيت الحكمة في عهده ، ولا في مؤلفات معاصريه لأن بعض الشعوبية كانوا من خاصته .

وعمد خصوم العرب إلى كل فضيلة من فضائلهم فسخوها مسخا وشوهوها تشويها ، وتنقصوا من أقدارهم في كثير من شئون الحياة .

فعابوهم بتخلفهم في أفانين الحرب ، وأنواع السلاح ، وسخروا من مواقفهم الخطابية إذ يكثرون من الإشارة بأيديهم أو بمخاصرهم[٢] وعصيهم وقسيهم .

وأنكروا عليهم فصاحتهم وبراعتهم الخطابية ، وقالوا إن الأمم كلها تستطيع الخطابة حتى الزنج والأغبياء يستطيعون أن يطيلوا الخطب ، ثم زعموا أن الفرس واليونان والهنود أقدر على الخطابة الممتازة بالأفكار والتعبير الجيد .

من أمثلة ذلك قولهم :

---

(١) الأغاني ١٣ — ٧٦ وأمالي المرتضى ١ — ٨٩

(٢) المخصرة : العصا والمقرعة والعكازة والقضيب

لم تزل الأمم كلها من الأعاجم فى كل شق من الأرض لها ملوك تجمعها ، ومدائن تضمها ، وأحكام تدين بها ، وفلسفة تنتجها ، وبدائع تفتقها فى الأدوات والصناعات مثل صنعة الديباج ولعبة الشطرنج ورمانية القبان ، ومثل فلسفة الروم فى ذات الخلق والقانون والاسطرلاب ولم يكن للعرب ملك يجمع سوادها ، ويضم قواصيها ، ويقمع ظالمها ، وينهى سفيهها ، ولا كان لها قط نتيجة فى صناعة ، ولا أثر فى فلسفة ، إلا ما كان من الشعر وقد شاركتها فيه العجم ، وذلك أن للروم أشعاراً عجيبة قائمة الوزن والعروض ، فما الذى تفخر به العرب على العجم ؟ فإنما هى كالذئاب العاوية والوحوش النافرة يأكل بعضها بعضاً[١] .

اختلاقهم أقاصيص وأحاديث نبوية :

ثم إن بعضهم حاربوا العرب بأسلحة أخرى أشد خفاء ، وأسرع نفاذا وأسهل تصديقاً ، فالذى يقرأ كتابا فى مفاخر العجم أو فى مثالب العرب يتراءى له الشك فيما يقرأ ، وكثيرا ما يعرضه على موازين من عقله وخبرته وثقافته فيرفضه ، فعمد بعض المتعصبين على العرب من الفرس إلى طريقة جديدة لا يعترضها شك أو رفض هى أنهم اختلقوا أخباراً وأقاصيص تنتقص من أقدار العرب ، فسروا بها بعض الأمثال وشرحوا بها بعض الشعر ، وأطالوا بها الأخبار .

وكذلك فعلوا فى الحديث الشريف فوضعوا من الأحاديث ما يرفع من قدرهم[٢] كزعمهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قوله تعالى : « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » فقيل من يستبدل بنا ؟ فضرب على منكب سلمان الفارسى ، وقال : هذا وقومه ، والذى نفسى بيده لو كان الإيمان منوطا بالثريا لناله رجال من فارس . وكزعمهم أن العجم ذكرت عند رسول الله فقال : « لأنا بهم أوثق منى بكم » وزعمهم أن رسول الله قال : سيأتى ملك من ملوك العجم فيظهر على المدائن كلها إلا دمشق » وقال : لا تسبوا فارسياً ، فما سبه أحد إلا انتقم منه عاجلا أو آجلا » .

---

(١) العقد الفريد ٢ — ٥٥ المطبعة الأزهرية .

(٢) الإصابة وتيسير الوصول وابن عابدين ورسائل البلغاء .

كذلك ادعوا أن رسول الله أخبر بظهور أبي حنيفة وافتخر به ، فقال إن آدم افتخر بي ، وأنا أفتخر برجل من أمتي اسمه نعمان وكنيته أبو حنيفة هو سراج أمتي وقال : إن سائر الأنبياء يفتخرون بي ، وأنا أفتخر بأبي حنيفة ومن أحبه فقد أحبني ومن أبغضه فقد أبغضني .

على أن الزنادقة من الفرس حاولوا تحت ستار الإسلام الذي اعتنقوه ظاهرياً أن يفسدوا عقائد المسلمين بطرق شتى ، منها وضع أحاديث نبوية تبلبل المسلمين وتدعهم من أمور دينهم في حيرة ، كالذي فعله عبد الكريم بن أبي العوجاء ، وقد اعترف حين قتله المنصور بأنه وضع أربعة آلاف حديث افتراها على الرسول .

يقول ابن الأثير :

فلما يئس أعداء الإسلام من استئصاله بالقوة ، أخذوا في وضع الأحاديث المكذوبة وتشكيك ضعفة العقول في دينهم بأمور قد ضبطها المحدثون ، وأفسدوا الصحيح بالتأويل والطعن عليه ، والقوا إلى كل من وثقوا به أن لكل عبادة باطنا وأن الله تعالى لم يوجب على أوليائه ومن عرف الأئمة والأبواب صلاة ولا زكاة ولا غير ذلك ، ولا حرم عليهم شيئاً ، وأباحوا لهم نكاح الأمهات والأخوات ، وإنما هي قيود للعامة ، ساقطة عن الخاصة . وكانوا يظهرون التشيع لآل النبي صلى الله عليه وسلم ليستروا أمرهم ، ويستميلوا العامة ، وتفرق أصحابهم في البلاد ، وأظهروا الزهد والعبادة يغرون الناس بذلك ، وهم على خلافه . . . وتفرقت هذه الطائفة في البلاد وتعلموا الشعبذة والنارنجيات والنجوم ، فهم يحتالون على كل قوم بما ينفق عليهم ، وعلى العامة بإظهار الزهد[1] .

ردود العرب عليهم :

١ — لم يتغافل الشعراء العرب عن هذا التهجم ، فجعلوا يقابلونه بتهجم مثله ، وحسبنا أن نمثل ببعض ما قالوا ، لأن موضوع هذا الفصل مقصور على أثر الفرس في الشعوبية .

---

(١) الكامل في التاريخ ٨ — ٢١

لما قال فارسى فى فخره بالفرس وتنديده بالعرب :

بهاليـل غر من ذؤابة فارس　　إذا انتسبوا ، لا من عرينه أو عكل
هم راحة الدنيـا وسـادة أهلها　　إذا افتخروا لا راحة الشاة والإبل

رد عليه عربى بقوله :

لا تفترر أنك من فارس　　فى معـدن الملك وإيوانه
لو حدثت كسرى بذا نفسـه　　صفعتـه فى جوف إيوانه

وقد تعصب الفرس للرواية أبى عبيدة معمر بن المثنى ، وقدموه على الأصمعى الراوية العربى ، وحاول إسحق الموصلى الفارسى الأصل أن يرفع من قدره ، ويحط من قدر الأصمعى عند الفضل بن الربيع بقوله :

عليك أبا عبيـدة فاصطنعه　　فإن العـلم عند أبى عبيـدة
وقدمـه وآثره عليـه　　ودع عنك القُرَيد بن القريدة(١)

ولم يكتف بهذا ، بل أوغر صدر الرشيد على الأصمعى واتهمه بنكران الصنيعة وضعة النفس ، وزكى أبا عبيدة ، وما زال يدس للاصمعى عند الرشيد وعند الفضل حتى وضع مرتبته ، فبعثوا إلى أبى عبيدة يستقدمونه(٢) لما حدث ذلك هجا الأصمعى البرامكة بقوله :

إذا ذكر الشرك فى مجلس　　أضاءت وجـوه بنى برمك
وإن تليت عنـدهم آية　　أتوا بالأحاديث عن مزدك

ثم هجا المتنبى العجم بقوله :

وإنمـا النـاس بالملوك وما　　تفلح عرب ملوكهـا عجم
لا أدب عنـدهم ولا حسب　　ولا عهـود لهم ولا ذمم
بكل أرض وطئتهـا أمم　　ترعى بعبـد كأنهـا غنم
يستخشن الخز حين يلمسه　　وكان يبرى بظفره القـلم

---

(١) يريد بالقريد الأصمعى
(٢) الأغانى ٥ — ١٠٧

٢ — انبرى لتفنيد مزاعم الفرس والرد عليهم علماء من العرب ، كابن قتيبة فى كتابه (العرب) والجاحظ فى كتابه (البيان والتبيين)[١] .

ولما امتدت الشعوبية إلى الأندلس ألف ابن غرسية رسالة فى الهجوم على العرب ، فرد عليه يحيي بن مسعدة وأبو جعفر أحمد البلنسى وأبو الطيب القروى وغيرهم[٢] .

من رد الجاحظ على الشعوبية قوله :

وجملة القول أنا لا نعرف الخطب إلا للعرب والفرس . فأما الهند فإنما لهم معان مدونة وكتب مخلدة ، لا تضاف إلى رجل معروف .

ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق ، وكان صاحب المنطق – أرسطو – نفسه بكيء اللسان ، غير موصوف بالبيان ، مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه ، وهم يزعمون أن جالينوس – الطبيب الفيلسوف – كان انطق الناس ، ولم يذكروه بالخطابة ولا بهذا الجنس من البلاغة .

وفى الفرس خطباء إلا أن كل كلام الفرس وكل معنى للعجم ، فإنما هو عن طول فكرة ، وعن اجتهاد رأى وطول خلوة ، وعن مشاورة ومعاونة ، وعن طول التفكر ودراسة الكتب .

وكل شئ للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا إجالة فكرة ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرفَ وهمه إلى الكلام وإلى رَجَزِ يوم الخصام ، أو حين يمتح على بئر ويحدو ببعير ، . . . فتأتيه المعانى أرسالا (أفواجا) وتنثال عليه الألفاظ انثيالا ، ثم لا يقيده على نفسه ولا يدرسه (لا يعلمه) من ولده .

وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلفون ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر ، وله أقهر . . . . وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا

---

(١) الجزء الثالث بخاصة

(٢) الجزء الثالث من نوادر المخطوطات للاستاذ عبد السلام هارون .

إلى تحفظ ويحتاجوا إلى تدارس ، وليس كمن حفظ علم غيره واحتذى على كلام من قبله[١]

والذى نستخلصه من كلام الجاحظ أنه لا ينكر أن العرب فى جاهليتهم لم يكن لهم علم وفلسفة كما كان للهنود واليونان ، ولم ينكر أن الفرس كان فيهم خطباء ، لكنه وصف خطباءهم بالتفكير الطويل والإعداد المتأنى والدراسة للكتب . وإذا فقد تميز العرب بفصاحة اللسان ، ومواتاة البديهة .

٣ — وإذا كان الفرس الشعوبيون قد اختلقوا أحاديث نبوية تشيد بهم وترفع من أقدار علمائهم ، فإن العرب قابلوا سلاحهم هذا بمثله ، فاخترعوا أحاديث نسبوها إلى رسول الله تختصهم بالتكريم والتفوق منها قول النبى (ص) :

« من غش العرب لم يدخل فى شفاعتى ، ولم تنله مودتى » . وقوله :

« إذا اختلف الناس فالحق فى مضر . » . وقوله : « أحبوا العرب لثلاث : لأنى عربى ، والقرآن عربى ، ولسان أهل الجنة فى الجنة عربى » .

٤ — وربما كان من مقابلة العرب للفرس بسلاح من جنس سلاحهم مارووه عن ابن المقفع ، إذ رووا أن جماعة اجتمعوا بالمِرْبَد ومعهم ابن المقفع ، فسألهم ابن المقفع : أى الأمم أعقل ؟ فنظر بعضهم إلى بعض ، وظنوا أنه يقصد الفرس ، فقالوا فارس . فقال ابن المقفع : ليسوا بذلك ، أنهم ملكوا كثيرا من الأرض ، وغلبوا الخلق ، لكنهم لم يستنبطوا بعقولهم شيئاً قالوا . الروم ، فقال . أصحاب صنعة . قالوا . الصين فقال . أصحاب طُرْفة . فقالوا . الهند ، فقال . أصحاب فلسفة . . . . قالوا فقل ، فقال . العرب . فضحكوا . فقال . ما أردت موافقتكم ، ولكن إذا فاتنى حظى من النسب فلا يفوتنى حظى من المعرفة . إن العرب حكمت على غير مثال مُثِّل لها ، ولا آثار أثِرتْ ، أصحاب إبل وغنم ، وسكان شعر وأدَم ، يجود أحدهم بقوته ، ويشارك فى ميسور ومعسوره ، ويصف الشىء بعقله فيكون قدوة ، ويعقله فيصير حجة ، ويحسن ما يشاء فيحسن ، ويقبح ما يشاء فيقبح ، أدبتهم أنفسهم

(١) البيان والتبيين ٣ — ٣٧

ورفعتهم هممهم ، وأعلتهم قلوبهم والسنتهم ، وبهم افتتح الله دينه وخلافته إلى الحشر ، فمن وضع حقهم خسر ، ومن أنكر فضلهم خصم[١] .

في المناصب الكبيرة .

من الطبيعي أن تهب أعاصير الشعوبية على المناصب الكبار فتزعزعها أحيانا أو تعصف بها أحيانا .

وقد كانت الوزارة والقيادة أكثر تعرضا لهذه الهزات ، وبخاصة في العصر العباسي الأول ، إذ رأينا بضعة من الوزراء يقتلون ، وأغلب الظن أن تنافس الكبار من سادات العرب وأشراف الفرس ، وتعصب بعضهم على بعض ، كان من أسباب العزل والقتل ، فصار من المألوف أن يعيش الوزير متخوفا على حياته ، أن يرفض بعضهم منصب الوزارة حينما يعرض عليه ، حتى إنه لا عجب في أن ود الشاعر لعدو ممدوحه أن يكون وزيراً .

أن الوزير وزير آل محمد   أودى ، فمن يشناك كان وزيراً

وحسبنا هذه الأمثلة .

كان أبو ايوب المورياني وزير المنصور جالساً في الديوان يصرف شئونه فأتاه رسول الخليفة ، فامتقع لونه ، وطارت عصافير رأسه ، وذعر ذعراً شديداً ، فسأله الجاحظ ومن حضر ، فقال لهم علمتم ما أعلم لم تعجبوا من خوفي مع ما ترون من تمكن حالي[٢]

وعرضت الوزارة على أحمد بن أبي خالد بعد أن قتل المأمون وزيره الفضل ابن سهل ، فرفض وقال : لم أر أحد تولاها وسلمت حاله .

وكان نعيم ابن أبي حازم العربي يتناقش مع الفضل بن سهل الفارسي في مجلس المأمون ، فأثنى الفضل على العلويين ، وأيد نقل الخلافة إليهم ، فقال له نعيم . إنك

---

(١) العقد الفريد ٢ — ٥٠

(٢) الحيوان ٢ — ١٣٢

إنما تريد أن تزيل الملك من بنى العباس إلى ولد على ، ثم تحتال عليهم فيصير الملك كسرويا[١] .

وكان الأفشين القائد الفارسى للمعتصم ، وكان أبو دلف العجلى القائد العربى ، وكان الأفشين يكره العرب أشد الكره ، وكان أبو دلف يعتز بعروبته ، ويعتمد على مكانته فى عجل وغيرها من ربيعة ، ويستحق إشادة الشعراء بكرمه وشجاعته ، وهم الأفشين بقتله لولا أن أحمد بن أبى دواد قاضى المأمون والمعتصم سارع إلى الأفشين وهدده .

الثورات الإنفصالية :

كذلك تجلت الشعوبية فى ثورات انفصالية ، قام بها الفرس ، ليقضوا على الحكم العربى ، ويسترجعوا ما كان لهم من استقلال . وهذه أمثلة منها :

١ — لما قتل المنصور أبا مسلم الخراسانى سنة ١٣٧ هـ (٧٥٥ م) هاج جنده واستلوا سيوفهم ، واعتزموا على الأخذ بثأره ، لكن المنصور استرضاهم بالمال ، وأقنعهم بخيانة أبى مسلم ، وفساد طويته ، فانصرفوا راضين .

ولكن الثورة لأبى مسلم لم تلبث أن قامت فى العام التالى بالجزيرة وفارس ، إذهب أهل فارس بقيادة سونباذ المجوسى للأخذ بثأر أبى مسلم ، واستطاع الثوار أن يستولوا على البلاد ما بين الرى ونيسابور ، وقتلوا الرجال وسبوا النساء ، إلى أن أخمد المنصور الثورة وأخضع الثوار .

٢ — ولقد يكون من محاولة الثأر لأبى مسلم أن ثار فى سنة ١٤١ هـ جماعة من خرسان هم الراوندية[٢] ، وهم يقولون بتناسخ الأرواح ، ويزعمون أن روح آدم حلت فى زعيمهم عثمان بن نهيك ، وأن ربهم الذى يطعمهم ويسقيهم هو أبو جعفر المنصور وأن الهيثم بن معاوية هو جبريل واجتمعوا حول قصر المنصور فى الهاشمية[٣] ،

(١) الوزراء والكتاب ٣٩٧

(٢) الراوندية بلد قرب خراسان

(٣) مدينة اسسها اخوه ابو العباس .

فجعلوا يقولون : هذا قصر ربنا ، ويطوفون به ، فارسل المنصور إلى رؤسائهم وقبض على مائتين منهم وسجنهم ، فغضب المنصور لإخماد فتنتهم ، وكاد يقتل لولا أن أنقذه القائد العربي العظيم معن بن زائدة الشيباني ، وجاءت قوات الجيش فحملت على الثوار وقتلتهم جميعاً .

٣ — ثم ثارت المقنعة في عهد المهدي سنة ١٥٨ — ١٦٠ هـ وهم أتباع هاشم ابن حكيم المعروف بالمقنّع ، لأنه كان يخفي قبح وجهه ودمامة خلقه بقناع من ذهب ، وزعموا أن روح الله ظهرت في آدم ، ثم في نوح ثم في ابن مسلم ثم في المقنع ، وأدعوا أن الدين اعتقاد لا عمل ، وكان عددهم كبيراً ،ولكن المهدي انتصر عليهم ، وهؤلاء هم الذين يسمون (المبيضة) لأنهم اتخذوا اللباس الأبيض شعارا لهم .

٤ — وما كاد المهدي يفرغ من القضاء على المقنعة أو المبيضة حتى دوى نذير ثورة المحمِّرة في إقليم جُرْجان ، وهي طائفة اتخذت اللباس الأحمر ستارا لها وكانت لها تعاليم هي خليط من المزدكية والمانوية ، نشرتها بين الناس في خراسان وغربي فارس والعراق .

نهض المهدي ليقضي على هذا المذهب الهدام الذي نشر الرذيلة ، وفصم الروابط الأسرية ، وأضعف من هيبة الحكومة ، وزعزع الثقة في النظام الديني والاجتماعي وأباح اختطاف الأولاد والنساء ، وتذرع المهدي بالقسوة في محاربة المحمرة حتى فلّ قواهم ، وأراح الشعب من شرورهم .

٥ — في عهد المأمون ثار بابك الخُرَّمي (٢٠١ - ٢٢٢ هـ) وهو من كورة في شمالي فارس ، ودعا الناس إلى اعتناق مذهبه الاباحي من خمر ونكاح للمحرمات واجتراء على المناكر واللذات ، وكان — كما يقول ابن النديم — يزعم لأتباعه أنه إله ، ولا شك بأن مذهبه امتداد أو إحياء للمزدكية .

عرف المأمون خبره فعزم على مطاردته والقضاء عليه وعلى مذاهبه الهدام فندب لحربه يحيي بن معاذ ، فلم يستطيع أن يغلبه ، فاختار قائداً آخر هو عيسى بن محمد ابن أبي خالد ، فعجز أيضاً ، فرماه بقائد ثالث فهزمه بابك وأسره ، ثم قتل القائد

الرابع محمد بن حُمَيْد الطوسين ، وبدد عسكره ، فرثاه أبو تمام بقصيدة من عيون قصائده يقول فيها :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر　　فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

توفيت الأمال بعد محمـد　　وأصبح فى شغل عن السفر السفر

فتى مات بين الطعن والضرب ميتة　　تقوم مقام النصر إذا فاته النصر

وقد كان فوت الموت سهلا فرده　　إليه الحفاظ المر والخلق الوعر

واستفحل أمر بابك ، وكثر أتباعه من أهل الجبال من همذان وأصبهان وماسبذان وغيرها ، وشغل المأمون عنه بالدولة البيزنطية ، ثم مات المأمون ، وكتب قبل موته يوصى أخاه المعتصم بالقضاء على بابك « والخرمية فأعزم ذا حزامة وصرامة وجلد ، واكنفه بالأموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجالة ، فإن طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك ، واعمل فى ذلك مقدم النية فيه ، راجياً ثواب الله عليه[1] » .

لم يتوان المعتصم فى القضاء على بابك الذى عظم شأنه فى أذربيجان حتى همذان ، فاختار قائداً تركياً هو المعروف بالأفشين وسيره إليه سنه ٢٢٠ هـ ، وجعل الأفشين يحارب سنتين حتى انتصر عليه سنة ٢٢٢ هـ (٨٣٧ م) وفر بابك إلى ارمينية فقبض عليه أحد أمرائها ، فعاد به إلى المعتصم ، فاستراح العباد ، وفرح الخليفة ، حتى أنه لما اقترب من سامرا كان الخليفة يرسل إليه كل يوم حلة شرف وهدايا ثمينة ، ثم تلقاه هو وأشراف الدولة ، وأمر بقتل الثائر ، وصلب جثته ، وقطع رأسه وأرسلها إلى مدن خراسان .

ويقال إن بابك هزم ستة قواد ، وذبح ٢٥٥ ألفاً ، وأسر ٣٣٠٠ رجلا ، و٧٦٠٠ امرأة ظلوا فى أسره حتى خلصهم الأفشين[2] .

٦ — ثم لم تلبث بعض الثورات أن نجحت ونشأت دويلات انفصلت عن

---

(١) الطبرى ١٠ — ٢٩٤

(٢) الطبرى ١٠ — ٣١٦ — ٣٣٢

الخلافة ،وقامت الدولة الصفارية بإقليم سجستان ، وطمع يعقوب الصفار فى أن يستولى على بغداد والعراق ، فخرج إليه الخليفة المعتمد بجيش كبير وانتصر الخليفة فى مدينة واسط سنة ٢٦٢ هـ وعاد يعقوب بعد الهزيمة إلى فارس .

يقول موير : كان قيام الدولة الصفارية الخطوة الأولى فى استرداد الفرس واستقلالهم .

ثم قامت الدولة السامانية فأسقطت الصفارية وأسقطت الزيارية بطبرستان ، وحكمت من سنة ٢٦١ هـ إلى ٣٨٩ هـ .

وفى أثناء ذلك عظم شأن آل بُوَيْه امراء الديلم منذ سنة ٣٢٠هـ فى خلافة الراضى وعظم بالشرق نفوذهم وصاروا خطراً على الخلافة العباسية ، ثم اتسع ملكهم حتى استولى معز الدولة البويهى على بغداد فى خلافة المستكفى سنة ٣٣٤ هـ ، ومكثوا يحكمون العراق وفارس من سنة ٣٣٤ إلى ٤٤٧ هـ (٩٤٦ — ١٠٥٥ م) وكان فتحهم بغداد أشنع نذير بوأد الخلافة وتحقير الخلفاء ، إذ خلع معز الدولة الخليفة المكتفى وسمل عينيه وسجنه ، وولى الفضل ابن عمه الذى لقب بالمطيع لله ، ثم تجرأ الفرس والترك على الخلافة والخلفاء بالعزل والتقتيل والتمثيل ، واستأثروا بالسلطات ولم يبق للخليفة إلا إنه رمز ديني ضئيل ، أو طلل من صرح كانت تشرئب إليه الأعناق . .

عاقبة الصراع :

١ — إن ثورات الفرس المتعاقبة أظهرت ما كان المجوس يضمرون للاسلام من شر ، وأن كثيراً من الفرس كانوا اعتنقوا الإسلام فى الظاهر وهم يترقبون الفرص لإعادة ملكهم والعودة إلى دينهم ، وما ثورة بابك والمقنع الخراسانى وغيرهما إلا دليل واضح على ذلك .

وقد انتهى الصراع الجنسى بتغلب الفرس والترك على العرب فى شئون السيادة والحكم .

أما العرب فقد ظلوا منتصرين بدينهم ولغتهم ، إذ عفى الإسلام على المجوسية ،

وبقيت العربية سائدة ، حتى أن الفرس كانوا يقبلون على تعلمها ويتنافسون فى إجادتها ويرون أن من نقص المروءة التكلم فى بلد عربى بالفارسية[١] .

وحسبنا أن كانت العربية هى اللغة الرسمية واللغة الأدبية والعلمية ، فى العصر العباسى الأول ، وأن أكثر الكتاب فى ذلك العصر يرجعون إلى أصل فارسى ، وأن كثيراً من العلماء الذين دونوا اللغة ووضعوا قواعدها ورددوا أدبها كانوا من الفرس .

٢ — على أن هذه التيارات لم تكن كلها شرا محضاً ، فقد حملت بعض الخير . إذ أنت الشعوبية وكل شىء للعرب بمجد ، من نسب عربى ، ولغة عربية ، ورأى عربى وعادات عربية ، فأخذ الشعوبيون يعرضون هـذا للنقد والتحليل ، عرضوا أنساب العرب للنقد . كالذى فعل أبو عبيدة مع غلوه ، فكان يرد على قوم ينتسبون للعرب ، فيبين أن النسبة كاذبة مختلفة ، وفى كتاب الأغانى عن أبى عبيدة من هذا كثير . وعرضوا اللغة العربية للنقد ، فسيبويه فى كتابه يخطىء العربى فى بعض أقوالهم . ويدعى العرب أن البلاغة ليست إلا فيهم ، فيرد الشعوبية بأن هناك أمماً أخرى لها بلاغة ، ولها خطب ، ولها حكم ، لا تقل عن العربى . وينبهون على أن عادات العرب ليست المثل الأعلى للعادات ؛ ففيها الحقير المرذول . والجيد المحمود .

كل هذا النقد وأمثاله استتبع نتيجة جيدة من بعض الوجوه وهى : عرض ما للأمم الأخرى من كل ذلك لتكون المقارنة أتم . فتعرض الكلمات الفارسية بجانب الكلمات العربية والحكم الأجنبية والبلاغة الأجنبية بجانب البلاغة والحكم العربية والنظام الفارسى والأدب الأجنبى بجانب النظام والأدب العربيين . وهذا — من غير شك — مفيد للعلم والعقل .

---

(١) عيون الأخبار ١ — ٢٩٦

(١) ضحى الاسلام ٢ — ٧٨

الفصل السادس

أثر الفرس فى اللغة العربية

تطورت نظم الحياة الاجتماعية ومظاهر الحضارة ، وشاع الترف واللهو والطرب ، وتعددت الازياء والفرش والأثاث والآنية ، وكان كثير من هذا غير معروف للعرب فسموها بأسمائها الفارسية أو اليونانية أو الهندية .

على أن اللغة العربية لم تعد ملكا للعرب وحدهم فى هذا الوقت الذى شرقت فيه وغربت ، بل صارت لهم وللشعوب التى أسلمت وأقبلت على تعلم لغة الإسلام .

ولاشك أن هؤلاء المستعربين لا يتعصبون للغة العربية كما يتعصب لها أبناؤها ، ولا شك أنهم أسرع ذكراً لكلمات من لغاتهم تؤدى ما بنفوسهم من بعض المعانى أوتدل على أشياء ليس فى العربية دلالات عليها ، أوفيها دلالات لم تجر على ألسنتهم .

لهذا اتسع المجال لدخول كلمات أعجمية فى اللغة العربية أكثرها فارسى .

لكن العرب فى نقلهم عن الفرس وغيرهم لم يسلكوا طريقة واحدة فى التعريب ، فقد نطقوا بعض الكلمات على أصلها ، وصقلوا بعضها الآخر صقلا يلائم نطقهم ، كما أنهم أحيانا رجعوا إلى لغتهم فتوسعوا فى دلالاتها .

تناظر عربى وفارسى فى مجلس يحيى بن خالد البرمكى ، فقال الفارسى للعربى : مااحتجنا إليكم قط فى عمل ولا فى تسمية ، ولقد ملكتم فما استغنيتم عنا فى أعمالكم ولا لغتكم ، حتى أن طبيخكم وأشربتكم ودواوينكم وما فيها على ما سمّينا ، لم تغيروا منه شيئاً ، كالإسفيداج والسكباج والدُّوغباج والسَّكَنْجَبين والخُلَنْجَبين والجلاّب والرُّزنامج والاسكدارومثل هذا كثير [1] . فسكت العربى ، فقال له يحيى

(١) الاسفيداج : رماد الرصاص

السكنجبين والسكباج : طعام من لحم وزيت ، ونبات طيب الرائحة . الخلنجبين : الخلنج بفتح الخاء شجرة تصنع منها السهام الجلاب : ماءالورد

الرزنامج والرزنامة : دفتر يومي للحساب ، وجريدة يومية

الاسكدار : صاحب البريد ، وحقيبته ، وصندوق البريد .

الدوغباج : اللبن الحائر .

« قل له : أسير لنا نحلك كما ملكتم ألف سنة بعد ألف كانت قبلها ، لانحتاج إليكم ولا إلى شيء كان لكم .

من الكلمات الفارسية المعربة :

الجَوْسَق : القصر ، أصله كوشك أي صغير قال النعمان بن عَدِيّ وكان عمر ابن الخطاب قد ولاه ميسان — كورة بين البصرة وواسط — :

لعل أمير المؤمنين يسوؤه تنادمنا في الجَوْسَق المتهدم

الصَّبْهَبذ : مثل الأمير في العرب ، قال جرير :

إذا افتخروا عدوا الصبهبذ منهم وكسرى وآل الهرمزان وقيصرا

الكرد : معناه بالفارسية العنق ، وأصله كردن ، وقد جاءت الكلمة في شعر جرير :

وكنا إذا القيسيُّ نَبَّ عَتُودُهُ ضربناه دون الأنثيين على الكرد[1]

وجاءت في قصيدة للمعانى يمدح الرشيد :

من يلقه من بَطَل مسرند في زَغْفَةٍ محكمة بالسَّرْد

تجول بين رأسه والكرد[2]

الخسرواني : الحرير الرقيق الحسن الصنعة ، نسبة إلى عظماء الاكاسرة .

قال الفرزدق :

لبسن الفرند الخسرواني فوقه مشاعر من خز العراق المفوف[3]

آب : ماء ، روسبيد : بيضاء الوجه .

قال يزيد بن مفرغ الحميري :

آب است نبيذ است عصارات نبيذ است

---

(١) نب : صاح . العتودة : من أولاد المعز مارعى وقوى . الأنثيان : الأذنان .

(٢) البيان والتبيين ١ — ١٤٢ مسرند : غالب . زغفة : درع لينة واسعة محكمة

(٣) أي لبسن الحرير الخسرواني مشاعر فوقه المزين من حرير العراق .

إذا ما كنت يوما في شداه[1] فقل للعبد يسق القوم برّا
فإن السقي مكرمة ومجد ومدفأة إذا ما خفت قرّا

باغ : بستان ، قال البستي :

لا تنكرنْ إذا أهديت نحوك من علومك الغر أو آدابك النتفا
فقيّم الباغ قد يهدى لصاحبه برسم خدمته من باغه التحفا

وذكر الجاحظ أن أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفرس في قديم الدهر علقوا بألفاظ من ألفاظهم ، ولذلك يسمون البطيخ الخِرْبِز ، ويسمون السَّميط الرَّزْدِق ، ويسمون المَصُوص المَزُوز ، ويسمون الشطرنج الإشْتَرَنْج ، وكذلك أهل الكوفة فإنهم يسمون المِسْحاة بالْ ، ويسمون الحَوْك الباذَرُوج .

وأهل البصرة إذا التقت أربعة طرق يسمونها مُرَبَّعة ، ويسميها أهل الكوفة الجَهارسوك ، ويسمون السوق والسُّوَيْقة وَازار والقِثّاء خيارا[2] والخرز والرذق وغيرها كلمات فارسية .

على أننا إذا رجعنا إلى (المعرب) للجواليقي وإلى « شفاء الغليل » للشهاب الخفاجي وجدنا مئات من الكلمات الفارسية مثل ، نرجَوْن (العسه) وكَمَك ونَمُوذَج (أصله نموذه أي مثال) وَدَيْدَبان (طليعة وربيئة) وَدَسكره (بناء يشبه القصر حوله بيوت تسكون للملوك) وَزرجون (أصله زركون أي لون الذهب والمراد الخمر) ومَبرَق (أصله مبره أي جيد والمراد الحرير) ونَوْزِينج (نوع من الحلوى) ومارستان (أصله بيمارستان أي مكان الشفاء) ومهندس وهندسة وإيوان وأستاذ (الماهر بصنعته) وَابْزار (هو التابل) وَبَرَق (أصله بره وهو الحمل) وأزاذ (نوع من التمر) وَبَرنكان (كساء) وَبذرَقة (بمعنى خفارة وحراسة) واشتقوا منها (البذرق بمعنى الخفير) ، وبارْجاه (بواب السلطان) قال الحجاج لعلي بن أصمع

(١) شداه : تبليل واضطرابه .

(٢) البيان والتبيين ١ — ١٩ السميط الأجر القائم بعضه فوق بعض ، والزورق أصله بالفارسية رسته ومعناه السطر والصف من النخل وغيره المصوص : لحم ينقع في الخل ويطبخ الباذروج ريحانة معروفة

جد الأصمعي : « قد وليتك البارجاه » وَبيْرم النجار (العتلة) وباذق (أصله باذَهْ) أي باق (والراد الخمر والحرير) ، وَبَيْذق (أصله بيذَه وهو رجل الحرب) ومنه جاءت الكلمة العامية بيادة أي راجل » والجَرْدَق والجردقة بالذال والدال (أصله كرده وهو الخبز الغليظ) والجَوْرب (أصله كورب) والجُوالِق (أصله كواله) والصَّمَج (القناديل ، الواحدة صمجة) والطشت والطَّاجن (المقلى) والفالوذج والفالوز (حلواء من لب الحنطة) والبوَنقة والزرنيخ والبابونج والإسفيداج ، والأسطوانة والإقليم والقرطق (أصله كرته ، وهو شبيه بالقباء) .

دعا أبو الفرات الحسن ، فلما وضع الطعام جاء الغلام وعليه قرطق أبيض ، فقال الحسن : أخذت زى العجم .

الفصل السادس

أثر الفرس في العلوم والتآليف

الفرس أصحاب ملك قديم وحضارة عريقة ومعرفة بالعلوم ، فهم ورثوا الأشوريين والبابليين فى الرياضيات والطبيعيات ، ونقلو إلى لغتهم كثيراً من علوم الهنود ، ونقلوا من اليونان علوما شتى منذ بعث سابورين أردشير إلى بلاد اليونان يستجلب كتباً ، ويأمر بنقلها إلى الفارسية ، وقد حفظها فى خزائنه وشجع على نسخها ودرسها ، ثم فر إلى فارس طائفة من الفلاسفة الوثنيين حينما أضطهد جوستنيان الوثنية وأغلق هيا كلها ومدارسها ، فاستقبلهم كسرى أنو شروان ورحب بهم وأقاموا عنده ينقلون الكتب اليونانية إلى الفارسية ، ويؤلفون كتبا فى الفلسفة والعلوم ، ويدرسون فى معهد الدراسات الطبية والفلسفية الذى كان بمدرسة جنيسابور فشاعت العلوم اليونانية بفارس ، كما شاعت من قبل علوم الهند والصين .

فلما اتصل العرب بالفرس ترجم بعض الفرس إلى اللغة العربية كتبا شتى فى العلوم والتاريخ والسير والموسيقى والأخلاق ونظام الحكم .

وكان بعض الكتب المترجمة يونانى الأصل ، وبعضها فارسى الأصل ، ولكن الذى يعنينا هنا هو النوع الثانى .

ولقد بدأت ترجمة التاريخ من عهد مبكر ، لحاجة الخلفاء إلى معرفة نظم الحكم الفارسى وأساليبه ، فقد كان فى مكتبة ابن هشام عبد الملك بن مروان كتاب فى تاريخ الفرس وسياستهم ، ترجم من الفارسية إلى العربية[1] .

وكان الوزراء البارزون فى العصر العباسى فرساً ، ولكنهم برعوا فى اللغة

---

(١) تراث فارس ٩٢ ترجمة كفافى فى زملائه .

العربية والأدب العربي ، فجدوا في نشر الثقافة الفارسية ومزجها بأدب العرب ، وربما كان من بواعثهم على ذلك أنهم أرادوا مباهاة العرب بما لهم من ثقافة وأدب .

وقد اشتهر البرامكة بتشجيعهم على نشر الثقافة الفارسية بالمال والتقريب إذ أوصاهم والدهم يحيى بن خالد بقوله .

لا بد لكم من كتاب وعمال وأعوان فاستعينوا بالأشراف ، وأياكم وسفلة الناس ، فإن النعمة على الأشراف أبقى ، وهي بهم أحسن ، والمعروف عندهم أشرف والشكر فيهم أكثر[١] .

وقد كان كتابهم من الفرس .

على أن الفضل بن سهل نقل — قبل أن يكون وزيراً — كتاباً من الفارسية إلى العربية بمشورة من يحيى البرمكي ، فأعجب به ، ودعاه إلى الإسلام لينال ما يستحق من مناصب .

كذلك نقلوا من الفرس الملك والموسيقى والغناء .

وأشهر النقلة نوبخت وابنه الفضل الذي نقل من الفارسية كتبا في النجوم وغيرها ، وعلى بن زياد التميمي ويكنى أبا الحسن ، نقل من الفارسية كتاب زيج الشهريار ، والحسن بن سهل كان من المنجمين والترجمين ، وإسحاق بن يزيد نقل سيرة الفرس المعروفة بأخبار نامه ، وعبد الله ابن المقفع ترجم كتاب التاج في سيرة كسرى أنوشروان و « خدا ينامه » في تاريخ الفرس من مبدأ ملكهم إلى نهايته وسماه (تاريخ ملوك الفرس) و (آيين نامه) أي نظام الفرس وعاداتهم وكتاب (مزدك) ، ومما ترجم أبان بن عبد الحميد كتاب (سيرة أردشير) وكتاب مزدك وكتاب عن (بوذا) .

كذلك ترجم آخرون عهد أردشير ، وكتاب موبذ موبذان وكتاب أدب الحرب وتوقيعات كسرى .

وقد استقى المؤلفون تاريخ الفرس من الكتب التي ترجمها ابن المقفع وغيره ،

---

(١) الوزراء والكتاب ٢١٥ .

فالمسعودي يذكر أنه قرأ بمدينة (أصطخر) سنة ٣٠٣ ﻫ كتابا عظيما فى أخبار ملوك الفرس وسياستهم وأحوالهم لم يجدها فى كتبهم التى قرأها من قبل مثل (خدا ينامه) وآيين نامه وكهناما) وغيرها ، وحمزة الأصبهاني يعدد ثمانية كتب فى تاريخ الفرس استمد منها ما كتبه فى تاريخهم ، منها (سير ملوك الفرس) ترجمة ابن المقفع .

ونجد فى كتاب (التاج) المنسوب إلى الجاحظ اقتباسا كثيراً جداً من نظم الفرس وعاداتهم وسلوكهم ، يخالطه اقتباس من المأثور عن العرب فى الجاهلية والإسلام .

وليس من شك أن الفرس الذين ترجموا من الفارسية إلى العربية ، والذين ألفوا فى العربية مؤلفات شتى فى أنواع المعرفة كان لهم نصيب عظيم فى توجيه الحركة العملية والسير بها إلى الإمام .

وحينما نقول إن لهم نصيباً عظيما فإنما نعترف بآثارهم ، ونشيد بفضلهم ، ولا نتناسى الطبرى والزمخشرى والرازى والبخارى والبيرونى والفارابى وابن سينا وغيرهم من سنذكر أسماءهم ، لكننا لا ننسب الفضل كله إلى الفرس فنغمط العرب حقهم من الفضل كما فعل ابن خلدون ومن ساروا على أثره .

دعوى ابن خلدون :

قال ابن خلدون :

من الغريب الواقع أن حملة العلم فى الإسلام أكثرهم من العجم ، سواء فى ذلك العلوم الشرعية والعلوم العقلية ، إلا فى القليل النادر ، وإن كان منهم العربى فى نسبته فهو عجمى فى لغته ومرباه ومشيخته ، مع أن الملة عربية وصاحب شريعتها عربى .

ثم يعلل ذلك بقوله :

والسبب أن الملة فى أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة ، لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة . وإنما أحكام الشريعة التى هى أوامر الله ونواهيه كان الرجال ينقلونها فى صدورهم ، وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع

وأصحابه ، والقوم يومئذ عرب ، لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ، ولا دفعوا إليه ، ولا دعتهم إليه حاجة ، وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين . . . .

ثم احتيج إلى وضع التفاسير القرآنية وتقييد الحديث وكثر استخراج الأحكام من الكتاب والسنة ، وكان اللسان قد فسد ، فاحتيج إلى وضع القوانين النحوية ، وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات فى الاستنباط والقياس ، واحتاجت إلى علوم أخرى هى وسائل لها من معرفة قوانين العربية وقوانين الاستنباط والقياس والدفاع عن العقائد بالأدلة ، فصارت هذه العلوم كلها علوما ذات ملكات محتاجة إلى التعليم فاندرجت فى جملة الصنائع .

وقد كنا قدمنا أن الصنائع من منتحل الحضر ، وأن العرب أبعد الناس عنها ، فصارت العلوم حضرية ، وبعد عنها العرب .

والحضر فى ذلك العهد هم العجم أو من فى معناهم من الموالى وأهل الحواضر الذين حاكوا العجم فى الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف ، لأنهم أهل حضارة راسخة منذ دولة الفرس . فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسى من بعده والزجاج من بعدهما ، وكلهم عجم فى أنسابهم ، وإنما ربوا فى اللسان العربى ، فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب ، وصيروه قوانين وفنا لمن بعدهم .

وكذا حملة الحديث الذين حفظوه من أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربى .

وكان علماء أصول الفقه كلهم عجماً ، وكذا حملة علم الكلام وأكثر المفسرين ، ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم ، وظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم :

« لو تعلق العلم بأكناف السماء لناله قوم من أهل فارس » .

أما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا إليها عن البداوة فشغلتهم الرياسة فى الدولة العباسية ، وما دفعوا إليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم ، فإنهم كانوا أهل الدولة وحاميتها وأولى سياستها ، مع ما يلحقهم من الأنفة عن

الانتحال للعلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع ، والرؤساء أبداً يستنكفون من الصنائع والمهن وما يجر إليها . وتركوا ذلك إلى من قام به من العجم والمولدين ، وما زالوا يرون لهم حق القيام به فإنه دينهم وعلومهم ، ولا يحتقرون حملتها كل الاحتقار ، حتى إذا خرج الأمر من العرب جملة وصار للعجم ، صارت العلوم الشرعية غريبة النسبة عند أهل الملك ، بما هم عليه من البعد عن نسبتها .

وأما العلوم العقلية فلم تظهر فى الملة إلا بعد أن تميز حملة العلم ومؤلفوه ، واستقر العلم كله صناعة ، فاختصت بالعجم ، وتركتها العرب ، وانصرفوا عن انتحالها ، فلم يحملها إلا المعربون من العجم شأنها شأن الصنائع[١] .

فهو يرى أن حملة العلوم — إلا القليل النادر — من العجم ، وبخاصة من الفرس ، وأن العربى منهم فى نسبه أعجمى فى بيئته وتعلمه ومعرفته بلغة العجم ، وأخذه من علمائهم .

ويعمم حكمه هذا على العلوم التى كانت معروفة فى ذلك الوقت ، ويمثل بالعلوم الدينية من تفسير وحديث وأصول وعقائد ، وبالعلوم اللسانية من نحو وصرف ولغة وبالعلوم الكونية التى ازدهرت بعد ذلك ، ويعلل اختصاص العجم بالعلوم وتخلف العرب عنهم بثلاثة أسباب .

١ — كان العرب أهل بداوة فى الوقت الذى كان فيه العجم أهل حضارة ، والبداوة لا تقتضى العلوم ، وإنما تقتضيها الحضارة ، فلما دعت الحاجة إلى وضع التفاسير وتدوين الحديث واستنباط الأحكام من القرآن والسنة ووضع القواعد النحوية تقدم العجم العرب ، لأنهم أصحاب ملكات راسخة من قبل .

٢ — لما تحضر العرب شغلهم الملك والحكم والسياسة والرياسة عن الاشتغال بالعلوم فاشتغل بها العجم .

٣ — استنكف العرب وهم أهل الرياسة من ممارسة العلوم ، لأنها من أنواع

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٤٨٠

الحرف والصنائع ، وتركوها للاعاجم ، ولم يجدوا فى ذلك حرجاً ولا بأساً لأن الدين لهم جميعاً ، ولأن العلوم أعجمية النسبة .

أما الذين وافقوا ابن خلدون على رأيه فكثير منهم برون إذا يقول : لو أنك نزعت من العلوم العربية نصوب علماء الفرس فيها لنزعت خير نصيب ، ومنهم فون كريمر إذ يقول : لقد وضع النحو العربى أجانب من الآراميين والفرس ، لحاجتهم إلى تعلم العربية كتابة وقراءة . ويغلو بولُ دى لاجارد فى قوله إن المسلمين الذين برعوا فى العلوم آريون كلهم وليس فيهم سامى واحد[1] .

مناقشة ابن خلدون ومؤيديه :

من التجنى على العرب وغمطهم حقهم أن يتناسى ابن خلدون والمتأثرون به جهود العرب العظيمة فى مجال العلم ، وأن يتدارك حكمه الجائر فيقول : إن المشتغلين بالعلوم من العرب كانوا قلة نادرة ، وبهذا يعزو الفضل كله إلى العجم .

(١)

وسيتبين لنا فى غير تعصب أن العرب وضعوا بعض العلوم وألفوا فيها قبل أن يتصلوا بالعجم ، وأنهم ساهموا بنصيب كبير فى التأليف بعد اتصالهم بالأمم من فرس وغيرهم .

١ — العلوم الشرعية :

إذا كان أبو حنيفة فارس الأصل فإن الأئمة الثلاثة الآخرين مالكا والشافعى وابن حنبل عرب خلص .

وحسبنا أن نلاحظ أن أبا حنيفة تلقى أكثر علمه على حماد بن أبى سليمان ، وحماد هذا ينتسب بالولاء إلى قبيلة أشعر اليمنية ، وقد تلقى حماد على عربيين يمنيين هما إبراهيم النخعى وعامر الشعبى ، وتلقى هذان عن عرب هم شريح بن الحارث

---

(١) تراث فارس ٣٧٠ — ٣٧٣ ترجمة يعقوب بكر . والحضارة الاسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية فوق كويمر ٩٠

البكدى ، وعلقمه بن قيس النخعى والأسود بن يزيد النخعى ومسروق بن الأجدع الهمدانى ، وهؤلاء الأربعة أخذوا عن على بن طالب . وعبد الله بن مسعود ، وهما من صفوة العرب .

ثم ننتقل إلى ملاحظة ثانية هى

أن أشهر تلاميذ أبى حنيفة ثلاثة : أبو يوسف ومحمد وزفر . فأما أبو يوسف وزفر فهما عربيان ، وأما محمد بن الحسن الشيبانى فهو من الموالى ونسبته إلى شيبان بالولاء .

وخليق بنا ألا ننسى من علماء التشريع والقضاء هؤلاء العرب : ابن عباس وعلى بن أبى طالب ومعاذ بن جبل وأبا الدرداء والأوزاعى وعمر بن عبد العزيز وأمثالهم .

وإذا فقد استبان أن ثلاثة من أصحاب المذاهب الأربعة عرب ، وأن اثنين من تلاميذ أبى حنيفه الثلاثة عربيان ، وأن أكثر من استقى منهم أبو حنيفة عرب ، وأن كثيراً من علماء التشريع والقضاء من العرب .

وليس من الانصاف أن نتناسى أن أول من ألف فى الفقه الإسلامى عربى هو مالك بن أنس .

وإذا كان من علماء الأصول عجم ، فإن الذى وضع العلم ، وسبق إلى التأليف فيه عربى صريح هو الشافعى ، حتى ليقال إن نسبته إليه كنسبة المنطق إلى أرسطو ونسبة العروض إلى الخليل

وإذا كان البخارى فارسيا فإن مسلم بن الحجاج وابن لهيعة عربيان .

٢ — العلوم اللغوية

واشتهر بها من أبناء الفرس سيبوية والكسائى وأبى على الفارس والزجاج والفراء وابن جنى وابن فارس .

واشتهر بها من العرب الخليل بن أحمد والمازنى وابن دُرَيْد والمبرد والأزهرى والنضر بن شميل والضبى .

ومن الانصاف أن نذكر سبق الخليل بن أحمد الفراهيدى ، فهو عربى صميم ، وهو أول من دون كتابا فى النحو أملاه على تلميذه سيبويه وهو أول من استنبط أوزان الشعر العربى وحصرها فى ستة عشر بحراً نقلها الفرس إلى لغتهم فيما بعد ، ونظموا عليها كما سنبين فى الفصل الأخير .

٣ — الرواية والدراسة الأدبية :

إذا كان من أبناء الفرس من برع فيها مثل أبى عبيدة معمر أبى المثنى وحماد وخلف الأحمر وأبى عمرو الشيبانى والتبريزى والجرجانى فقد برع فيها من العرب كثير ، منهم قتادة بن دعامة — من رواة العصر الأموى قالوا عنه : لم يأتنا شىء من علم العرب أصح مما أتى به قتادة — وأبو عمرو بن العلاء — أعلم الناس بالعربية والقراءات وأيام العرب وأشعارها — والأصمعى وأبو زيد الأنصارى والمفضل الضبى ومحمد بن سلام الجمحى والجاحظ وأبو حيان التوحيدى وأبو الفرج الأصفهانى

٤ — علم الكلام والفلسفة : —

إذا كان الذين يغضون بتخلف من العجم فى علم الكلام والفلسفة ، يضربون المثل بواصل بن عطاء وعمرو بن عُبَيْد وأبى الهذيل العَلّاف والنظام الفارابى والرازى وابن سينا ، فإنا نضرب المثل من العرب ببشر ابن المعتمر والجاحظ وثمامة بن الأشرس النميرى ، وجعفر بن مبَشِّر الثقفى ، وجعفر بن حرب الهمدانى والحسن البصرى ، وأحمد بن أبى داود ، ثم بالكندى وأبى حيان التوحيدى .

٥ — التاريخ :

نذكر من المؤرخين الفرس الطبرى وابن مسكويه والبلاذرى وابن خلكان ، لكننا لا ننسى أن كثيرا من المدونين الأوائل للسيرة النبوية عرب مثل أبان بن عثمان وعروة بن الزبير بن العوام ، وشرحبيل بن سعد وعبد الله بن البكر بن حزم ، وعاصم ابن عمر بن قتادة ، وابن شهاب الأزهرى .

ولا ننسى أن كثيراً من المدونين الأوائل للتاريخ الإسلامى عرب مثل أبى مخنف ط بن يحيى ، وسيف بن عمر ، والزبير بن بكار ، والهيثم بن عدى الذى سبق الطبرى

بترتيب الحوادث حسب السنين ، وقد اعتمد الطبرى على كتب هؤلاء فيا اعتمد عليه من مراجع ومصادر .

كذلك اشتهر من مدونى الأنساب عرب مثل محمد بن السائب الكلبى وابنه هشام وأبى اليقظان النسابة .

ولا يصح أن ننسى أمثال ابن هشام والمسعودى وأبى الفرج الأصفهانى .

(٢)

على أن ابن خلدون والمتأثرين برأيه نسوا أو تناسوا أن العلماء المنسوبين إلى الفرس يرجع كثير منهم إلى أصل فارسى بعيد أو شبه بعيد ، لأن سلتهم بنسبهم تعتمد على الجد أو ما بعده ، وبعضهم يمت إلى الفرس من جهة أبيه وحده أو من جهة أمه وحدها ، فنصفهم الآخر عربى .

وهؤلاء وأولئك عرب فى لغتهم وفى ثقافتهم ، وفى دينهم ، ومتأثرون بالمجتمع العربى الإسلامى إلى حد بعيد ، ولولا الإسلام والحرية التى نعموا بها والتشجيع الذى كلفه المسلمون لهم وحفزوا به عزائمهم لولا ذلك ما انتجوا انتاجهم الذى رفع من أقدارهم .

ويكفى أن نضرب المثال بالليث بن سعد أحد أئمة الفقه فى مصر ، فان أصله البعيد من أصفهان بفارس ، وقد وفد أهله على مصر ، ثم ولد فى قلقشندة سنة ٩٤ هـ . وتعلم على شيوخ مصر ، ثم رحل إلى الحجاز وسمع من شيوخه ، وشخص إلى العراق ودرس على علمائه ، ثم عاد إلى مصر واستقر بها ، فعلاقته بالفرس لا تتجاوز النسب لأن مولده ومنشأه وحياته كلها فى بيئة عربية ، وثقافته عربية إسلامية .

وهذا شأن كثير من علماء العجم فى الاسلام

(٣)

ولسنا نوافق ابن خلدون على ان العربى من العلماء عجمى فى لغته ومرباه ومشيخته

الأمر تناسى أن البيئة لم تكن عربية خالصة ولا عجمية خالصة ، بل كانت مزيجا من هذا وذاك فى كثير من مظاهر الحياة .

ثم إن الصواب جانبه فى دعواه أن هؤلاء العلماء العرب كانوا عجما فى لغتهم ، لأن أكثرهم لم يكن يعرف غير العربية ، على أنه يناقض نفسه فى قوله إن سيبويه والفارسى والزجاج عجم فى أنسابهم ، وإنما ربوا فى اللسان العربى ، فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب ، وصيروه قوانين وفنا لمن بعدهم .

فهو يرى البيئة هنا متأثرة بالعرب ويراها من قبل عجمية اللغة والمظاهر والأساتذة

(٤)

وإذا كنا نوافقه على بعض تعليله لكثرة العلماء من العجم ، فانا نخالفه فى دعواه أن العرب انفوا — لانهم سادة — من الاشتغال بالعلم وتخلوا عنه للعجم .

ذلك أن للعرب فى تاريخ العلم مجدا متألقا لايخبو ، فقد عكفوا على أن يتعلموا منذ شرح الله صدورهم للإسلام ، ووجدوا فى طلب العلم عبادة واستجابة لدعوة دينهم ، وكانوا بطبيعتهم متأهبين للتحضر والترقى ، فأقبلوا على مناهل العلم اقبالا ، ولهذا كانت ثقافتهم فى العصر الأموى — من قبل أن ينقلوا عن الفرس واليونان والهنود شيئا ذا قيمة — متعددة الالوان ، وكان علماؤهم يملأون الانصار .

ولم يأنف العرب أن يتلقوا الثقافة على بعض الموالى واليهود والنصارى منذ العصر الأموى[1] .

وكان بعض الخلفاء الأمراء يباهون بعلمهم ، ويقربون إليهم العلماء فى العصر الأموى والعباسى ، حتى صار تقديرهم للعلماء مثلا رائعا فى الشغف بالمعرفة وتشجيع العلماء .

فمن أين تأتى لابن خلدون أن العرب كانوا يأنفون من انتحال العلم فتخلوا عنه للعجم ؟

---

(١) أدب السياسة فى العصر الاموى للمؤلف .

ولقد تزداد الحقيقة انكشافاً حينما تتنبه إلى أن كثيراً من العلماء عرب خلص ، لكنهم ينسبون إلى بلدان أعجمية ، فيلتبس نسبهم أو يخفى ، ويظن أنهم من العجم . من هؤلاء مسلم الحجاج النيسابوري ، فهو عربي من قُشَير ، لكن أهله كانوا يقيمون بنيسابور فنسب إليها ، ومنهم أبو الفرج الاصفهاني من بني أمية ، لكنه ولد في أصفهان فنسبوه إليها ، ومنهم أبوداود السجستاني ، مؤلف السنن فهوعربي من الأزد ، منسوب إلى سجستان .

(٥)

على أن أولئك العلماء من أبناء الفرس قد اصطنعوا العربية لغة علمية لهم ، وألفوا في العلوم العربية نفسها وفي العلوم الدينية ، فهم اذا عرب ، عرب بأفهم ومؤلفاتهم ، فمن التعصب أن نعدهم غير عرب ، وقد سبق اليونان إلى الحكم على كل من يتكلم اليونانية بانه يوناني .

وإذا فقد استبان أن ابن خلدون لم يكن دقيقاً في حكمه وتعميمه ، ولا يعنينا الدافع إلى هذا الحكم أكان تعجلا أم تأثراً برأي آخر أم تعصباً على العرب .

وأما الحديث الذي ذكره :

« لو تعلق العلم بأكناف السماء لناله قوم من أهل فارس » فليس من الصحة على شيء ، وقد سبق في دراسة الشعوبية أن هذا الحديث وأشباهه أحاديث مفتراة .

الفصل السابع

اثر الفرس فى الأدب العربى

إقبال الفرس على اللغة والأدب :

منذ أواخر القرن الهجرى الأول تساندت عدة عوامل على فسح المجال لأبناء الفرس والمتأثرين بأدبهم ليظهر تأثيرهم فى الأدب العربى شعره ونثره ، فلما استقام الملك لبنى العباس ، وتبوأ الفرس فيه مكانا عليا ، ازداد مجال تأثيرهم اتساعا ، وازدادت مظاهرهم فى الأدب وضوحا .

ذلك أن كثيرا من كتاب الدولة كانوا فرسا ، فقد كتب عبد الحميد بن يحى لبنى أمية . وكان منصب الكاتب يقتضيه أن يكون واسع الثقافة ، متجدد المعرفة ، لأنه يعرض على الخليفة والوالى ما يرسل إليه ، ويكتب عنه ما يرسل منه ، فلم يكن بد للكتاب من اجادتهم العربية ومعرفتهم بالأدب الفارسى ، لهذا الموا بحكم العرب وحكم الفرس ، ووقفوا على تاريخ العرب وتاريخ الفرس ، وجمعوا بين حكم الخلفاء الراشدين وأكثم بن صيفى وحكم بزرجمهر وكسرى أنوشروان .

يدل على تنوع ثقافتهم قول الجاحظ فى بيان عيوبهم : إن الواحد منهم يتوهم إذا عرض جبته وطول ذيله وعقص على خده صدغة ، أنه المتبوع لا التابع ، ثم إن الناشىء منهم إذا حفظ من العلم ملحة ،وروى لبزرجمهر أمثاله ، ولأرد شير عهده ، ولعبد الحميد رسائله ، ولابن المقفع أدبه ، وصير كتاب مزدك معدن علمه . . . أنه الفاروق الأكبر فى التدبير . . . فيكون أول طعنه على القرآن فى تأليفه ، والقضاء عليه بتناقضه ، ثم يظهر ظرفه بتكذيب الأخبار ، وتهجين من نقل الآثار ، . . . . ثم يشيد بسياسة أردشير بابكان وتدبير أنوشروان واستقامة البلاد لآل ساسان ، فإن حذر العيون وتفقده المسلمون رجع بذكر السنن إلى المعقول ، وحكم القرآن إلى

المنسوخ ، ونفى ما لا يدرك بالعيان ، وشبه بالشاهد الغائب[١] . ثم أنه كثر فى العصر العباسى أبناء الفرس العلماء بالعربية والفارسية ، وكان فى العصر نفسه عرب يعرفون الفارسية ، وهؤلاء وأولئك كان لهم شعر ونثر فيه أفكار فارسية فى قوالب عربية .

من الطائفة الأولى ابن المقفع وسهل بن هارون والفضل بن سهل وموسى بن سيار الأسوارى ، يذكر الجاحظ[٢] أنه كان قصاصا من أعاجيب الدنيا ، وكانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية يجلس فى مجلسه المشهور به فتقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يفسرها للفرس بالفارسية ، فلا يدرى بأى لسان هو أبين .

وهناك كثير من أبناء الفرس كانوا قد برعوا فى اللغة العربية وأجادوا الأدب العربى ، فأبو سلم الخرسانى كان يحفظ كثيرا من الشعر ، وأبو سلمة الخلال كان فصيحا عالما بالشعر والأخبار والجدل ، وكان البرامكة ذوى بلاغة عربية مشهورة ، يقول سهل بن هارون فى وصف يحيى بن خالد البرمكى وابنه جعفر :

لو كان كلام يتصور درا ، أو يحيله المنطق السرى جوهرا لكان كلامهما ، والمنتقى من لفظهما .

وقد عهد الرشيد إلى وزيره يحيى بن خالد البرمكى أن يشاركه فى التوقيعات ، فتحول التوقيع إلى منصب ، من توقيعات جعفر بن يحيى البرمكى لعامل كثر التظلم منه :

(قد كثر شاكوك ، وقل شاكروك فاما اعتدلت وأما اعتزلت) .

ومن توقيعاته إلى طلب مستمنح وصله مرات من قبل .

دع الدرع يدر لغيرك كما در لك .

وقد ذاع عن البرامكة تشجيعهم للبلغاء وحباؤهم للشعراء وتحبيبهم إلى بنى

---

(١) ذم أخلاق الكتاب ٤٢ من ثلاث رسائل للجاحظ نشرها يوشع فنكل .

(٢) البيان والتبيين ١ — ٣٦٨

جنسهم أن يتفوقوا فى اللغة العربية ، ليحلوهم فى الوظائف الكبار كما يتبين من أخبارهم فى كتاب « الوزراء والكتاب » وغيره .

ومن الطائفة الثانية الشاعر العبامى كلثوم بن عمرو المشهور بالعتابى فهو عربى من تغلب ، نهل من ثقافته الفرس ؛ واستهوته معانيهم فنقل بعض كتبهم إلى العربية ولما سئل عن حرصه على النقل قال :

« إن المعانى فى كتب العجم واللغة والبلاغة فى العرب »



١ — مظاهر فى النثر

١ — القصص :

ترجم كثير من الفرس الذين حذقوا اللغة العربية كتبا شتى من الفارسية إلى إلى العربية . يهمنا منها الآن كليلة ودمنة الذى ترجمه ابن المقفع ، وقصة رستم واسفنديار التى ترجمها جبلة بن سالم[١] ، وهزار أفسانه - ألف خرافة - وهو أصل من أصول ألف ليلة وليلة ، وكتاب خرافة ونزهة ، وكتاب نمرود وغيرها .

أما كليلة ودمنة فإنه قد نقل فى أيام كسرى أنوشروان من الهندية إلى الفهلوية وكان الباحثون فى شك من ذلك ، حتى عثر الأستاذ هرتل على بعض الأصول الهندية الأولى ، كما عثر غيره على بعض أبواب من الكتاب مفرقة . ويرجحون أن باب (بعثة برزوية) وباب « ملك الجرذان » من زيادات الفرس ، وأن فى الكتاب فصولا زادها ابن المقفع[٢] .

ولا شك أن كليلة ودمنة أول كتاب يقص على ألسنة الحيوان قصصا مفصلة متداخلة ويورد على ألسنتها حكما وأمثالا وعظات ، ثم ألفت كتب شتى على غراره مثل (الصادح والباغم) لابن الهبارية و (سلوان المطاع) لابن ظفر و (فاكهة الخلفاء ومناظرة الظرفاء) لابن عربشاه ، وهى مطبوعة كلها .

ونظمه شعراً أبان اللاحق ، وابن الهبارية ، وإذا كان الأول لم يتبق منه إلا مقطوعات فإن الثانى بقى وطبع . من نظم أبان للكتاب قوله :

هذا كتاب كذب ومحنة   وهو الذى يدعى كليلة دمنه
فيه دلالات وفيه رشد   وهو كتاب وضعته الهند
فوصفوا آداب كل عالم   حكاية من ألسن البهائم
فالحكماء يعرفون فضله   والسخفاء يشتهون هزله

---

(١) الفهرست ٣٠٥

(٢) ضحى الإسلام ١ — ٢١٦

وهو على ذاك يسير الحفظ   لذ على اللسان عند اللفظ[١]

وأما ألف ليلة وليلة فقد ذكر المسعودى أنه فارسى كله ، وتبعه النديم[٢].
ثم تعددت الآراء فى أصل الكتاب ، فمن قائل إن أصله فارسى ، وقائل إن أصله هندى ، وذاهب إلى أنه حكايات فارسية وهندية ، وهناك من رأى أنه كتب كله فى العصر العباسى على أثر انتشار أخبار الفرس وأقاصيصهم على السنة العامة ، ثم زيدت عليه قصص أخرى فى أماكن وأزمان مختلفة وبالغ بعض الباحثين فنفى عن الكتاب أى أثر فارسى أو هندى . ثم أيد المسعودى فى روايته عالم ألمانى مستشرق . ولكن العالم الانجليزى (لين) قرر أن الكتاب كله بقلم كاتب واحد عاش بين سنة ١٤٧٥ و ١٥٢٥ م وقسم العالم الألمانى (ولر) الكتاب قسمين : قسم كتب فى مصر وقسم كتب فى بغداد ، وقسمه بعضهم ثلاثة أقسام : قسم نقل من الأصل الفارسى (هزار أفسانه) وقسم كتب فى بغداد وقسم ثالث كتب فى مصر . وعقب المستشرق البلجيكى (شوفان) بأن القصص التى كتبت فى مصر تولى كتابة بعضها يهود وأغلب الظن أن أرجح هذه الأقوال هو أن الأصل الأصيل للكتاب القصص الفارسية . وهى التى ترد فيها أسماء وأحداث فارسية مثل شهرزاد وشاه زمان ، وبه قصص هندية مثل قصة التاجر العارف بلغة الحيوان .

وهذا القسم الفارسى المخلوط بدخيل من الهندى يصور ميل الأمتين إلى تضخيم الخيال ، والتصديق بعجائب المخلوقات وغرائب الأحداث ، كالأسماك الكبيرة الحجم المختلفة الشكل وطير الرخ العظيم الحجم .

وقد ترجمت هذه القصص إلى العربية فى القرن الثالث الهجرى ثم زيد عليها بعد ذلك قصص فى بغداد وفى القاهرة .

وقد تأثر العرب بألف ليلة وليلة ، فألفوا قصصاً على غراره أضافوها إليه ، بعضها كتبوه فى بغداد وبعضها كتبوه فى القاهرة . ثم ألفوا قصصا أخرى ، كما

---

(١) فى كتاب الأوراق للصولى مخطوط بدار الكتب (٩٥٤ تاريخ) طائفة من نظم أبان الكتاب .

(٢) مروج الذهب والفهرست ،

فعل الجهشيارى إذ ألف كتابا فيه ألف سمر من أسمار العرب والعجم — الفرس والروم ، واجتمع له أربعمائة ليلة وثمانون ، كل ليلة سمر تام يحتوى على خمسين ورقة ولـكن المنية عاجلته قبل إكماله . وقد رأى ابن النديم منها عدة أجزاء[١] .

وكذلك ألفوا قصصاً عن أخبار العرب وحروبهم فى الجاهلية مثل قصة البراق وقصة عنترة . وسيف بن ذى يزن . ثم ألفوا قصصاً إسلامية مثل قصة مجنون ليلى والظاهر بيبرس .

٢ — الحـكم والأخلاق :

ترجم كثير من الفرس الذين حذقوا اللغة العربية كتباً شتى من الفارسية إلى العربية ، فى الحـكم والاخلاق والسلوك ، فترجم ابن المقفع كتاب (الأدب الـكبير) وكتاب (الأدب الصغير) وترجم غيره كتاب أردشير فى التدبير ، وتوقيعات كسرى ، وكتاب أدب الحرب

ومن هنا ترددت حكم الفرس وآراؤهم السلوكية منسوبة إلى أردشير ويزدجرد وبهرام وسابور وأنوشروان وبزرجمهر وغيرهم ، وترددت فى البيان والتبيين وعيون الأخبار والعقد الفريد وما شاكلها من كتب الأدب العربى وهى حكم تلائم الطبع العربى الذى يميل إلى الإيجاز والتركيز ، وإن خالفته حيناً فى دلالتها على كد الفـكر وطول التروى والتدبير والإعداد ، لأن هذا نمط مغاير لـكلام العرب المنبعث عن بديهة وارتجال .

من الأفـكار الجديدة التى تدل على العمق فى التفكير والتأثر بالعلوم العقلية قول ابن المقفع فى الأدب الـكبير :

إن رأيت صاحبك مع عدوك فلا يغضبك ذلك ، فإنما هو أحد رجلين : إن كان رجلا من إخوان الثقة فأنفع مواطنه لك أقربها من عدوك ، لشر يكفه عنك ، وعودة يسترها منك ، وغائبة يطلع عليها لك ، فأما صديقك فما أغناك أن يحضره

(١) الفهرست ٣٠٤

ذو ثقتك وإن كان رجلا من غير خاصة إخوانك فبأى حق تقطعه من الناس ، وتكلفه ألا يصاحب ولا يجالس إلا من تهوى ؟

ومنها قوله :

إبذل لصديقك دمك ومالك ، ولمعرفتك رفدك ومحضرك ، وللعامة بشرك وتحننك ، ولعدوك عدلك ، واضنن بدينك وعرضك عن كل أحد .

اخزن عقلك وكلامك إلا عند إصابة الموضع ، فإنه ليس فى كل حين يحسن كل الصواب ، وإنما تمام إصابة الرأى والقول بإصابة الموضع ، فإن أخطأت ذلك ، أدخلت المحنة على علمك حتى تأتى به — إن أتيت به فى غير موضعه — وهو لا بهاء له ولا طلاوة له ، ليعرف العلماء حين تجالسهم أنك على أن تسمع أحرص منك على أن تقول .

تحفظ فى كلامك ومجالسك من التطاول على الأصحاب ، وطب نفساً عن كثير مما يعرض لك فيه صواب القول والرأى ، مداراة . لئلا يظن أصحابك أن ما بك التطاول عليهم .

وكذلك قوله :

أعلم أن الملك ثلاثة : ملك دين ، وملك حزم ، وملك هوى ، فأما ملك الدين فإنه إذا أقام للرعيــة دينهم ، وكان دينهم هو الذى يعطيهم الذى لهم ، ويلحق بهم الذى عليهم ، أرضاهم ذلك ، وأنزل الساخط منهم منزلة الراضى فى الإقرار والتسليم .

وأما ملك الحزم فإنه يقوم به الأمر ، ولا يسلم من الطعن والتسخط ، ولن يضر طعن الضعيف مع حزم القوى .

وأما ملك الهوى فلعب ساعة ودمار دهر .

ومنها مانقله الجاحظ :

قيل لبزرجمهر الفارسى : أى شىء أستر للعىّ ؟

قال : عقل يجمله ، قالوا : فإن لم يكن له عقل ؟ : قال : فمال يستره .

قالوا : فإن لم يكن له مال ؟ . قال : فإخوان يعبرون عنه . قالوا : فإن لم يكن له إخوان يعبرون عنه ؟ قال : فيكون عيياً صامتاً . قالوا : فإن لم يكن ذا صمت ؟ . قال : فموت وَحِيٌّ (سريع) خير له من أن يكون فى دار الحياة[1] .

ومنها ما ذكره ابن قتيبة :

يروى عن بزرجمهر قوله : إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق ، فإنها لا تَفْنَى ، وإذا أدبرت عنك فأنفق ، فإنها لا تبقى ، أخذه شاعر فقال :

فأنفق ـ إذا أنفقت ـ إن كنت موسرا وأنفق ـ على ما خَيَّلَتْ ـ حين تُعْسِرُ
فلا الجود يُفْنِى المال والجد مقبل ولا البخل يُبْقِى المال والَجدُّ مدبر[2]

وقيل لابن المقفع : لم لا تطلب الأمور العظام ؟ فقال : رأيت المعالى مشوبة بالمكاره ، فاقتصرت على الخمول ضناً بالعافية .

أخذه العتابى فقال :

دعينى تجئنى ميتتى مطمئنة ولم أتجشم هول تلك الموارد
فإن جسيمات الأمور مشوبة بمستودعات فى بطون الأساود

وهذه فقرات من كتاب (التاج فى أخلاق الملوك) المنسوب إلى الجاحظ[3] يتبين منها لون من النظم والأخلاق المنقولة عن الفرس :

(ا) ومن حق الملك ألا يحدَّث على طعامه بحديث جد ولا هزل ، وإن ابتدأ بحديث فليس من حقه أن يعارض بمثله ، وليس فيه أكثر من الاستماع لحديثه والأبصار خاشعة . والشيء ما كانت ملوك ساسان إذا قدمت موائدهم زمزموا عليها ،

---

(١) البيان والتبيين ١ — ٧ بزرجمهر : حكيم فارس هو الذى قص تاريخ نسخ كتاب كليلة ودمنة وترجمته من كتب الهند .
(٢) عيون الأخبار ٣ — ١٧٩
(٣) ١٨ و٤٧ و٩٠ و٩٤

فلم ينطق ناطق بحرف حتى ترفع ، فإن اضطروا إلى كلام كان مكانه إشارة وإيماء يدل على الغرض الذى أرادوا والمعنى الذى قصدوا .

(ب) فأما كل ما أمكن الملك أن ينفرد به دون خاصته فمن أخلاقه ألا يشارك أحداً فيه ، كذا حكى عن انوشروان ومعاوية بن أبى سفيان ، وبعض أهل العلم يحكى عن الرشيد ما يقرب من هذا .

ألا ترى أن الأمم الماضية من الملوك لم يكن شىء أحب إليهم من أن يفعلوا شيئاً تعجز عنه الرعية ، أو تزيوا بزى ينهون الرعية عن مثله ؟ .

فمن ذلك أردشير بن بابك وكان أنبل ملوك بنى ساسان كان إذا وضع التاج على رأسه لم يضع أحد فى المملكة على رأسه قضيب ريحان متشبهاً به ، وكان إذا ركب فى لبسة لم ير على أحد مثلها ، وإذا تختم بخاتم حرام على أهل المملكة أن يتختموا بمثل ذلك الفص وإن بعد فى التشابه .

وهذا أبو أُحَيْحة سعيد بن العاص كان إذا اعتم بمكة لم يعتم أحد بعمة ما دامت على رأسه .

وهذا الحجاج بن يوسف كان إذا وضع على رأسه طويلة (قلنسوة عالية) لم يجترئ أحد من خلق الله أن يدخل وعلى رأسه مثلها .

وهذا عبد الملك بن مروان كان إذا لبس الخف الأصفر لم يلبس أحد من الخلق خفاً أصفر حتى ينزعه .

(حـ) ومن حق الملك إذا عطس ألا يشمت ، وإذا دعا لم يؤمن على دعائه .

وكانت ملوك الأعاجم تقول : حقيق على الملك الصالح أن يدعو للرعية الصالحة ، وليس بحقيق للرعية الصالحة أن تدعو للملك الصالح ، لأن أقرب الدعاء إلى الله دعاء الملك الصالح .

(د) ومن حق الملك أن يكتم أسراره عن الأب والأم والأخ والزوجة والصديق ، فإن الملك يحتمل كل منقوص ومأنوف[1] ، ولا يحتمل ثلاثة : صفة أحدهم أن يطعن

(١) المأنوف : الرجل المكروه .

فى ملكه ، وصفة الآخر أن يذيع أسراره ، وصفة الآخر أن يخونه فى حرمه .

فأما ما وراء ذلك فمن أخلاق الملك أن تَلْبَسَ خاصته ومن قرب منها على مافيهم وأن تستمع منهم إذا سلموا من هذه الصفات الثلاث .

وكان كسرى أبرويز يقول : يجب على الملك السد أن يجعل همه كله فى امتحان هذه الصفات ، إذ كانت أركان الملك ودعائمه .

ثم ذكر فى تفصيل طريقة كسرى أبرويز فى امتحان رجاله فى حفظ السر وفى حفظ الحرم ، وفى الطمن فى المملكة .

وكتب ابن المقفع لأبى جعفر المنصور كتاباً ألم فيه بما ينبغى على الخليفة أن يراعيه فى سياسة الشعب[1] .

من هذا وصاته بجند خراسان ، لأنهم جند لم يدرك مثلهم فى الاسلام وفيهم منعة ، وهم أهل بصر بالطاعة وفضل عند الناس ، وعفاف نفوس وفروج ، وكف عن الفساد ، وذل للولاة ، ورأى ألا يولى أحد منهم شيئاً من الخراج ، فإن ولاية الخراج مفسدة المقاتلة ، وقال إن فيهم مجهولين أفضل من بعض قادتهم فلو قربوا وأحسنوا إليهم كانوا عدة وقوة .

ومنه إشارته على الخليفة أن يوقت للجند وقتاً يعرفونه فى كل ثلاثة أشهر أو أربعة أو ما بدا له ، فينقطع الاستبطاء والشكوى ، وأن تزداد أرزاقهم ، لأنهم يحتاجون إلى كثرة المال لغلاء السعر ، ورأى ألا يخفى على الخليفة أمر من أخبار الجند وأسرارهم ، وأن يستعين الخليفة على تحقيق ذلك بالنفقة ولا يضن بالمال ، ويستعين بالثقاة النصحاء من رجاله .

وأوصى الخليفة بالكوفة والبصرة ، لأنهم أقرب الناس إلى مشابهته ومعاونته ، وقال أن فى أهل العراق من الفقه والعفاف والعقل والفصاحة ما يندر أن يكون فى غيرهم ، وما انقص من أقدارهم إلا الولاة الأشرار الذين تولوا عليهم .

ويعلل تعليلا لطيفاً لابعاد كثير منهم عن شئون الحكم فى العصر العباسى بقوله :

---

(١) رسائل البلغاء ٤٩ (نشره محمد كرد على)

ثم كانت هذه الدولة ، فلم يتعلق من دونكم من الوزراء والعمال الأب الأقرب فالأقرب ممن دنا منهم ، فوقع رجال مواقع شائنة لجميع أهل العراق حيثما وقعوا من صحابة خليفة أو ولاية عمل أو موضع أمانة أو موطن جهاد ، وكان من رأى أهل الفضل أن يقصدوا حتى يلتمسوا ، فأبطأ ذلك بهم أن يعرفوا أو ينتفع بهم ، فنزلت الرجال عن منازلها ، لأن الناس لا يلقون صاحب السلطان إلا متصفين بأحسن ما يقدرون عليه من الصمت والكلام ، غير أن أهل النقص هم أسعد تصنعا ، وأحلى ألسنة ، وأرفق تلطفاً للوزراء ، أو تمحلا لأن يثنى عليهم من وراء وراء .

وهو فى قوله : إن أهل النقص أشد تصنعاً ، وأحلى ألسنة وأرفق تلطفاً فى معاملة الحكام ، وأبرع تحايلا على أن يثنى عليهم فى غيابهم .

هو فى قوله هذا يصور نفسية طائفة من الانتهازيين الذين يحسون بنقص كفايتهم فيتسلقون رقاب الأكفاء ثم أوصاه بأهل الشام ، وأن يختار منهم من يرجو عنده صلاحا أو وفاء ، لأن تقريبه لهم ينسيهم تشيعهم لبنى أمية ، ورأى ألا يعاملهم كما عاملوا هم أهل العراق من قبل إذ حرموهم فيئهم ، ونحوهم عن المنابر والمجالس والأعمال واعتذر عنهم عما فرط من تأبيهم على دعوة بنى العباس بأنه لم يخرج الملك من قوم إلا بقيت فيهم بقية يتوثبون بها .

وأوصاه بأصحابه الذين هم بهاء فنائه ، وزينة مجلسه ، وألسنة رعيته ، وأعوانه على رأيه ، وموضع كرامته ، والخاصة من شعبه ، وحذره السفلة والانتهازيين (ممن لا ينتهى إلى أدب ذى نباهة ، ولا حسب معروف ، ثم هو مسخوط الرأى ، مشهور بالفجور فى أهل مصره ، قد غبر عامة دهره صانعا يعمل بيده ، فصار يؤذن له على الخليفة قبل كثير من أبناء المهاجرين والأنصار ، وقبل قرابة أمير المؤمنين وأهل البيوتات من العرب ، ويجرى عليه من الرزق الضعف مما يجرى على كثير من بنى هاشم وغيرهم من سروات قريش ، ويخرج له من المونة على نحو ذلك ، لم يضعه بهذا الموضع رعاية رحم ، ولا فقه دين ، ولا بلاء فى مجاهدة عدو ، ولا غناء حديث ، ولا حاجة إليه فى شىء من الأشياء . وليس بفارس ولا خطيب ولا علامة . إلا أنه

خدم كاتباً ، أو حاجباً فأخبر أن الدين يقوم إلا به ، حتى كتب كيف شاء ، ودخل حيث شاء .

لم يقتصر التأثير على الترجمة ، والوقوف عن المعرفة ، بل تعدى ذلك إلى التذوق والمحاكاة والاقتباس .

٣ — التكلف بالمحسنات .

أصطبغت الكتابة بمذهب التكلف بالحلى اللفظية والمعنوية حتى صارت فى القرنين الثالث والرابع تكاد لاتخرج عن هذا المذهب ولم يكن كتاب العرب يكلفون بالصناعة هذا التكلف ، أو يقيمون لهم عليها وقد اشتهر بهذا المذهب كتاب أكثرهم من الفرس ، وحاكاهم كتاب من العرب ، وزعيم هذا المذهب ابن العميد الفارسي ، وقد نشأ فى بيئة فارسية ، وكان يجيد اللغة الفارسية ، ويجيد العربية ، وحاكاه الصاحب بن عباد ، وأبو بكر الخوارزمى ، وبديع الزمان الهمدانى وغيرهم . ثم جاء الحريرى فامعن فى الصناعة إمعانا .

كذلك اتسمت الرسائل بالمقدمات والخواتيم وتنويعها بحسب المقام وبالاكثار من القاب التعظيم والتفخيم .

وأول من استحدث ذلك عبد الحميد بن يحيي فى آخر الدولة الأموية ، ثم حاكاه كتاب العصر العباسى ، وأغرق بعضهم فى التكلف بالمقدمات وألقاب التعظيم .

ـ مظاهر فى الشعر

عرف الشعر العربى فى الجاهلية شاعراً من الموالى هو سُحَيْم عبد بنى الحسحاس، لكنه لم يكن فارسيا .

ثم عرف الشعر العربى فى العصر الأموى عدداً قليلا من الموالى ، فلما كان العصر العباسى كثر الشعراء من الموالى ، ولا سيما الفرس ، حتى زاحموا أبناء العرب وساووهم ، عرف من الفرس أبا نواس ومروان بن أبى حفصة ، وبشار بن برد ، وسَلْما الخاسر ومهيار الديلمى وعرف من النبط أبا العتاهية ومن الروم ابن الرومى .

وحسبنا أن نردد النظر فى (يتيمة الدهر للثعالبى) لنتعرف عشرات من أبناء الفرس مهروا فى قرض الشعر العربى ، نشأ بعضهم فى ظلال الدولة البويهية فى بغداد والعراق وأواسط فارس ، ونشأ بعضهم فى ظلال لدولة الزيارية بطبرستان ، وعاش آخرون فى رعاية الدولة السامانية بخوارزم وخراسان .

وليس يعنينا هنا من اشتهروا بالمغرب والاندلس ومصر ، فإن هذه مناطق بعيدة من العلائق الفارسية العربية التى نتحدث عنها .

ولقد أضاف هؤلاء الشعراء ومن تأثر بهم من العرب ألوانا جديدة فى الشعر العربى .

١ — التوسع فى الغزل المكشوف .

عرف الشعر العربى الغزل المكشوف منذ العصر الجاهلى ، لكنه كان فى نطاق ضيق ولم يشتهر به إلا قلة قليلة من الشعراء ، فلما جاء العصر العباسى اتسعت دائرته ، وكثر قائلوه وتخيروا للتعبير من مشاعرهم كلمات عارية وألفاظا نابية ، وجهروا بما لم يجهر به سابقوهم .

وقد كان بشار بن أول من فتح باب الخلاعة على مصراعيه ، فجهر بما لا يصح الجهر به ، وأقبل الفتيان والفتيات على شعره إقبالا أنذر بالشر كقوله :

فهل كان الغزل بالمذكر محاكاة لتغزل الفرس بالذكور كما يتغزلون بالأناث ؟ لقد شاع في الدراسات الأدبية أن العرب حاكوا الفرس في الغزل بالمذكور حتى صارت الدعوى من كثرة ترد يدها أشبه بالحقيقة . ولكن الحقيقة ليست كذلك ، لأن اللغة الفارسية لاتفرق بين المذكر والمؤنث في الضمائر وأسماء الإشارة والصفات فالضمير (أو) هو أو هي و (تو) معناه أنت أو أنت ، واسم الإشارة (أين) معناه هذا أو هذه ، (وآن) معناه ذلك أو تلك ، وليس في الفارسية إلا اسم موصول واحد (كه) لجميع الحالات ، وإنما يتبين المراد بالسياق . ولعلك توافقني إذا قلت إنه ليس في سياق الشعر الفارسي ما يرجح أن الشاعر يريد بغزله المذكر ، فليت شعري إلى أي شيء استند من قالوا إن الفرس مولعون بالغزل بالمذكر[1] ؟ »

على أن الغزل بالمذكر شاع في العصر العباسي قبل أن يستقيم الشعر الفارسي الجديد ، فكيف تأتى للعرب أن يحاكوا شعرا لم يتجاوز عهد الطفولة ؟ ذلك أن أبا نواس وأضرابه من شعراء الغزل بالمذكر مارسوه قبل القرن الثالث ، وهو العصر الذي بدأ فيه الأدب الفارسي يبعث بعد رقاد طويل ، ويستظل في بعثه هذه بالأدب العربي ويحاكيه أما الأدب الفهلوي فقد كان مجهولا للفرس في العصر العباسي ، ولم يعرف الدارسون منه إلى يومنا هذا إلانتفا وشذرات ، ليس فيها غزل بالمذكر . الحق أن الغزل بالمذكر بدعة ظهرت في العصر العباسي نتيجة لعوامل متعددة من زندقة وإباحية وانحلال ، وكثرة في الغلمان والمخنثين ، وولع أبناء الفرس بهم واسفافهم في التعبير عن عواطفهم المريضة ، ولا ننكر أن بعض العرب حاكوهم في كلفهم بالغلمان والتغزل بهم .

ومن هذا يتضح الفرق بين نشأة الغزل بالمذكر في الشعر العربي محاكاة للشعر الفارسي ، وبين نشأته بتأثير أبناء الفرس الذين قرضوا الشعر العربي ، وكان كثير منهم لا يعرف الفارسية .

ومهما يكن من شيء فإننا نلمح في بعض الشعر العربي الحديث وفي بعض الأغنيات الفصيحة والعامية أثارة من مظهر الغزل بالمذكر في الدلالة على الأنثى بضمير المذكر في الخطاب والغياب .

(١) قصة الأدب الفارسي : حامد عبد القادر .

٣ — التوسع فى الخمريات :

كان العرب يعرفون الخمر فى جاهليتهم ، وكانت ترد إلى بلادهم من جهات شتى ، وكثيراً ما وصفها بعض شعرائهم ، ووصفوا مجالسها وسقاتها ، وتحدثوا عن الندامى وعن القيان اللائى كن يغنين لهم فى مجالس الشراب[١] .

فلما جاء الإسلام حرم الخمر تحريماً ووصفها بأنها رجس من عمل الشيطان ، فكف الشعراء عن وصفها .

ثم عاد بعض الشعراء إلى التغنى بها فى العصر الأموى ، وكان زعيمهم فى المجاهرة بشربها والإكثار من ذكرها الأخطل الشاعر التغلبى النصرانى ولم يكد يستهل العصر العباسى بما صاحبه من حضارة وترف وثراء واطلاق للحريات الفردية ومخالطة عميقة للفرس وغيرهم ، وما نشأ من ذلك من زندقة ومجون ، حتى كثرت أنواع الشراب ، وتمددت مجالسه ، وأقبل ناس عليه فى غير تحرج ، فلهج كثير من الشعراء بالخمريات ، وتزعمهم أبو نواس ففى ديوانه آلاف الأبيات والخمر ، أتى فيها بكل جديد من الفكرة وطريف من الخيال ، وهو الذى ابتدع افتتاح كثير من قصائده بالخمر والدعوة إلى شربها ، والتهكم بالذين يبدأون بالغزل ، وبكاء الأطلال كقوله :

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم[٢]

ومن خمرياته قوله[٣]

أكل الدهر ما تجسم منها وتبقى لبابها المكنونا
ثم شجت فاستضحكت من لآل لو تجمعن فى يد لاقتنينا
فإذا مالمستها فهباء تمنع الكف ما تبيح العيونا
فى كئوس كأنهن نجوم جاريات بروجها أيدينا
طالعات من السقاة علينا فإذا ما غربن يغربن فينا

---

(١) راجع الحياة العربية من الشعر الجاهلى للمؤلف . فصل الخمر .
(٢) القدم : بالفاء الثقيل والقدم : بالقاف الماضى
(٣) الديوان ٣٣٩ (المطبعة العمومية) .

٤ — الزندقة والإلحاد :

ومن هذه الألوان الزندقة والإلحاد ، وقد تقدم الحديث عنها فى فصل خاص .

٥ — التزهيد والوعظ :

من الإنصاف أن نذكر أن من أبناء العجم من قاوموا نزعة الإباحية والخلاعة ، كأبى العتاهية النبطى الأصل .

والحق أنه لم يخترع الشعر الزهدى ، فقد عرفه الأدب العربى قبله ، لكنه زاد على ما سبق به ، وفصل تفصيلا ، وأكثر إكثاراً ، وألح على الناس فى التنفير من اللذة ، والترغيب فى الطاعة والاستقامة ، والتخويف من الموت والعذاب .

كقوله :

طلبتك يادنيا فأعذرت فى الطلب فما نلت إلا الهم والغم والنصب
فلما بدا لى أننى لست واصلا إلى لذة إلا بأضعافها تعب
وأسرعت فى دينى ولم أقض بغيتى هربت بدينى منك إن نفع الهرب

وقد استنشد المأمون أبا العتاهية أجود ما قال فى الموت فأنشده :

أنساك محياك المماتا فطلبت فى الدنيا الثباتا
أوثقت بالدنيا وأنـ ـت ترى جماعتها شتاتا ؟
وعزمت منك على الحيا ة وطولها عزما بتاتا ؟
يامن رأى أبويه فيمـ ـن قد رأى كانا فماتا
هل فيهما لك عبرة أم خلت أن لك انفلاتا ؟
ومن الذى طلب التفلـ ـت من منيته ففاتا ؟
كل تصبحـــــــه المنيـ ـة أو تبيته بياتا

٦ — معان وأخيلة :

على أنهم زودوا الشعر العربى بمعان وأخيلة جديدة كقول بشار :

يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم الأذن كالعين توفى القلب ما كانا

وقول أبي نواس :

لست أدرى أطال ليلى أم لا كيف يدرى بذلك من يَتَقَلَّى ؟
لو تفرغت لاستطالة ليلى ولرعى النجوم كنت مخلا

وقوله في وصف الخمر :

وندمان سقيت الراح صرفا وستر الليل منسدل السجوف
صَفَتْ وصَفَتْ زجاجتها عليها كمعنى دق في ذهن لطيف

وقوله :

قل لزهير إذا حدا وشدا أقلل أو أكثر فأنت مهذارُ
سخنت من شدة البرودة حتى صرت عندى كأنك النار
لا يعجب السامعون من صفتى كذلك الثلج بارد حار

وهو بهذا يردد ما زعمه علماء الهند أن الشيء إذا زادت برودته صار حارا ،

وقوله :

ومستطيل على الصهباء باكرها في فتية باصطباح الراح حذاق
فكل شيء رآه ظنه قدحا وكل شخص رآه قال ذا الساق

ولقد كان الشاعر العربي الثعلبي المشهور بالمعاني معجباً بما في كتب الفرس من أفكار ، وهذا هو السبب في عمق معانيه وجدة بعضها ، كقوله في الشكر :

لو كان للشكر شخص يبين إذا ما تأمله الناظر
لمثلته لك حتى تراه لتعلم أنى أمرؤ شاكر

وقوله في الاعتذار :

ردت إليك ندامتى أملى وثنى إليك عنانه شكرى
وجمات عتبك عتب موعظة ورجاء عفوك منتهى عذرى

وقوله في مدح الرشيد :

ماذا عساى قائل يثنى عليك وقد ناداك في الوحى تقديسٌ وتطهيرُ
فت المدائح إلا أن ألسننا مستنطقات بما تخفى الضمائر

وله فى النثر قدم سبق . استدعاه المأمون وقال له :

بلغتني وفاتك فساءتني ، ثم بلغتني وفاتك فسرتني .

فقال العتابي :

يا أمير المؤمنين لو قسمت هذه السكات على أهل الأرض لوسعتهم ، وذلك لأنه لا دين إلا بك ، ولا دنيا إلا منك .

فقال المأمون : سلني .

فقال العتابي :

يدك بالعطاء أطلق من لساني .

ومن حكمه قوله : الأقلام مطايا الفطن . عشيرك من أحسن عشرتك . أهدى الناس إلى مودتك من أهدى بره إليك[١] .

---

(١) الشعر والشعراء ٣٦٠ والأغانى ١٢ — ٢ .

الفصل التاسع

آثار العرب فى الفرس

١ — العقيدة

سار العرب إلى الحيرة وفارس حاملين العقيدة الاسلامية التى أنعم الله بها على البشر ، فلما دانت لهم فارس خيروا أهلها بين الإسلام والجزية كما كانوا يفعلون فى البلاد التى فتحوها ، فهدى الله كثيراً من الفرس إلى الإسلام ، ثم شرح صدور أكثرهم فأسلموا مختارين راضين ، وما هى إلا حقبة من الزمن حتى برع كثير منهم فى العلوم الدينية ، وصاروا من أعلامها ، كأبى حنيفة والبخارى .

وبهذا ارتفع الفرس من وهدة الوثنية وما يشبهها ممثلة فى الزرادشتية والمانوية والمزدكية إلى أوج التوحيد الخالص ، وتحرروا من النظم الاجتماعية الفاسدة إلى النظم الإسلامية السامية ، فقد كانوا يحلون بعض المحارم من قبل ، وإن ادعوا فى القرون الوسطى أن عقائدهم المجوسية لم تكن تبيح لهم زواج المحارم[1] .

روى أن اسماعيل بن يسار — وكان شعوبيا — فخر على العرب بقوله :

إذ نربى بناتنا وتدسو ن سفاها بناتكم فى التراب

وكان أشعب فى السامعين فقال له : صدقت والله أراد العرب بناتهم لغير ما أردتموهن له . قال اسماعيل وماذاك ؟ قال أشعب : دفن العرب بناتهم خوفا من العار ، وربيتموهن لتنكحوهن . فضحك الحاضرون وود اسماعيل لو غاص فى الأرض[2] .

ونجم من السمو فى العقيدة والنظم الاجتماعية سمو فى النظام السياسى ، إذ كان الفرس يدينون بحق الملوك الإلهى إلى حد لم يكن فى أمة من الأمم ، كما قال براون

---

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية ٦٢ بارتولد

(٢) الأغانى ٤ — ١٢٠

ودوزى ومار[1] ، فصاروا بالإسلام أصحاب تحرر وديمقراطية .

وكان حبهم لآل البيت مضافاً إلى عوامل أخرى باعثا لكثرتهم على التشيع والدفاع عن مذهبهم الشيعى بدمائهم وأرواحهم[2]

على أن كثيراً من الفرس سمت نفوسهم ، وصفت أرواحهم ، وكثر فيهم الزهاد والمتصوفة .

٢ — العلوم الدينية

سارع كثير من الفرس إلى اعتناق الإسلام منذ الفتح العربى ، وشرع كثير منهم يتعلمون اللغة العربية ، لأنها لغة القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، ولغة الغالبين ، ففسحت اللغة العربية طريقها هنالك ، وجمات تصارع اللغة الفهلوية — لغة الفرس حينئذ ، وهى المرحلة الوسطى بين لغتهم القديمة قبل فتح الإسكندر لبلادهم وبين لغتهم الحديثة التى نشأت فى القرن الثالث الهجرى — حتى صارعتها فى الإنتاج العلمى والأدبى ، واستأثرت بالعلم والأدب أكثر من قرنين ، إلى أن نشأت اللغة الفارسية الحديثة ، فحاكت اللغة العربية حينا ، ثم زاحمتها ، ثم استقلت ، لكنها فى استقلالها مصبوغة بألوان شتى من التبعية للغة العربية وأدبها .

وقد ترجم الفرس كثيراً من الكتب الدينية ، وألفوا كتباً أخرى ، معتمدين على المصادر العربية .

ذكر المؤرخ الفارسى أبو جعفر نرشخى فى كتابه (تاريخ بخارى) أن أهلها كانوا فى أول العهد بالإسلام يقرأون القرآن الكريم فى ترجمته الفارسية[3] ، ولا شك أن هذه الترجمة كانت تقتضى ترجمة ما يتصل بالنص القرآنى من تفسير وتفصيل وتاريخ ، لهذا ترجم الفرس من عهد مبكر تفسير الطبرى ، ومن الراجح أن ترجمة فارسية موجزة لتفسير الطبرى ظهرت فى القرن الرابع بأقلام فريق من علماء

(١) أدب السياسة فى العصر الأموى ٣٤
(٢) المرجع السابق ٣٣
(٣) الأدب المقارن غنيمى هلال ٣٤٢

خراسان ، ثم كثرت الترجمات لكتب الحديث وكتب الفقه ، وكثرت المؤلفات في العلوم الشرعية معتمدة على المصادر العربية الإسلامية .

٣ – المفردات اللغوية

كان الفرس يصطنعون اللغة العربية في أول الأمر وسيلة للتأليف وبخاصة في العلوم الشرعية ، وكانت بلادهم موطناً من مواطن الأدب العربي منذ سادت العربية هناك إلى أن أغار التتار على بلادهم ، وكان الأدباء من الفرس يأتمون بالأدب العربي ، ويحاكونه وينقلون كثيرا من كلماته وعباراته ، ومازالوا يقرأونه ويتذوقونه إلى اليوم .

لهذا نجد طريقتهم في تربية الملكة الأدبية لاتغاير الطريقة التي نصح بها العرب ، يقول نظامي العروضي في كتابه (جهار مقالة[1]) :

« لا يبلغ كلام الكاتب درجة عالية حتى يأخذ من كل علم نصيبا ، ومن كل أستاذ نكتة ، ويسمع من كل حكيم لطيفة ، ويقتبس من كل أدب طرفة ، فينبغي أن يعتاد قراءة كلام رب العزة ، وأحاديث المصطفى ، وآثار الصحابة ، وأمثال العرب ، وكلمات العجم ، ومطالعة كتب السلف ، والنظر في صحف الخلف ، مثل ترسل الصاحب والصابي وقابوس ، والفاظ الحادي وإمامي وقدامة بن جعفر ، ومقامات بديع الزمان والحريري وحميد ، وتوقيعات البلعمي وأحمد بن الحسن ، ورسائل عبد الحميد . . . ومن دواوين العرب ديوان المتنبي والأبيوردي والغزي ، ومن شعر العجم شعر الأزرق ومثنوى الفردوسي . . . الخ[2] .

ومن هنا تدفقت الألفاظ العربية على الفرس ، وامتلأت بها لغتهم ، ولا سيما المؤلفات العلمية والأدبية .

والملاحظ أن الألفاظ العربية في اللغة العلمية أكثر من الألفاظ العربية في اللغة الأدبية ، وهي في النثر أكثر منها في الشعر ، لأن النثر العلمي قائم على المصطلحات العربية . أما النثر الأدبي فوسط بين النثر العلمي والشعر ، لكن يندر أن تتلاحق في الشعر ثلاثة أبيات ليس فيهما لفظ عربي[3] .

(١) المقالات الأربع .
(٢) قصة الأدب في العالم لأحمد أمين وزكي نجيب محمود
(٣) قصة الأدب في العالم .

على أن الألفاظ العربية بلغت فى بعض الكتب الفارسية من خمسين إلى ثمانين فى كل مائة ، حتى كادت الكلمات كلها تكون عربية مرتبة على قواعد النحو الفارسى .

وحتى النحو الفارسى لم يسلم من التأثير العربى ، كحذف الفعل فى بعض الجمل الفارسية أو تقديمه ، أو صياغة فعل مبنى للمجهول على الطريقة العربية ، أو استعمال الحال كما فى النحو العربى[1] .

لم يقتصر الفرس على اقتباس ألفاظ كثيرة من العربية ، بل اقتبسوا كثيراً من العبارات الكاملة، سواء أكانت من القرآن الكريم والحديث الشريف أم من الحكم والأمثال العربية .

على أن العربية حينما تأثرت بالفارسية لم تنقل منها إلا مفردات كما قلنا فى الباب الأول .

ومن هنا يتضح أن الكلمات الفارسية فى العربية قليلة جداً بالمقايسة إلى الكلمات العربية فى الفارسية ، وقليلة أيضاً بالنسبة إلى الكلمات العربية الأصيلة ، لأن الكلمات الفارسية التى تسربت إلى العربية فى العصر الجاهلى قليلة ، ثم قوى تسربها فى العصر العباسى بخاصة ، لكن العربية كانت آنئذ قد نمت ونضجت ، وصارت قديرة على التعبير عن مطالب الحياة ، فليست بحاجة إلى أن تقتبس من الفارسية إلا قليلا من المفردات للدلالة على أشياء لانظير لها عند العرب ، وقلما نقل العرب عن الفرس كلمات لهـا نظائر فى لغتهم وأن فعلوا ذلك أحياناً ، لخفة الكلمة الفارسيه على ألسنتهم مثل وَرْد بدلا من حَوْجَم ، وتوت بدلا من فِرْصاد، ورصاص بدلا من صَرَفان ، أو ليدلوا على معرفتهم بالفارسية ، مثل بوصى (ملاح) وَجردقة (رغيف) .

---

(١) الأدب المقارن ٣٤٣ .

ثم أن العرب نقلوا من الفارسية أسماء ، ولم ينقلوا منها حروفاً ولا أفعالا ، كما نجد فى المعاجم اللغوية ، وفى (شفاء الغليل) للشهاب الخفاجى ، على أنهم كانوا يتصرفون فى الأسماء الفارسية التى نقلوها ، فيخضعون نطقهم لأوزانهم ، ويشتقون منها أفعالا وغير أفعال[١] ، كما سبق فى التأثير اللغوى .

٤ — التاريخ

أعجب الفرس بكتاب الطبرى (تاريخ الرسل والملوك) لأنه فارسى الأصل ، ولأنه ثقة فيما سجله من تاريخهم القديم ، وحجة فيما سجل فى تاريخ الإسلام ، فترجمه الوزير السامانى (بلعمى) فى القرن الثالث ، بعد أن حذف سلاسل السند والروايات المتعددة ، لكنه أضاف إليه حكايات دينية وخلقية لأن الفرس يحرصون على أن يكون التاريخ مجالا للعظة والإرشاد .

وقد عمد المؤرخون من العرب — بعد الطبرى — إلى النثر المسجوع ، والتعبير الحافل بالخيال والصناعة والأمثال والشواهد الشعرية ، حتى إن العتبى صرح فى كتابه (تاريخ يمين الدولة) الذى ألفه سنة ٤١٢ هـ بأنه سلك مسلك الشعراء فى تسجيل مآثر السلطان محمود الغزنوى .

وإذ كان الفرس يقتفون آثار العرب ، حاكى مؤرخوهم هذا الضرب من التعبير ، فترجم الجرباذقانى كتاب يمين الدولة من العربية إلى الفارسية ؛ حريصاً على نقل الخصائص الفنية إلى لغة الفرس ، وصارت هذه الخصائص منهجاً يسلكه كثير من مؤرخيهم ؛ كما نجد فى كتاب التاريخ الذى ألفه شرف الدين وصاف فى القرن الثامن الهجرى .

---

(١) اشتقوا من ديوان دون وتدوين ومدون ، ومن لجام ألجم ومن كهرباء كهرب ومن مغناطيس مغطس . . الخ .

٥ ــ النثر الفني

كان الفرس يجدون فى الأدب العربى مثالهم الذى يحتذونه ، ومعينهم الذى ينهلون منه ؛ فحاكوا الأسلوب المسجوع المزخرف فى تدوين التاريخ كما فعل بعض مؤرخى العرب ؛ ونقلوا من العربية كثيرا من الكتب وكثيراً من رسائل البلغاء ؛ ونصحوا بتذوقها واحتذائها ؛ وإذا كان ابن المقفع قد ترجم من الفارسية أكثر ما فى (كليلة ودمنة) فإن الأصل الذى نقل عنه كان مفقودا ؛ فترجم الفرس هذا الكتاب من العربية إلى الفارسية : ترجمه نثرا أبوالمعالى نصر الله فى القرن السادس ؛ وترجمه الرودكى شعراً . وهذه لمحة إلى تأثر النثر الفارسى بالعربى .

١ — الرسائل الفنية :

أعجب كتاب الفرس بما كتبه البارزون من كتاب العرب ؛ فتأثروا بهم ، وحاكوهم فى افتنانهم وإن تأثرهم هذا يتمثل فى رسائلهم الديوانية والخاصة التى كتبوها محاكين رسائل عبد الحميد بن يحيى ومن اتبعوه فى الإطناب والتقديم والختام والاحتفال بالصياغة الفنية وغير هذا من خصائص كتابته ، كما نجد فى كتاب (التوسل إلى الترسل) الذى ألفه وجمعه بهاء الدين محمد البغدادى فى القرن السادس الهجرى .

٢ — المقامات :

كذلك حاكى الفرس العرب فى فن المقامة[١] . والمقامة فن عربى النشأة ما زال يتدرج ويرق حتى اكتمل على قلم الحريرى .

وقد ذهب بعض الباحثين[٢] إلى أن كتاب العرب نقلوا فن المقامات من الفرس ،

---

(١) المقامة فى الأصل موضع القيام وقد استعملت للدلالة على المجلس استعمال الأضداد ، ثم أطلقت على الحديث يقال فى مجلس واحد ، ثم قصرت على نوع من الأدب معلوم .

(٢) الدكتور أحمد ضيف فى كتابه العصر العباسى .

مستدلين بأن بديع الزمان الهمزانى كان يجيد الفارسية ، وكانت حياته فى بيئة فارسية، فى وقت كانت اللغة الفارسية فيه قد نهضت ، وكانت الدول الفارسية — السامانية فى خراسان وتركستان والبويهية بفارس والعراق ، والغزنوية فى أفغستان — تتنافس فى إنهاض الأدب الفارسى وتشجيعه ، ومن هنا استطاع بديع الزمان أن يكتب مقاماته فى نيسابور .

لكن هذا الرأى يعارضه أن ابن دريد الأزدى قد سبق بديع الزمان فابتكر نوعا من الأدب اشتقه من الحياة الفارسية ، إذ أنه عاش هناك مدة وكان غرضه من الأربعين حديثا التى ابتكرها أن يعارض بها أدب الفرس ، فهو يخترع المقامات باللغة العربية ، وإن كانت موضوعاتها من البيئة الفارسية ، وكان بتأثير انمويته أميل إلى التعريب [1] .

ثم عارضه أبو الحسن أحمد بن فارس العلامة اللغوى [2] ، إذ وضع مقامات حاكاها بعض الأدباء ، وقد اشتهر من بينهم تلميذه بديع الزمان الهمذانى المتوفى سنة ٣٩٨ هـ .

عاش ابن فارس وبديع فى بيئة فارسية كما عاش ابن دريد من قبل ، ثم مارس هذا الفن كثير من الكتاب حتى جاء الحريرى المتوفى سنة ٥١٦ هـ فأنشأ مقاماته الخمسين التى عارض فيها البديع ، وتفوق عليه وحاول كثير من الذين جاءوا بعد الحريرى أن يقتفوا أثره فلم يلحق به أحد .

والذى نستخلصه من هذه اللمحات أن المقامات فن عربى النشأة ، وان كان السابقون إلى اختراعه قد عاشوا فى بيئة فارسية ، لأن الفرس لم يكن نثرهم قد استقام فى ذلك الوقت ، ولم تعرف لهم قصص أو مقامات من هـــذا الطراز ليحاكيها العرب .

ولقد تأثر الأدب الفارسى بالمقامات العربية ، فإن حميد الدين البلخى المتوفى سنة

---

(١) زهر الآداب للحصرى ١ — ٢٣٥ تحقيق زكى مبارك

(٢) فى معجم البلدان ٤ — ٨٠ أنه توفى سنة ٣٦٩ وفى ٤ — ٩٣ أنه توفى سنة ٣٩٥ هـ وهذا يتفق مع مافى أنباء الرواة صفحة ٩٥ .

٥٥٩ هـ يسير فى مقاماته الفارسية على نهج بديع الزمان والحريرى ، وهو نفسه يقر بهذا فى مقاماته ، وإن خالفهما فى عدة أمور ، منها أنه لا يروى عن شخص معين كما روى بديع الزمان عن عيسى بن هشام . وكما روى الحريرى عن الحارث ابن همام ، وان مقاماته لا تدور حول بطل معين كما دارت مقامات البديع على ابى الفتح الاسكندرى ، ومقامات الحريرى على أبى زيد السروجى ، بل تحتل شخصية المؤلف المكان الأول ، ويروى الأحداث عن كثير من أصدقائه لم يذكر أسماءهم ، ويتعدد الأبطال فى مقاماته[1] .

٦ — الشعر

لم يرد شىء من شعر الفرس القدماء فى لغتهم الفهلوية أو الفارسية القديمة ، ومن المرجح أن كان لهم شعر ولكنه توارى فى غياهب الزمان .

وفقدان الشعر الفارسى القديم هو الذى زين للدارسين من العرب والفرس أن يعتقدوا بأن الفرس القدماء لم يكن لهم شعر .

قال ابن قتيبة : (وللعرب شعر لا يشركها فيه أحد من أمم الاعاجم على الأوزان والأعاريض والقوافى والتشبيه ووصف الديار والآثار والجبال والرمال والفلوات وسرى الليل والنجوم . وإنما كانت أشعار العجم وأغانيهم فى مطلق من القول ، ثم سمع بعد قوم منهم أشعار العرب ، وفهموا الوزن والعروض ، فتكلفوا مثل ذلك فى الفارسية وشبهوه بالعربية) .

وقد مر بنا فى الباب الأول من الكتاب أن محمد عوفى ذكر فى كتابه (لباب الألباب) — أول كتاب فى تاريخ الأدب الفارسى — أن بهرام جور أول من نظم شعرا بالفارسية ، وأنه تعلم الشعر من العرب الذين نشأ بينهم فى الحيرة ، وأن هذا المؤلف قرأ ديوانه فى مكتبة بخارى ...... حتى سطعت شمس الإسلام على ديار العجم ، واختلط الفرس بالعرب ، وحفظوا أشعارهم ، وعرفوا نظام

---

(١) الادب المقارن ٢١٤

بحورهم وأوزانهم وقوافيهم ، وشرعوا ينسجون على منوالهم لطائف من نتاج طباعهم ...)

وقد ظهر هذا واضحاً منذ القرن الثالث الهجرى .

وما من شك فى أن الفرس كانوا شديدى الإعجاب بالشعر العربى ، وكانوا يتوخون محاكاته حتى فى شعرهم الذى نظموه بالفارسية فيما بعد ، حتى إنهم نظموا ما يسمى بالمُلَمَّع ، وهو القصيدة التى يعمد فيها الشاعر إلى نظم بيت بالعربية يليه بيت بالفارسية ، أو يفعل عكس هذا ، مراعياً فى الحالين أن تجىء الأفكار مترابطة مسلسلة كأنها بلغة واحدة .

أما الموضوعات التى طرقها شعراء الفرس فإن بعضها متابعة الموضوعات التى طرقها العرب كالمدح والفخر والهجاء والغزل والرثاء والوصف والحكمة .

وقد تفوق العرب فى موضوعات الحماسة والبطولة والغيرة والحرية والكرم والمخاطرة وأشباهها ، كما فاقوا فى تصوير أحوال المجتمع والأسرة ومظاهر الحضارة ، وفى الإكثار من الغزل بالمرأة وإعزازها وحمايتها والشوق إليها ، والعفة التى تصون الحب العذرى من حاجات الجسد .

وتفوق الفرس فى عدة موضوعات ، كالقصة والشعر الصوفى .

وفى الصفحات الآتية يتبين تأثر الشعر الفارسى بالعربى .

١ — الشعر الطللى :

أكثر شعراء العرب منذ الجاهلية من الوقوف على الأطلال فى التقديم لبعض قصائدهم وتبعهم فى ذلك شعراء العصور اللاحقة[١] .

وقد أقتفى شعراء الفرس آثار العرب فى بعض قصائدهم ، كما نجد فى قصيدة الشاعر الفارسى (منوچهرى) المتوفى أوائل القرن الخامس الهجرى يمدح بها عظيما من عظماء عصره ، فقد بكى الطلل الذى وقف عليه ، وعبر عن برمه بهجر حبيبته ، وتسلى بالرحلة على ناقته ، ثم قال إنه لقى ركب المحبوبة وصواحبها ، فرحب بهن ،

(١) راجع (الغزل فى العصر الجاهلى) للمؤلف .

وعقرلهن ناقته ، ثم ركب مع محبوبته فى هودج واحد ، فشعر بأن مركبه الثريا والسماك لا نجيبة من الابل ، وتخلص من هذا كله إلى المدح . وهذا هو النسق الذى كان متبعا فى كثير من قصائد المدح العربية .

كذلك حاكى الفرس العرب فى بكائهم الآثار ، فالشاعر الفارسى (خاقانى) المتوفى فى القرن الخامس الهجرى قصيدة وقف فيها بايوان كسرى ، واستلهمه الحكمة والموعظة ، وبكى مجد الفرس الدائر ، كما فعل البحترى من قبله . وشبيه بهذا بكاء البلدان التى خربتها الحروب ، كما نجد القاضى حميد الدين بلخى المتوفى فى القرن السادس الهجرى[1] يبكى مدينة (بلخ) ويذرف الدمع على خرائبها وعلى أصدقائه فيها ومواطنيه بعد أن خربها (الغز) سنة ٥٤٨ هـ ، وهو يحاكى هنا بنثره على لسان صديقه ما فعله الحريرى من قبله ، إذ بكى على لسان أبى زيد السروجى بلدته (سروج) التى ضربها الصليبيون سنة ٤٩٤ هـ ، وإن كان الحريرى قد بكى شعراء فى مقامته الثلاثين .

٢ — المدح :

أكثر شعراء الفرس من المديح ، وأكثروا من المبالغة فى الاشادة بممدوحيهم ووصفهم بالفضائل ، من سخاء وشجاعة وبراعة فى تدبير شئون الحكم :

وهم فى هذا يشبهون معاصريهم من شعراء العربية ، لأنهم كانوا مثل الشعراء العرب ، على صلة بأمراء الدويلات وولاتها ، وكان هؤلاء الأمراء يتنافسون فى تقريب الشعراء والأدباء ، ويجزلون لهم العطايا والمنح ليشيدوا بذكرهم ، ويرفعوا من قدرهم ، ويسجلوا مآثرهم ، وقد جهر الشيخ أبو زراعة الجرجانى بأن العطايا هى التى تلهم المدح الرائع ، إذ سأله أمير خراسان : أتنظم شعرا مثل شعر الرودكى ؟ فأجاب : إن حسن نظمى يفوق حسن شعره ، ولكن من الواجب أن تصل الشاعر باحسانك ، وتمده بعطائك ، حتى يصبح مرضيا عنه من معاصريه ، فإن الشاعر لايظهر أمره إلا حين يصله ممدوحه ببره ، وينظر إليه بعين رضاه . ثم أنشد أبياتا

(١) الادب المقارن ١٨٨

فى هذا المعنى ختمها بقوله : أعطنى واحدا من الف مما نال من عطايا الملوك يأتى شعر مثل شعره الف مرة .

ومن مدائحهم قول أبى منصور عمارة المروزى فى مدح السلطان محمود الغزنوى :

إن النور البادى على جبين الشمس منبعث من الملك ، وأن كرمه أظهر لى كوكب السعد على جبينى ، ولو ذكر أحد اسمه على شواطىء دجلة لصار ماؤه عسلا مصفى ، ولاستحال طينه عسل ورد[1].

٣ — الغزل

أما شعراء الغزل فقد افتنوا فى وصف المحبوب وأكثروا من التشبيهات والمبالغات ، وكان كلفهم شديداً بوصف الطرة والشعر الجعد ، فشبهوا الطرة بالعقاب وبحروف الهجاء المقوسة وهى الجيم والعين والنون .

كذلك أكثروا من العتاب وتصوير حال العاشق وما يعانيه من أسى وحزن إذا هجره معشوقه .

من الغزل قول أبى شكور البلخى : نظرت من بُعْدٍ لأراك ، فجَرَحْتُ وجنتك المشرقة بالحسن والملاحة ، فلما نظرت إلى بعينك العابلة جرحت قلبى ، وهذا قصاص عادل ، لأن الجرح بالجرح .

وقد سبق فى دراسة تأثير الفرس فى الأدب العربى أن اللغة الفارسية لاتفرق بين المذكر والمؤنث فى الضمائر وأسماء الإشارة ، وإنما يتضح المراد بالسياق ، وأن بعض الدراسين ذهبوا إلى أن العرب نقلوا الغزل بالمذكر عن الفرس .

وقلنا إن الصواب أن الغزل بالمذكر نشأ نتيجة لمؤثرات اجتماعية ، كان لأبناء الفرس فيها النصيب الأكبر ، فهو لم ينشأ محاكاة لأدب فارسى ، وإنما نشأ بتأثير هذه العوامل ، وبتأثير الفرس الذين عاشوا فى المجتمع العربى ، وقرضوا الشعر العربى.

---

(١) قصة الأدب الفارسى .

٤ — الخمريات :

أكثر شعراء الفرس من وصف الخمر ، وآثارها فى النفس ، وجاء فى وصفهم كثير من التشبيهات الطريفة والمعانى الجديدة ، والغلو والإغراق فى المبالغة ، فهم متأثرون بالعرب ونقلة عنهم ، لكنهم زادوا على ماقالوا وأضافوا جديدا .

من الأمثلة على هذا قول أبى شكور :

إن الخمر حين يعصرها البستانى سائل مشرق أو روح مشرقة ، وإن الأعمى لو رأى قطرة منها لقال : هذه عينى . ولو رآها الميت لقال : هذه روحى . وإنها حين تصب من القنينة فى الكأس تشبه الهلال ، وحين تستقر فى الكأس تشبه البدر .

ومنها قول الرودكى :

إن تأثير الخمر يبلغ أعالى المخ قبل أن تذاق ، وأنها لو سقطت قطرة منها فى نهر النيل لظل التمساح ثملا من رائحتها مائة عام ، وإن الغزال لو شرب قطرة منها لصار أسدا مرهوبا لا يكترث بالفهد .

ويبدو أن ولعهم بالخمر راجع إلى غنى بيئتهم بالبساتين الفيحاء ، والحدائق الحافلة بالفواكه والأزهار والثمار التى تعتصر منها الخمر .

على أن بعضهم كان يرمز بالخمر إلى المحبة الإلهية ، وهم المتصوفة من الشعراء[1]

٥ — الشعر القصصى :

تفوق الفرس فى القصص ، وتجلى تفوقهم على العرب فى شعرهم القصصى فطالت بعض قصصهم ، وتداخل بعضها فى بعض ، وتولد بعضها من بعض . من قصصهم التاريخية الشاهنامة التى نظمها الفردوسى فى نحو خمسة وخمسين ألف بيت من البحر المتقارب ، والقافية المزدوجة فى تاريخ الفرس القدماء وأساطيرهم حتى نهاية الدولة الساسانية والفتح العربى .

---

(١) قصة الأدب الفارسى ١٨٢

ومن قصصهم الغرامية يوسف وزليخا للفردوسى ، ويوسف وزليخا للجامى خسرو وشيرين (كسرى ابرويز وحظيته شيرين) وليلى والمجنون للشاعر نظامى ألخ .

٦ — التصوف :

كذلك تفوقوا فى شعر التصوف ، فاكثروا فى الحديث عن معرفة الخالق ومحبته ومن الفناء المؤدى إلى وحدة الوجود ، وهم يلجأون إلى ألوان من التصوير ، وضروب من الحقيقة والمجاز والتصريح والكناية والوضوح والخفاء ، كقول العطار : « العشق نار والعقل دخان ، فاذا جاء العشق ولى العقل هارباً » وقول جلال الدين الرومى : « العشق أن تنظر إلى السموات ، وتمزق كل لحظة مائة حجاب ، وأول خطواته أن تهجر الحياة » وقول حافظ : « كم فى الطريق إلى منزل ليلى من أهوال وأخطار ، وشرط أول خطوة أن تكون المجنون » وقول أبى سعيد : جسمى كله ألم ، وعينى كلها دمع من أجلك ؛ وإنما يعاش بغير جسم فى عشقك ، لم يبق منى أثر ، فما هذا العشق ؟ صوت كل معشوقا ، فمن العاشق لك[١] ؟

٧ — الأوزان والقوافى :

كذلك نشأ العروض الفارسى معتمداً على العروض العربى فى دوائره وبحوره ، واصطلاحاته . إلا أن الفرس آثروا بعض الأوزان العربية لأنها أكثر طواعية للغتهم ، وأقرب إلى طباعهم وزادوا على بعضها الآخر ، ونقصوا منه ، لكن بعض المغايرة فى بعض الأوزان لا ينفى أن الشعر الفارسى يعتمد على الأوزان العربية ، وهذا هو السبب فى أن مؤلف (كتاب المعجم) ألفه فى العروضين معا وكتبه بالعربية ، واختار أمثلته من العربية والفارسية ، ثم لامه بعض أدباء الفرس فقسم كتابه قسمين المعرب فى معايير أشعار العرب ، والمعجم فى معايير أشعار العجم . لكنه بعد هذا التقسيم اضطر وهو يتكلم فى العروض الفارسى أن يستند إلى شرح العروض العربى لأن صناعة الشعر — كما قال المؤلف نفسه — من اختراع العرب ، والعجم فى كل

(١) قصة الأدب الفارسى

الأبواب تابعون لا واضعون ؛ وناقلون لا مستقلون . . . ونستطيع أن نلخص التعديل الذى أدخله الفرس على الأوزان العربية فى عدة أمور :

١ — أضافوا إلى البحور الستة عشر المعروفة فى الشعر العربى ثلاثة أبحر سموها الغريب والقريب والمشاكل .

٢ — أطالوا بعض الأوزان ، فاجازوا فى بحر الرمل — وهو فى العروض العربى ستة أجزاء أو أقل — أن يكون من ثمانية أجزاء .

٣ — تصرفوا فى بعض الزحافات والعلل تصرفا أدى إلى توليد أضرب مستقلة من الأزوان العربية كما نجد فى الرباعى .

٤ — لم ينظموا فى البحور العربية التى أكثر منها العرب كالطويل والمديد والبسيط إلا قليلا ، وأكثروا من النظم فى البحور التى قال منها العرب كالمجتث والمضارع والمقتضب . وهناك بحور أكثر منها الفرس والعرب على السواء كالهزج والرمل والخفيف والمتقارب .

أما القافية فقد حاكوا العرب فيها ونقلوا عنهم مصطلحاتها ، إلا أنهم أكثروا من القافية المزدوجة وسموها المثنوى[1] وأكثروا من الدوبيت أى الرباعى[2] ، وخالفوا نظام الموشحات العربية وسموها بند[3] .

٧ — البلاغة

قلنا أن الأدب الفارسى اعتمد فى نشأته على الأدب العربى ، واستظل بظله ، وحاكاه فترة من الزمن طويلة ، فمن الطبيعى أن يكون قد حاكاه فى ضروب بلاغته .

---

(١) نسبة إلى مثنى . أى يتفق كل شطرين فى الروى كما نجد فى الشهنامة .

(٢) من أربعة أسطر تتفق فى الروى فى الاول والثانى والرابع ، وينفرد الثالث غالبا وهو الذى انتقل إلى العربية باسم دوبيت .

(٣) منظومة مقسمة الى أقسام فى كل قسم أبيات متفقة فى الروى تختم ببيت مستقل ، يكرر بعد كل قسم ، فيسمى النظم ترجيعا أو يكرر رويه فقط فيسمى النظم تركيبا ، وهو يشبه الموشح العربى .

١ — صارت التشبيهات والاستعارات والمجازات الفارسية مثل العربية .

٢ — أكثر أدباء الفرس من الحلى اللفظية والمعنوية التي أولع بها العرب منذ القرن الثالث الهجرى ، من سجع وطباق وجناس الخ .

٣ — نقل الفرس قواعد البلاغة العربية ومصطلحاتها العربية ، فكانت مؤلفاتهم فيها لا تغاير المؤلفات العربية إلا في قليل ، وطبق المؤلفون قواعد البلاغة على أدب الفرس وأدب العرب ، كما فعل رشيد الدين الوطواط العمرى في كتابه (حدائق السحر في دقائق الشعر) .

٨ — الحروف الهجائية

على أن الفرس كتبوا لغتهم — وما زالوا يكتبونها إلى اليوم — بالحروف الهجائية العربية ، كما فعل الأتراك إلى عهد جديد قريب .

خاتمة المطاف

(١)

تبين من هذه الدراسة أن العرب والفرس كانوا على صلات فى الجاهلية ، وأن صلاتهم كانت فى الإسلام أكثر وسائل وأعمق آثاراً .

وتبين أن العرب تأثروا بالفرس فى العصر الجاهلى ، وأنهم أثروا فيهم ، لكن هذا كان فى نطاق ضيق محدود .

فلما اتصلوا فى الإسلام كان تبادل التأثير والتأثر أوسع نطاقا ، وأبعد غوراً ، وأوضح معالم ومظاهر .

واستبان أن العرب أخذوا من الفرس كثيراً ، وأعطوهم كثيراً ، بل إنهم أعطوا أكثر مما أخذوا وأنفع مما نقلوا .

وليس يعيب العرب أنهم نقلوا من الفرس ، ولا ينتقص الفرس أنهم أخذوا من العرب .

وما يحق للعرب أن يمنوا على الفرس بما أعطوهم ، ولا للفرس أن يمتنوا على العرب بما أولوهم .

فإن الأمم كانت وما زالت تتبادل النظم والثقافات كما تتبادل السلع والخيرات .

بل إن المعرفة والثقافة تنتقل بسلطانها الذاتى من صقع إلى صقع ، ومن شعب إلى شعب ، كما تنتقل السحائب والرياح ، لا تصدها عوائق ، ولا تردها حواجز .

وإذا كانت النظم والأفكار والثقافات المنقولة أو المتنقلة تنطوى على خير وعلى شر ، وعلى نافع وعلى ضار ، تبين من آثار الفرس فى العرب ، فإن الاتصال الوثيق الطويل الأجل ليس من شأنه أن يكفل الخير الخالص والنفع المحض فى مثل تلك الأحوال .

(٢)

وإذاً فقد كانت صلات العرب بالفرس وسيلة لتأثر الأدب العربي شعره ونثره بالفرس ، لكنا لا نستطيع أن نصف هذا التأثر بأنه تطور أو تغير فى الجوهر ، لأن الفرس لم يضيفو إلى أبواب الشعر العربى جديداً ، سوى التوسع فى الغزل المكشوف وابتداع الغزل بالمذكر ، وما يتصل بالزندقة والإلحاد ، ولا نعد هذه أنواعا جديدة فى الشعر لأن الشعر العربى بقى غنائيا كما كان .

وهم اقتفوا آثار العرب ، فنظموا على أوزانهم ، والتزموا القافية ، وعددوا موضوعات القصيدة . ولم يخرجوا على نظام القصيدة المألوف . حتى أبو نواس الذى كان يسخر ممن يفتتحون قصائدهم بالغزل والوقوف على الأطلال لم يستطع أن يتحرر من الغزل فى مطالع قصائده كلها . فإن له قصائد مبدوءة بالغزل وبكاء الأطلال .

كذلك لم يستطع الكتاب من أبناء الفرس أن يصبغوا النثر العربى بصبغ فارسى ولم يستطيعوا أن يخرجوا به عن نسقه الأصيل ، على أنهم نقلوا إليه ما لم يكن فيه ، نقلوا إليه القصة والتاريخ وبعض الحكم ، وهذا إثراء له ولا شك ، ثم أضافوا إليه بعض مظاهر شكلية كالإكثار من الحلى اللفظية والمعنوية وهذه قيود تذل الحرية وتعوق الفن .

ولقد دللت فى كتاب آخر على أن التوقيعات أصيلة فى الأدب العربى ، وأن النثر الفنى نشأ نشأة عربية ، أقبل أن يتصل العرب بالفرس اتصالا ثقافياً وأدبياً .

(٣)

كذلك كانت صلات الفرس بالعرب وسائط لتأثرهم بالعرب ، فاعتنقوا الإسلام ، وتزودوا بما يحمل من خيرات إلى القلوب والعقول ، وبما يكفل من سمو فى نظم الاجتماع .

وكانوا أيما كلف بالتأليف فى العلوم الدينية واللغوية والأدبية باللغة العربية أول الأمر، ثم بلغتهم الفارسية بعد ذلك .

ونقلوا كلمات كثيرة جداً من العربية إلى الفارسية ، وزودوا الفارسية بجمل وعبارات كاملة .

واقتبسوا من الشعر العربي أوزانه وقوافيه ومصطلحات عروضه ، ونهجوا نهج العرب في أكثر موضوعات الشعر .

وظهر تأثر نثرهم الفني بالعرب فيما كتبوه في التاريخ والرسائل الفنية والمقامات .

وكان من أثر هذا كله أن صارت البلاغة تابعة للبلاغة العربية ، ومحاكية لها في كثير من مصطلحاتها .

فلا عجب في أن تغلبت اللغة العربية على اللغة الفارسية وصرعتها إلى القرن الرابع ، فلما جد الفرس في بعث لغتهم منذ القرن الثالث لم يستطيعوا أن يبعثوها صافية من آلاف الكلمات العربية ، ولا من ألوان البلاغة العربية ، ولم يستطيعوا أن يجردوها من التقاليد الأدبية العربية .

على أنهم كتبوا لغتهم الفارسية وما زالوا يكتبونها بالحروف العربية ،

---

(١) أدب السياسة في العصر الأموي :

مذاهب وشخصيات

تقدم

أبو حامد الغزالي

المفكر الثائر

بقلم

محمد صادق عرجون

الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد ــ روض الفرج

تليفون : ٤٥٣٤٦ ــ ٤٥٤٠٥ ــ ٣١٦٢٥